

طبيبي غماري

الجندي والدولة والثورات العربية



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



المحتويات

قائمة الجداول

قائمة الأشكال

مقدمة

الفصل الأول

العلاقات العسكرية - المدنية

الفصل الثاني

مقاربات العلاقات العسكرية - المدنية

أولاً: نظرية هتنتغتون

ثانياً: نظرية فاينر

ثالثاً: نظرية جان ویتز

رابعاً: نظرية مهران كامرافا

خامساً: مقارنة زولتان باراني

الفصل الثالث

الشبكة التحليلية الشارحة

العلاقات العسكرية - المدنية في الوطن العربي

أولاً: أساس الشبكة التحليلية المعتمدة

ثانياً: آلية الوقاية من الانقلابات

ثالثاً: بين الثورة والانقلاب

رابعاً: حدود البحث وتحذيرات منهجية لا بد منها

الفصل الرابع

تحليل ردات فعل جيوش ثورات الربيع العربي

أولاً: الجيش الليبي: من التفكك إلى الفوضى

ثانياً: الجيش المصري: الدولة العميقة

ثالثاً: الجيش السوري: الولاء الطائفي

رابعاً: الجيش اليمني بين القبيلة والطائفة والأيدولوجيا

خامساً: الجيش التونسي: الاحترافية على المحك

خاتمة

المراجع

1- العربية

2- الأجنبية

قائمة الجداول

الجدول (1-1)

الأبعاد الأربعة للفروق بين العسكري والمدني

قائمة الأشكال

الشكل (1-2)

شبكة العلاقات المعقدة بين العسكري والمدني بحسب نظرية فاينر

الشكل (1-3)

تفسير ردات فعل الجيوش العربية تجاه ثورات الربيع العربي

مقدمة

كتاب الجندي والدولة والثورات العربية عرض متأن ومنهجي للعلاقات العسكرية - المدنية في الوطن العربي خلال مراحل التحول، علمًا أن فكرة الكتاب تنأسس على مسلمة مفادها أن تشكّل العلاقات العسكرية - المدنية في دول الربيع العربي، بالصورة التي ظهرت فيها، يرتبط أساسًا بتاريخية هذه العلاقات في المراحل التي سبقت التحول؛ أي إن تصرف الجيوش العربية بالأساليب المختلفة التي لمسناها في الواقع، ليس إلا نتيجة لأعوام طويلة من التمييز المختلف والمتباين للعلاقات العسكرية - المدنية في العالم العربي.

تطالب كثير من النخب العربية بضرورة إبعاد الجيش عن السياسة، وهو مطلب طوباوي في نظري، بسبب استحالة إمكانية منع العسكر من المشاركة في الحياة السياسية؛ فهم، حتى في حالة اعتزالهم السياسة، لا يكونون بعيدين منها، أو هم يشاركون في السياسة بشكل مختلف عن الشكل المعهود. وليس ذلك غريبًا، كونه يتسجم مع النظريات المؤطرة للعلاقات العسكرية - المدنية، التي يعتمد جزء منها - كما سنبين لاحقًا - براديغمًا (قالبًا) قائمًا على استحالة عزل العسكر عن السياسة. يقول فاينر، أحد كبار المنظرين المؤسسين للدراسات في حقل العلاقات العسكرية - المدنية: «يشكّل الجيش، بوصفه قوة سياسية مستقلة، ظاهرة سياسية متميزة وخاصة؛ فالقوات المسلحة تدخلت في السياسة في كثير من الدول، وبشكل متواصل في المراحل التاريخية، ولا تزال تفعل هذا إلى يومنا، ويكون تدخلها في كثير من الأحيان حاسمًا، وهذا ما يجعل مسألة التدخل حاضرة في المستقبل أكثر فأكثر، بحيث لا يمكننا الحديث عن مغامرة استثنائية وموقّعة ومعزولة»⁽¹⁾. وهذا يعني أن حضور الجيش في حلّيات السياسة اضطراري وإجباري في كثير من الأحيان، وليس من الواجب التفكير في منع تدخل العسكر في السياسة، بل التفكير في ضبطه وتنظيمه، وجعل مشاركة العسكر في الحياة المدنية مشاركة إيجابية، تخدم الديمقراطية وتحميها.

من هنا، يبقى الحديث عن الجيش مسألة صعبة ومعقدة في الأساس، إذ هي تتحوّل إلى موضوع ملغّم عندما يتعلق الأمر بالجيوش العربية، لأن مسائل الجيش في الوطن العربي تحاط عادة بالسرية لدواعٍ أمنية واستراتيجية أحيانًا، ولدواعي حماية النظام في

أحيان أخرى. لذلك، يغدو التحليل وفق معطيات موضوعية أمرًا صعبًا، فيكتفي الباحث عادة بما تجود به المؤسسة العسكرية عليه من معلومات، هي شحيحة في الغالب، ومُقدّمة كمعطى يخدم الجيش نفسه، أكثر ممّا يخدم البحث والباحث، أو يجد نفسه مضطرًا إلى الاعتماد على ما تجود به الكتابات الغربية، المستمدّة أساسًا من التقارير الاستخبارية، الأمر الذي ثبتّ الجيش أو العسكر، كأحد أخطر التابوهات في المجتمعات العربية.

الحديث عن العلاقات العسكرية - المدنية في العالم العربي هو حديث عن صراعات السلطة في الأساس؛ فالعسكر يمتلكون قوة السلاح، وقوة التنظيم ووحدته. وهذا التنظيم يتعدى المؤسسة العسكرية ليربطها بشبكات محلية ودولية، تجعل التنظيم العسكري أكثر تعقيدًا ممّا يبدو عليه. والمؤسسة العسكرية «لا تشكل بيروقراطية تراتبية معقدة فحسب، بل إنها تتفاعل أيضًا في الدولة الحديثة مع بيروقراطيات محلية ودولية أخرى...»⁽²⁾. كما أن العسكري يمتلك قوة المعلومة والاتصال كواحدة من أهم خصائص الجيوش الحديثة القوية؛ فأجهزة الاستخبارات تتحمل مسؤولية متابعة الأمن الداخلي للجيش والدولة والأمن الخارجي، وتستطيع تناقل المعلومات، بشكل سريع، بين مختلف طبقات التنظيم الهرمي البيروقراطي، بالشكل الذي يضمن السرعة والفعالية في تدخّل مختلف وحدات الجيش. والرهان في هذا المستوى معني بالقدرة على المحافظة على التنظيم البيروقراطي الدقيق والصلب، ومعني في الوقت نفسه بالقدرة على تطوير شبكة جمع المعلومات، وشبكة توزيعها، بشكل سريع وسلس، يضمن سيولة عالية للمعلومات بين وحدات الجيش ومراتبه، الأمر الذي يعطي الجيش أسبقية مريحة بالنسبة إلى جميع التنظيمات السياسية والاجتماعية الصديقة والمعادية، فيحافظ بذلك، على عنصرَي الأسبقية والمفاجأة الأساسيين في العقيدة العسكرية بصفة عامة.

نتّوج القوى الثلاث السالفة الذكر (السلاح والتنظيم والمعلومة) قوة التضامن الأخوي بين مختلف أفراد الجيش؛ فأخوة السلاح أعلى وأقوى من جميع أشكال التضامن الأخرى، بما في ذلك التضامن العائلي، بالنظر إلى أن من المفترض أن يلتزم بعض أفراد الجيش حماية بعضه الآخر، ما يؤدّ بينهم شكلاً من أشكال الأخوة التي تصبح ملزمة للجميع، بل إنها تتحوّل إلى خاصية من خصائص التنظيم العسكري، الذي يعاقب كل مقصّر بعدم احترامها. ومن منطلق مقتضيات التنظيم العسكري

البيروقراطي للجيش، والذي يوحي بوجود تضامن ميكانيكي بالمعنى الذي جاء به دوركهيم، فإن العلاقات الكامنة التي تجمع بين أفراد الجيش توحي بوجود تضامن عضوي بين مكونات الوحدات العسكرية المختلفة، وهذا يعني أن التقسيم الذي وضعه دوركهيم للتضامن يصبح غير مجدٍ في الحالة العسكرية، أو أنه يحتاج إلى إضافة صنف ثالث يجمع بين التضامنين، لنحصل على شكل خاص من التضامن، يجمع بين التضامن الميكانيكي، حيث إنه مقرر تنظيميًا وقانونيًا وبيروقراطيًا، ويفرض احترامه بمعايير انضباطية دقيقة وصارمة. ويكون، في الوقت ذاته، تضامنًا عضويًا باعتبار أنه مؤسس على الشرف والأمانة، وعلى تقاسم آلام السلاح وأماله. فالمؤسسة العسكرية تعتمد على «مبدأ الشرف باعتباره أيديولوجيا موحدة»⁽³⁾.

الجيش، في الأساس، قوة مسلحة ومتخصصة بالميدان الذي تعمل فيه، سواء أكانت قوة برية أم بحرية أم جوية، أم قوة دفاع جوي، أم قوات خاصة. وكل قوة تعمل على تزويد أفرادها بجميع المعدات اللازمة لضمان فعالية ميدانية قصوى تفتقد لها المجموعات السياسية والمدنية. ولا يكفي الجيش امتلاك العدة والعتاد، بل إنه يحتاج أيضًا إلى كثير من التدريب على ما يمتلكه من أسلحة وفق استراتيجيات تحددها القيادة العليا للجيش؛ فالجاهزية الدائمة هي المبدأ الأساس لأي قوة عسكرية.

يمثل التنظيم التراتبي أيضًا خاصية مهمة في الجيوش الحديثة، حيث ينتظم الجيش بشكل صارم وهرمي، ذي قاعدة عريضة وقمة دقيقة وواحدة، والترقية «ترتبط في المؤسسة العسكرية بالإجراءات التنظيمية المطبقة وبغايات المنظمة العسكرية»⁽⁴⁾. كل هذا يجعل الطاعة والانضباط واجبًا عسكريًا أساسيًا من القاعدة باتجاه القمة، بحيث تُعطى الأهمية للوظائف التي يتولاها الأفراد في الهرم وليس لشخصياتهم.

تمنح هذه الخصائص الجيش سلطة القوة بجميع معانيها الممكنة؛ فالجيوش تؤسس لتحقيق أهداف معينة، ربما من بينها دعم السلطات المدنية، لكن يبقى هدفها الأساس المحاربة وربح الحروب. فمميزات المؤسسة العسكرية تخضع للغاية الأساسية وليس للغاية الثانوية، وهي تتمثل في: القيادة المركزية؛ التراتبية؛ الانضباط؛ الاتصال البيني؛ روح الجسد؛ العزلة؛ الاكتفاء الذاتي⁽⁵⁾.

تتميز الجيوش الحديثة بالقيادة المركزية؛ فالقرارات كلها تعود إلى القائد الأعلى للجيش. وحتى لو كانت قيادة الجيش تعتمد على تفويض سلطاتها للوحدات الأدنى منها، أو الوحدات العملية، فإن جميع القرارات تُتخذ في النهاية بموافقة القيادات

العليا. وعند تضافر خاصية القيادة المركزية وباقي الخصائص، نصبح أمام جهاز قوي ومتناسك، في مقابل المجتمع السياسي المدني الذي يفتقد قوة السلاح، ويتميز بتعدد التنظيم وتعقده، وضعف المعلومة وعدم دقتها. أضف إلى ذلك ضعف التضامن بين مكوناته؛ فالسياسة مبنية على النسبية في كل شيء، وعلى التنافس واللائقة بين الفاعلين الأساسيين، عوض التضامن الأخوي العسكري. من هنا، تظهر إشكالية العلاقة بين العسكري والمدني؛ فالمدني الذي لا يملك إلا «سلطة الشرعية»، يعمل من أجل الهيمنة على العسكري الذي يملك «سلطة القوة». ومن هنا، يصبح التوصيف الذي قدمه فاينر معقولاً وواقعياً، عندما يقرر أن «للمؤسسة العسكرية ثلاث أفضليات، مقارنة بالتنظيمات المدنية: تفوق واضح من حيث التنظيم؛ روابط عاطفية قوية؛ حصريّة امتلاك السلاح. بالنظر إلى هذه الأسبقية، يجب عدم التساؤل عن سبب تمرد العسكري على المدنيين، بل يجب التساؤل عن سبب خضوعهم الدائم لهم»⁽⁶⁾. وبالنظر إلى القوة التي يتمتع بها العسكري، وإلى الضعف الذي يتميز به السياسي المدني، فإن مسألة تسيير العلاقات العسكرية - المدنية تصبح إشكالية فعلاً.

ثمة تساؤلات كثيرة تُطرح حول مسألة العلاقات العسكرية - المدنية، لعل أهمها هو كيف يمكن ضمان حماية عسكرية للمدنيين، من دون أن يتجاوز العسكري هذه الحدود، ويحوّل الحماية إلى هيمنة وسيطرة، خارج الأطر الدستورية المنظّمة للدولة؟ فالنقاش حول/وفي مسألة العلاقة بين العسكري والمدني يطرح من البداية «مسألة السلطة السياسية للدولة، فالسؤال الأبدي 'من يحرس الحارس؟' كان محورياً أساسياً في نقاشات أفلاطون بشأن الجمهورية؛ فأفلاطون يصف الدولة العسكرية، وهو يقدم ما كان يعتبره التنظيم السليم للمجتمع، بأنها انحراف. ويطرح جوفال الفكرة نفسها في العهد الروماني، لأن المشكلة التي واجهت اليونانيين والرومانيين لا تزال تواجه الأمم في القرن العشرين»⁽⁷⁾.

إن توزيع السلطة بين حامل «سلطة القوة» وحامل «سلطة الشرعية» إشكالية أزلية ترافقت مع بروز مفاهيم الدولة والمؤسسات السياسية والمؤسسات الأمنية للدولة. فإذا كانت مهمة الحرس هي حراسة الدولة، فإن مهمة الدولة تبقى البحث عن السبل والآليات التي تمكنها من حراسة الحرس، علماً أن هذه الآليات ربما تكون قانونية ودستورية، كما هو الشأن بالنسبة إلى الدول الديمقراطية. كما يمكن أن تكون، استراتيجيات وتكتيكات تتم خارج القانون، وتسمح للنخب السياسية الحاكمة بضمان

ولاء العسكر والهيمنة عليهم.

بهذا، يفترض الطرح الدقيق لمسألة العلاقات العسكرية - المدنية أن تحوّل مسألة الهيمنة في الاتجاهين: اتجاه العسكر واتجاه المدنيين؛ فاستعمال مفهوم «الهيمنة العسكرية» يتم بشكل متبادل مع مصطلح «الهيمنة السياسية»، حيث إن المدني هنا يشير إلى سمو المؤسسات المدنية - المبنية على الشرعية الشعبية - وأسبقيتها، بالنسبة إلى إجراءات اتخاذ القرارات المتعلقة بالدفاع والمسائل الأمنية. إن وجوب بقاء السيطرة على وسائل العنف، وبشكل صارم، في قبضة السلطات المدنية الشرعية يبقى النقطة المركزية. وهذا يعني أن السيطرة على العسكر يجب أن تتأسس على مبادئ الديمقراطية⁽⁸⁾، حتى نضمن عدم الانزلاق نحو الدكتاتورية العسكرية أو الشمولية المدنية.

إذا، يبقى الخيط رفيعاً جداً بين الديمقراطية والدكتاتورية العسكرية والشمولية المدنية؛ فغياب الآليات الديمقراطية والشفافية في تسيير مسائل الدولة والجيش على حد سواء، يجرّ الدولة - لا محالة - إلى الانحراف عن الديمقراطية باتجاه الدكتاتورية العسكرية، أو باتجاه الشمولية المدنية. وعليه، يتحمل المدنيون مسؤولية كبيرة وخطرة، خصوصاً عندما يتنازل العسكري عن قوته وطموحه، ويذعن للسلطة المدنية. وفي هذه الحال، يجب على المدني «تحقيق مستوى عال من الشفافية في مجال تخطيط نفقات الدفاع، فالحكومة في الديمقراطيات تُجبر على إعلام المواطنين بالمسائل العسكرية، لأن المعلومة تعتبر ديناً على الحكومة دفعه للمجتمع، وللمواطن الحق في معرفة ما تخطط له الحكومة بالنسبة إلى نشر القوات العسكرية»⁽⁹⁾. كما أنه يجب على الحكومات إعلام المواطنين بمدى انسجام التسيير المدني للمسائل العسكرية مع الأطر القانونية والدستورية المنظمة للدولة.

إضافة إلى ما سبق، تُعتبر العلاقات العسكرية - المدنية علاقات معقدة وصعبة الدراسة، بل إنها علاقات تحتوي على كثير من التناقضات والمفارقات، أو إنها، على حد تعبير بيتر فيفر (P. Feaver)، تتأسس على «مفارقة بسيطة: فالمؤسسة التي أنشئت من أجل حماية السياسي (الجيش)، تُعطى لها القوة والسلطة الكافية حتى تصبح خطراً عليه»⁽¹⁰⁾؛ فالجيوش التي تنشأ ويعطى لها الحق الحصري في استعمال العنف من أجل حماية الدولة، سواء من التهديدات الداخلية أو التهديدات الخارجية، يمكن أن تتحول، نتيجة سوء استعمال هذا الحق، إلى خطر محقق، يهدد أمن المجتمعين السياسي

والمدني واستقرارهما. بل إن مجرد وجود هذا الشعور اتجاه الجيش كمصدر للخطر وغياب الأمن سيرهس الدولة ومؤسساتها المختلفة، لأن انتشار عدم الثقة بين العسكري والمدني سيؤدي إلى أفعال وردات فعل تؤثر العلاقة بينهما، وتحدد موقف كل واحد من الآخر، وتحدد استراتيجيات المدني تجاه العسكري، والعسكري تجاه المدني، الأمر الذي سيتحكم في أي تطور إيجابي أو سلبي للعلاقة العسكرية المدنية.

في هذا الكتاب، سنتقصى الظروف والمظاهر التي تحكم في ردات فعل الحيوث العربية، ونفهمها من خلال شبكة تحليل نتوقع أن تكون قادرة على تفكيك العلاقة بين العسكري والمدني، بالشكل الذي يمكننا من فهم سبب التباين في ردات الفعل بين الحيوث العربية. سنستهل البحث بمدخل نظري يحاول من خلاله توصيح معايير فهم العلاقات العسكرية - المدنية، ثم نتناول أهم الدراسات والبحوث التي اهتمت بتشريح هذه العلاقة، وكانت تستهدف إقامة تصنيفات تمكن من فهم العلاقات العسكرية - المدنية في دول العالم المختلفة. ويهدف تناول هذه النظريات إلى مناقشتها، وإثبات قصورها في فهم حالة الحيوث العربية، مع اقتراح دراستها حالة بحالة من خلال الشبكة التحليلية التي سنفضل فيها في المرحلة الثانية من البحث، لتكون المرحلة الثالثة مخصصة لتجريب هذه الشبكة التحليلية على الحيوث العربية في دول الربيع العربي، ليبيا ومصر وسورية واليمن وتونس. ثم ننهي البحث بحاتمة تُقرر فيها مدى صلاحية الشبكة التحليلية لفهم العلاقة بين الجيش والسلطة المدنية.

(1) Samuel E. Finer, *The Man on Horseback The Role of the Military in Politics* (London: Pall Mall Press, 1969), p. 4.

(2) Thomas C. Bruneau, «Introduction,» in: Thomas C. Bruneau and Scott D. Tollefson (eds.), *Who Guards the Guardians and How. Democratic Civil-Military Relations* (Austin: University of Texas Press, 2006), p. 6.

(3) Morris Janowitz, «Military Elites and the Study of War,» *Journal of Conflict Resolution*, vol. 1, no. 1 (1957), p. 14.

(4) Ibid., p. 15.

(5) Finer, p. 7.

(6) Ibid., p. 6.

(7) Vladimir O. Rukavishnikov and Michael Pugh, «Civil Military Relations,» in: Giuseppe Caforio (ed.), *Handbook of the Sociology of the Military*, Handbooks of Sociology and Social Research (Boston, MA: Springer US, 2006), p. 135.

(8) Ibid., p. 136.

(9) Ibid., p. 138.

(10) Augustus Richard Norton and Ali Alfoneh, «The Study of Civil Military Relations and Civil-Society in the Middle East and North Africa», in: Carsten Jensen (ed.), *Developments in Civil Military Relations in the Middle East* (Copenhagen: Royal Danish Defence College, 2008), p. 7.

الفصل الأول

العلاقات العسكرية - المدنية

تمثل العلاقة بين الجيش والسياسة، أو الجيش والمدنيين، مبحثًا قديمًا وكلاسيكيًا، يستمد ديمومته من ديمومة العلاقة بين العسكري والمدني. هذا لأن «القوات المسلحة تؤدي دورًا أساسيًا، سواء كانت غالبة أو حاصرة»⁽¹¹⁾، في الحياة السياسية والاجتماعية للبلد الذي تنتمي إليه؛ فمذ الحصارات القديمة حتى اليوم، كان الجيش عاملاً مهماً في المعادلات السياسية والاجتماعية التي تنظم الدولة، ولا سيما في حالة الأزمات التي تؤدي إلى تأسيس نظام الحكم والمعارضة كأطراف مستقل بعضها عن بعض، ومتنازعة من أجل الوصول إلى السلطة أو الاستئثار بها أو المحافظة عليها. من هنا، يمكننا التشديد مع عديد الباحثين على ارتباط دراسة العلاقات العسكرية - المدنية «بشكل وثيق بمسارات الانتقال من نظام حكم إلى آخر، سواء من طريق الانقلاب العسكري، أو من طريق إصلاحات سياسية غير عنيفة، أو من طريق الديمقراطية عمومًا، فالخاصية الأساسية للأنظمة الديمقراطية هي تحكم المدنيين في العسكريين، في حين أن الخاصية الأساسية للأنظمة الشمولية والكتاتورية هي الحكم العسكري المباشر، أو التأثير القوي للجيش على المؤسسات المدنية للحكومة»⁽¹²⁾. وسواء تورط الجيش لمصلحة النظام الحاكم أو لمصلحة معارضيه، أو بقي محايدًا، خصوصًا في الحالات الانتقالية، فإنه سيكون فاعلاً أساسيًا في ضبط معادلة السلطة بين المعارضة والحكم.

تتبنى العلاقات العسكرية المدنية على مبدأ الولاء للنظام الحاكم في الدولة، على اعتبار أن هذا النظام هو مجرد خادم للمجتمع وللمواطنين. وهذا ما يجعل الجيش والقوات الأمنية المالك الحصري لاستعمال العنف من أجل فرض النظام وحماية المواطنين؛ فما «يميز القوات المسلحة من الجماعات المسلحة، كالميليشيات، هو ارتباط القوات المسلحة بالدولة، وهي ليست ملزمة باستعمال العنف للدفاع عن الدولة فحسب، بل إن أفرادها مستعدون للتضحية بحياتهم أيضًا من أجل الدولة، فالمسألة الأساسية عند الجيش ليست ما يفعله، ولكن من أجل من يفعله؟ فإن كنت القوات المسلحة تسير بشكل سليم، فإنها ستؤسس جوهر وجودها على مبدأ الولاء»⁽¹³⁾ للدولة. انطلاقًا من هذا المبدأ، تتحدد شبكة العلاقات التي يمكن أن تربط الجيش بالمدنيين

حكّاما ومحكومين، كما يتحدد موقف الجيش من السياسة والسياسيين.

يقودنا تأسيس العلاقات العسكرية المدنية على الولاء إلى ضرورة تعريف العلاقة العسكرية - المدنية، حيث إن إدراك مكواتها سيساعدنا على التقدم في التحليل من جهة، وعلى الفهم الكمي والكيفي للولاء من جهة أخرى. يمكننا تعريف العلاقات العسكرية المدنية على أنها «مصطلح يضم جميع المظاهر التي تربط بين المصالح العسكرية والمجتمع والدولة التي ينتمي إليها الجيش، إذ إن مكانة الجيش ووظائفه تمثلان البناء الأساسي للعلاقات المدنية العسكرية، [...] مكانة ووظائف يمكن تجسيدهما من خلال إدراك المدنيين للعسكر، ومدى توافق قيم الاحترافية العسكرية مع قيم واتجاهات المدنيين، والدور الاقتصادي للعسكر»⁽¹⁴⁾. بهذا المعنى، تشير العلاقات العسكرية - المدنية إلى الحدود الفاصلة بين صلاحيات المصالح العسكرية والمصالح المدنية، وهي حدود تتحكم فيها المكانة والوظائف الموكلة للجيش ولأفراده، صباطا وجنودا، علما بأن نيتك المكانة والوظائف ترتبطان على نحو خاص بتأريحية العلاقة بين الجيش ومسارات بناء الدولة.

يقترح راهبك كليمانس وأحرون أربعة فوارق بين المدني والعسكري، يجب على الباحث مراعاتها عند دراسته العلاقات العسكرية - المدنية، وهي كالآتي:

الجدول (1-1)

الأبعاد الأربعة للفروق بين العسكري والمدني

نوع الفارق	ثقافي	ديموغرافي	تمصيلات سياسية	مؤسسي
الوصف	القيم مختلفة	التركيبة النشربة مختلفة	اختلاف الأهداف السياسية	اختلاف في شكل المؤسسات
المتغيرات المتناحية	- الإنزراك - المشترك - أماليب - تشنة قيمية - التبعية - التنظيمية	- الأصول - الجعرافية والإثنية - الانتماءات السياسية - الحلفيات العائلية	- مرجعيات السياسة - المعبر عنها - الفروق في التصور العقلاني - التصيلات التأريحية - الراسخة	- اختلافات وطيفية - الهوية المؤسسية - الأساطير - العصبية

يوجز لنا هذا المصدر الفوارق بين المؤسسات المدنية والعسكرية بشكل بيداغوجي، حيث إنه يعتبر أن الفوارق بين المؤسسات تكون ثقافية بسبب اختلاف القيم التي يؤمن بها كل من العسكري والمدني؛ وتكون ديموغرافية بسبب اختلاف خصائص الأفراد الذين يشكلون المجتمع السياسي وتركيباتهم، وأولئك الذين يشكلون المجتمع العسكري، فإذا كانت التركيبة الديموغرافية للعسكر أكثر انسجامًا نظرًا إلى الوظيفة التي يتولاها الجيش، فإن التركيبة الاجتماعية للسياسي المدني، تكون أقل انسجامًا وأكثر تعقيدًا. يتمثل الفارق الثالث في التفضيلات السياسية للعسكري والسياسي، حيث إن تفضيلات العسكر السياسية تنحصر في الحفاظ على استقرار البلاد، وهي أكثر عقلانية، في حين يعبر السياسي عن تفضيلات أكثر تعقيدًا وطموحًا وأقل عقلانية. أخيرًا، يختلف العسكري عن السياسي مؤسسيًا؛ إذ إن المؤسسة العسكرية تختلف عن المؤسسات المدنية وظيفيًا وتنظيميًا وفعالًا.

مبدئيًا، تنقّي العلاقات العسكرية - المدنية مرتبطة بتدريج الجيش وتدريج الدولة والمجتمع، وبالوضع الاقتصادي والسياسي، وبالعلاقات مع المحيط الدولي وشبكاته الأمنية. من هنا، تهتم نظريات العلاقات العسكرية - المدنية بفهم العلاقات والتفاعل بين الحكومة والمجتمع والجيش. لذا، يتوجب على المهتم بالعلاقات العسكرية - المدنية أن يوجّه انتباهه نحو «مثلث العلاقات بين الدولة والمجتمع والقوات المسلحة، وبتعبير آخر العلاقات المدنية - العسكرية»⁽¹⁵⁾، التي تربط بين ثلاث جهات أساسية معنية بعلاقات السلطة في الدولة، أي بين العسكر، باعتباره مالكي سلطة القوة، والدولة ممثلة في الحزب السياسية، باعتباره مالكة سلطة الشرعية، والمجتمع، باعتباره مالكًا سلطة الرقابة التي تمنحه إياها صفة المواطنة. ففي الحالات العادية، يكون العسكر مطالبين بحماية الدولة والمجتمع، وتكون الدولة مطالبة بتقوية الجيش، وبمنعه من تجاوز صلاحياته، ويكون المجتمع مطالبًا باحترام الدولة والجيش، ومراقبة مدى احترام الجيش استعمالات قوته، ومراقبة الدولة ومدى احترامها للشرعية.

أما في حالة الأزمات، فإن اثنين من مكونات هذا المثلث سيتحالفان ضد المكون الثالث؛ فعندما يتحالف العسكر مع النخب السياسية ضد طموحات المجتمع، تسقط الدولة في الشمولية والدكتاتورية، وعندما يتحالف الجيش مع الشعب ضد طموحات

الحزب السياسية، تقوم الثورة التي يمكن ان تؤدي إلى التحول والتغيير، وعندما يتحالف المجتمع مع النخب السياسية ضد طموحات العسكر، تقوم الثورة التي يمكن أن تنتهي إلى الحرب الأهلية. المهم في هذا كله هو ضرورة الانتباه، في دراسة العلاقات العسكرية - المدنية، إلى هذه المكونات الثلاثة، وهذا ما يعني أننا مطالبون بتوظيف التاريخ والسوسيولوجيا والسيكولوجيا والأنثروبولوجيا والقانون والعلوم السياسية، حتى نفهم هذه العلاقة فهمًا شاملاً.

أدى الجيش وما زال يؤدي دوراً مهماً وأساسياً في مختلف مسارات بناء الدول، حديثاً وقديماً؛ ففي هذا الصدد، يرى «كل من كير كوينينغز (K. Koonings) وديرك كريج (D. Kruyt) أن الجيش كان طوال الأعوام المئة الماضية فاعلاً أساسياً في مسارات بناء الدولة الوطنية؛ ففي معظم الدول التي برزت خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين، كانت السياسة العسكرية هي القاعدة وليست الاستثناء»⁽¹⁶⁾؛ فعندما نلاحظ حالة الجيوش في الدول المتقدمة، ونقارنها بهذا التقرير القطعي الذي أتى به كوينينغز وكريج، ندرك مدى التطور الذي من الدول المتقدمة، وكيف أنها تمكنت، خلال ما يريد على نصف قرن بفيل، من ضبط العلاقات العسكرية المدنية صطاً يحدد دور كل من السياسي والعسكري بشكل واضح وبهائي وصارم، أي إن وظيفة الجيش ومكانته أصبحتا محددتين بشكل واضح وغير قابل للنقاش.

الأمر مختلف تماماً بالنسبة إلى الدول المتخلفة التي «لا ينطبق عليها الحكم المثالي الأنكلوسكسوني، الذي يفيد بأن القوات المسلحة يجب أن تكون محايدة وغير مؤجلة، وبأن صباط الجيوش في كثير من هذه الدول يكونون من بين أكثر المواطنين تعليماً وتدريباً وتحكماً في التكنولوجيا، وبالتالي يتولون أعلى المسؤوليات في الحكومة.... ولا يكون في هذه الدول أي تمييز بين المدني والعسكري في ما يتعلق بالاهتمامات والسياسات المتبعة»⁽¹⁷⁾. والعسكر، في معظم الدول المتخلفة، هم إما حكام فعليون، لا يتورعون عن إدارة شؤون الحكم بالبرة العسكرية، وإما حكام من وراء حجاب، يتدخلون بشكل مباشر في تحديد هوية الحاكم، بل وتحديد هوية أبسط الأطر المدنية. وعوضاً عن أن يكون الجيش خادماً للدولة المدنية، يصبح الحكام المديون حذاًما للعسكر، أو يصبح العسكر أداة منفذة للرغبات الشمولية للحكام المدنيين.

عندما نصل بالتحليل إلى المستوى الأكثر خصوصية - وبقصد بذلك العالم العربي - نلاحظ أن توصيف وضع العسكر في الدول المتخلفة، والذي عرصناه انفاً، ينطبق

على معظم الدول العربية؛ إذ نتين لنا المتابعة التاريخية لتطور الجيوش العربية أن هذه الأخيرة، كانت، وما زالت، من أكثر جيوش العالم تورطاً في الأزمات السياسية التي تعصف بالعالم العربي، منذ سقوط الخلافة الإسلامية في صيعتها العثمانية إلى اليوم، إلى درجة أنه يمكننا أن نجزم بأن «ليس هناك حدود واضحة بين ما هو عسكري وما هو مدني في العالم العربي، حيث إن العسكري ليس مؤسسة منفصلة بشكل تام عن الحياة المدنية»⁽¹⁸⁾، وهذا ما تعكسه ردات فعل الجيوش العربية أمام الأزمات الحادة التي كوّنتها الثورات العربية منذ بداية عام 2010؛ فعلى الرغم من الاختلافات في ردات الفعل التي أبدتها الجيوش العربية في كل دولة من دول الربيع العربي، يبقى القاسم المشترك بين هذه الجيوش وحوود علاقة خاصة بين العسكري والسياسي.

(11) Ahmed Hashim, «The Egyptian Military, Part Two: From Mubarak Onward,» *Middle East Policy*, vol. 18, no. 4 (Winter 2011), p. 115.

(12) Bård Kårtveit and Maria Gabrielsen Jumbert, *Civil-Military Relations in the Middle East. A Literature Review*, CMI Working Paper, WP 2014: 5 (Bergen, Norway: Chr. Michelsen Institute, June 2014), p. 1.

(13) Florence Gaub, *Arab Armies. Agents of Change? Before and After 2011*, Chaillot Papers; no. 131 (Paris: European Union, Institute for Security Studies, 2014), p. 13.

(14) Jordan Baev and Edwin Micewski (eds.), *Civil-Military Relations. Teaching Guide and Curriculum*, Special Edition, 1/2005, National Defence Academy Publication Series (Vienna: National Defence Academy, 2005), p. 8.

(15) Zoltan Barany, «Building Democratic Armies,» in: Zoltan Barany and Robert G. Moser (eds.), *Is Democracy Exportable?* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 2009), p. 183.

(16) Paul Ernest Lenze, Jr., «Civil-Military Relations

in 'Islamic Democracies': Military Intervention and Withdrawal in Algeria, Pakistan, and Turkey» (A Dissertation Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy, Washington State University, Department of Political Science, May 2011), p. 2.

(17) Roger P. Nye, «Civil-Military Confrontation in Turkey: The 1973 Presidential Election,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 8, no. 2 (April 1977), p. 210.

(18) Mohamed Abd Elsalam, «The Military and the Developments in its Role in the Arab World,» in: Carsten Jensen (ed.), *Developments in Civil-Military Relations in the Middle East* (Copenhagen: Royal Danish Defence College, 2008), p. 66.

الفصل الثاني

مقاربات العلاقات العسكرية - المدنية

تزامنت انطلاقه هذا الحقل البحثي مع بداية تشكّل أول التّطبيقات المسلّحة كجهاز من أجهزة الدولة. ويمكن اعتبار القرن العشرين بمنزلة تاريخ ميلاد الدراسات المسهجية والدقيقة للعلاقة بين الجيش والمجتمع، وذلك من خلال المقاربات النفسية والسوسيولوجية والاقتصادية التي حاولت تفسير الارتباطات الممكنة بين العسكري والمدني، ومساعدة النخب الحاكمة على إيجاد الآليات التي تسمح بوضع العسكري تحت سلطة سياسي. وكان هذا الحقل البحثي قد بدأ كتقليد اميركي خالص حين «درس العلماء الأميركيون العلاقات العسكرية المدنية من عام 1950 إلى عام 1980 باعتبارها تفاعلاً بين القوات المسلحة والنخب الحاكمة والمواطنين، مركزين على أثر القيادات العليا للجيش في صناعة السياسة الخارجية والدفاعية»⁽¹⁹⁾. واهتمت هذه البحوث بدراسة سبل جعل الجيوش أكثر احترافية، وبإبعادها قدر الإمكان عن التأثير في القرار السياسي.

يمثل تدخّل العسكر في الحياة المدنية، إيجاباً أو سلباً، أو حيادهم وعدم تدخّلهم في المجالات المدنية، ظاهرة لا يمكننا فهمها إلا من خلال مراعاة كثير من العوامل التي أدت إلى هذه النتيجة أو تلك، وبهذا الشكل أو بغيره. وهذا يعني أن موقف العسكر من الحياة المدنية ليس الا نتيجة فرصها كثيراً من العوامل السابقة. بناء عليه، يبقى إدراك هذه النتيجة ووعيتها امرين مستحيلين من دون العودة إلى هذه العوامل وفهمها، وفهم انعكاساتها على العلاقات العسكرية - المدنية، وهذا ما يؤكد جيري اسيموس كارايلياس حين يفرر أن «الفهم الجيد للعلاقات العسكرية - المدنية يتطلب أنموذجاً متعدد العوامل يأخذ في الحسبان: 1- المؤسسة العسكرية، من خلال الملاحظة الدقيقة لحجمها، وخلفيتها الاجتماعية ومستوى مهنية أفرادها، وأيديولوجيتهم، ومستوى انسجامهم ووحدهم، ورغبتهم في حماية مصالح المؤسسة؛ 2- المحيطات الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المحلي الذي تنشط فيه المؤسسة العسكرية، مع ضرورة إعطاء أهمية خاصة للمحيط السياسي، لأنه هو الذي يسمح لنا بمعرفة مدى صلابته جذور الديمقراطية وعمقها في أي بلد من البلدان؛ 3- دور العوامل الدولية، وخصوصاً التأثير الذي يمكن أن تمارسه القوى الاحنية على القوى العسكرية والقوى المحلية

للبلد؛ 4- ماضي دور العسكر في تطور العلاقة بين الجيش والمدنيين، وحاضره، في كل بلد تحري دراسته»⁽²⁰⁾. بهذا المعنى، تتعدى عملية دراسة العلاقات العسكرية - المدنية وتشريحها، الفاعلين الأساسيين: الفاعل العسكري والفاعل المدني، لتشمل المحيطين المحلي والدولي اللذين ينشط فيهما هذان الفاعلان، إضافة إلى التاريخ المشترك والخاص لكل منهما.

إن الرهن الأساس الذي تدور حوله العلاقات العسكرية - المدنية هو السلطة، وكيفية شرعيتها، ومن ثم المحافظة عليها. ومن هنا، يصبح المجتمع (الشعب - المواطنون) عنصرًا مهمًا في هذه العلاقة المعقدة والمتشعبة. وباعتبارها مجالًا مستقلًا للدراسة، يحب أن «تهتم نظرية العلاقات العسكرية - المدنية عموماً بالعلاقات بين السلطات العسكرية والسلطات المدنية، أو بمعنى أوسع العلاقة بين العسكر والمجتمع ككل. وفي هذا الحقل، يحرط معظم التحليلات ضمن الرؤية المعيارية التي تعتقد أن التحكم المدني (والديمقراطي) في الجيش يفي أفضل من غياب هذا التحكم. بعبارة أخرى، يحب أن يكون العسكر تابعين ومراقبين من السلطات المدنية المستحبة ديمقراطيًا، والتي يجب أن تكون متحررة من كل تدخل للسلطات العسكرية في ممارستها لسلطاتها السياسية»⁽²¹⁾. هذا في الحالات التي يكون فيها المدنيون منتخبين بشكل ديمقراطي. أما في الحالات غير الديمقراطية، فإن الأمور تصبح أكثر تعقيدًا؛ فالمدني عندما يعاني نقص الشرعية، يسعى إلى الحفاظ على السلطة، ويعمل على مقاومة ردات الفعل الاجتماعية التي يمكن أن تكون معارضة، أو حتى معادية. هنا، يحتاج هذا المدني إلى العسكر لحماية سلطته، وفي الوقت نفسه يتوجس حيفة منهم، لأن العسكر لن يقدموا خدماتهم مجانًا. في المقابل، ربما ترغب المعارضة في التغيير، لكن خوفها من ردة فعل العسكر يجعلها تتراجع، أو تنتظر إشارات إيجابية من العسكر. من هنا، يبقى العسكر القوة الضابطة للعلاقات العسكرية - المدنية من جهة، وللعلاقات المدنية - المدنية من جهة أخرى؛ فوجود العسكر في الحياة المدنية، أو قربها، يصبح مطلبًا اجتماعيًا، ولا سيما عندما تعاني الحياة المدنية نقصًا أو تشويهاً في الديمقراطية، حيث يشكل نشاط العسكر داخل المجال المدني أو قربته تهديدًا للحريات. لذلك، كانت النظرة التي يحملها المجتمع والمفكرون تجاه العسكر وتدخلاتهم في الحياة المدنية نظرة سلبية دائمًا؛ فمكيافيلي يرى أن «العسكري لا يمكن أن يكون رجلًا صالحًا»، بينما يرى فولتير أن العسكر «تجسيد للقوة العاشمة في شكل عقلاي»، ويرى كل من

جيراسيموس وادامر أن الجيش يمثل دائماً، وعلى الرغم من ضرورته، خطراً على حريات الناس»⁽²²⁾؛ إذ إن احتكار العسكر الحق الشرعي في استعمال العنف يجعلهم مصدر خطر على حريات الأفراد والأنظمة على حد سواء.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، أُنجز عدد كبير من الدراسات والبحوث المتمحورة حول العسكر وعلاقاتهم بالمدنيين، وكانت الحصلة شبكة من نظريات حاولت أن تضع تصنيفات لمختلف جيوش العالم، بدءاً على ردات الفعل التي تبديها هذه الجيوش أمام الحراك السياسي الذي يميز بلدانها. وكان الهدف من هذه التصنيفات محاولة فهم الأشكال المختلفة للعلاقات العسكرية - المدنية، ومن ثم منح أصحاب القرار إمكانية التنبؤ، ولو نسبياً، بما يمكن أن تكون عليه ردات فعل الجيوش، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالأزمات السياسية، وصراعات السلطة التي يمكن أن تنشأ بين العسكر والمدنيين، أو بين المدنيين أنفسهم. من جهة أخرى، تمثل هذه الدراسات والتصنيفات مصدراً ومادة مهمة تساعد على صبط المبهجة التي تمكننا من مقارنة موضوع دراستنا بشكل عقلاني.

أولاً: نظرية هنتنغتون

يطلق صامويل هنتنغتون من الأنموذج الأميركي الذي يؤسس دستورياً للعلاقة بين العسكري والمدني، حيث تقرر حرمة التشريعات الأميركية سلطة المدني على العسكري، وأين يُعتبر رئيس الدولة المدني قائداً عاماً للقوات المسلحة. كما أن جميع التشريعات المتعلقة بالعسكر، من الميزانية إلى السياسات العامة الموجهة للقوات المسلحة الأميركية، تقرر في المؤسسات التشريعية المدنية؛ فالجيش، انطلاقاً من هذه المقاربة، مؤسسة محترفة مكلفة من السلطات المدنية أداء مهمات واضحة ومحددة. وبـ «حسب هنتنغتون، هناك صنفان من سياسات السيطرة يمكن ممارستها على العسكر: السيطرة الذاتية والسيطرة الموضوعية. الأولى تمارس من خلال تقوية مجموعة واحدة أو أكثر من المجموعات الاجتماعية على حساب العسكر، وتمارس الثانية عبر الاعتراف للجيش بقدر من الاستقلالية المحترفة، وعزل صارم للعسكري عن المجال السياسي. هذه الميثلقات النظرية لهنتنغتون تصعب في وصح هو أقرب إلى الصنف الثاني من الهيمنة السياسية... فالهيمنة الموضوعية هي الوحيدة الكفيلة بضمان

تفوق السلطة المدنية، لأنها تفصل بين مجالي الخبرة (العسكري والمدني)، وتقي من أي تدخل سياسي للضباط»⁽²³⁾.

يُعتبر كتاب هنتغتون الجندي والدولة *Soldier and the State* (الجندي والدولة) نصًا تأسيسيًا لحقل الدراسات التي نشأت حول العلاقات العسكرية - المدنية. وفيه سعى هنتغتون إلى فك ما يسميه «إشكالية العسكر والمدنيين»، أي كيف يمكن كسب رهان إبقاء العسكر (على الرغم من قوتهم) تحت سيطرة المدنيين. من هنا، يصبح الهدف الأول للسياسة الاحترافية للجيش، عند هنتغتون، هو «تطوير نسق علاقات عسكرية - مدنية قادرة على ضمان الحد الأقصى من الأمن العسكري بحد أدنى من التضحية ببقية القيم الاجتماعية»⁽²⁴⁾. ومن هذا المنطلق كان اهتمام هنتغتون بالبحث في كيفية أداء الجيش المهمات الموكلة إليه، مع تجسيد الاحترافية، وضمان حياد الجيش بالنسبة إلى المسائل المدنية والسياسية.

حاول هنتغتون اقتراح مشروع يسمح بتجاوز الرهانات الصعبة التي تطرحها العلاقات العسكرية - المدنية، خصوصًا أن درجة التداخل بين المؤسسات السياسية والمدنية كبيرة إلى درجة تصبح مطالبة كليهما بالحياد أمرًا صعب المنال؛ فالقادة السياسيون يعملون على «تحديد الأهداف والشروط العامة للعمليات العسكرية، ثم تقوم القيادات العسكرية بتجسيد هذه العمليات، علمًا أن القيادات السياسية لا تستطيع التدخل في العمليات العسكرية، وأن القيادات العسكرية لا تستطيع التأثير في السياسات التي حددها المدنيون»⁽²⁵⁾. إنه وصع يشبه - إلى حد ما - اللعز الذي يتطلب كثيرًا من الجهد لفكه؛ فالسياسي يحدد ما يجب على العسكر القيام به، من دون أن يتدخل في أساليب التنفيذ، في حين يقرر العسكري طرائق التنفيذ، من دون أن يتدخل في السياسات التي سيفعها. هذا هو اللعز أو الإشكالية التي عمل هنتغتون على حلها من خلال بحوثه بشأن العلاقات العسكرية - المدنية.

يقترح هنتغتون في دراسته للعلاقات العسكرية - المدنية التركيز على سلك الضباط، باعتبارهم السلطة العسكرية التي يمكن أن تقابل الحب السياسية أو أن تواجهها. ولهم العلاقة العسكرية - المدنية فهمًا موضوعيًا، يرى أنها محتاج، بداية، إلى «تعريف طبيعة سلك الضباط، ما هو نوع سلك الضباط؟ ما نوع الأشخاص الذين يشكلون سلك الضباط؟»⁽²⁶⁾. وتحدد الإجابة عن هذه الأسئلة خلفية الضباط الاجتماعية والإثنية والاقتصادية، التي بدورها تساعدنا على فهم نوع الشخصية التي يتمتع بها الضابط،

أو مجموعة الضباط. وبالتالي، يمكننا فهم ردات فعل سلك الضباط أمام مثيرات العلاقة مع المدنيين وتفسيرها؛ فهنتغتون يرى أن «العلاقات العسكرية - المدنية تعكس بشكل حاص العلاقة السياسية بين الدولة وسلك الضباط، ومن ثم لا يمكن الوصول إلى المثالي إلا من طريق هذا السلك المحترف»⁽²⁷⁾؛ فوعي خصائص سلك الضباط النفسية والاجتماعية والأنثروبولوجية والاقتصادية والتاريخية يسمح بتحقيق احترافية الجيش، أو «المثالية»، كما يعتقد هنتغتون.

من جهة أخرى، يحدد هنتغتون ثلاث مسؤوليات يجب على العسكري الاضطلاع بها لخدمة بلده ودولته، وهي:

- «1- الوظيفة التمثيلية: من خلال تمثيل تطلعات العسكر في جهاز الدولة، يجب أن يُعلم الضابطُ سلطات الدولة بما يقدره كحد أدنى ضروري لأمن الدولة العسكري بالنظر إلى إمكانات بقية الدول...»⁽²⁸⁾. وهذا تمثل المعلومة حكر الراوية في العلاقات العسكرية المدنية، حيث إن العسكري، ومن باب الشفافية، مطالب بتقديم جميع المعلومات العسكرية والأمنية للدولة، الأمر الذي يسمح للحب السياسية المدنية بتحديد صورة واضحة لقدرات الدولة العسكرية، مقارنة بقدرات المحيطين الجهوي والدولي. من هنا، يكون دور العسكر التمثيلي المردوح؛ فهو يمثل رغبة الدولة في المعلومة داخل الجيش، ويمثل في الوقت نفسه قدرات الجيش وإمكاناته في جهاز الدولة، بحيث يمكن هذه القدرات والمعلومات أن تكون مصيرية، خصوصاً في ما يتعلق بتحديد السياسات الداخلية والمحلية والعالمية للدولة.

- «2- الوظيفة الاستشارية بالتحليلات والتقارير التي يقدمها العسكري بشأن نشاط الدولة من وجهة النظر العسكرية، فإذا كان لرئيس الدولة ثلاثة خيارات سياسية، فإن العسكري غير مطالب بالحكم على أكثر الخيارات تفضيلاً، ولكنه مطالب بتقديم خبرته عن الخيار الأكثر انسجاماً مع القدرات العسكرية للدولة»⁽²⁹⁾. وهذا يعني أنه عندما تتقاطع النشاطات السياسية مع النشاطات العسكرية، يكون العسكري مطالباً بتقديم خبرته العسكرية في المسائل السياسية، بالشكل عيه الذي يقدم فيه الخبير الاقتصادي خبرته الاقتصادية في المسائل السياسية؛ فالقرار الأول والأخير يبقى في يد النخب السياسية المدنية ممثلة برئيس الدولة، لكن أخلاقيات السياسة الديمقراطية تفرض على رئيس الدولة الاستعانة بـ/والتشاور مع ذوي الاختصاص، قبل المعامرة بأي قرار يخص الدولة؛ فعندما تُطرح مسائل تتعلق بالأمن، يكون العسكري واحداً

(وربما الأهم) بين مجموعة متنوعة ومعقدة من الخبراء، تساعد الرئيس على التصرف بصورة فعالة وناجعة.

«3» الوظيفة التنفيذية من طريق تجسيد قرارات الدولة، مع احترام الأمن العسكري حتى وإن كانت هذه القرارات مضادة بشدة لرغبة العسكري»⁽³⁰⁾. تطرح هذه الوظيفة مسألة الطاعة والانصياف التي يجب أن يتميز بها الجندي المحترف؛ فعند اتحاد المؤسسات المدنية قرارات سياسية ذات امتدادات عسكرية، يتوجب على الصباط تنفيذها، حتى وإن كانت هذه القرارات تسير في عكس اتجاه رغبة العسكر، الذي يتمتع هنا بالحرية والحصرية في تحديد التكتيك والاستراتيجية، والتجهيز الضروري لتنفيذ قرارات النخب السياسية.

اعتمد هنتغتون على مصطلح النفوذ العسكري «praetorianism» لشرح معادلة الاستقلالية والاحترافية والحياد، علماً أن المصطلح مشتق من الحرس الإمبراطوري الروماني، الذي كان يعمل كقوة مكلفة حماية الإمبراطور. إلا أن نشاط هذه القوة تعدى هذه الصلاحيات ليتورط الحرس في كثير من المسائل السياسية، وعلى رأسها تقرير التوقيت الذي يجب أن تجري فيه تنحية إمبراطور وتعيين إمبراطور آخر بدلاً منه. يحمل الاستتجاد بالإرث الروماني القديم رسالة مهمة أراد هنتغتون تمريرها، وهي أن تدخل العسكر في السياسة وفي الحياة المدنية مسألة قديمة قدم الإنسانية⁽³¹⁾. لذا، يجب ألا ينصب التفكير على ما إذا كان العسكر يتدخلون في الحياة السياسية والمدنية أم لا، وإنما على كيفية ضبط هذا التدخل وجعله إيجابياً ومفيداً للدولة والمجتمع، ومن هنا جاءت معادلة الاستقلالية والاحترافية والحياد.

يؤكد فاير أن احترافية الجيش عند هنتغتون «تشمل ثلاثة مكونات: الخبرة، والمسؤولية الاجتماعية، والوفاء التنظيمي للرملاء الممارسين. فالعمل في القوات المسلحة الحديثة يمكن وصفه بالحرفة، لأن العسكر هم عبارة عن تقنيين في تسيير العنف وتنظيمه، يشعرون بالمسؤولية تجاه زبائنهم (الدولة في هذه الحالة)، كما أن لديهم تقاليد وتنظيم قوي. من هنا، يمكننا القول مع جوسيني كافوريا إن مسؤولية العسكري المحترف «تتجسد أساساً في ضرورة استعمال تسيير العنف لأغراض اجتماعية معتمدة: فربون الصباط هو الدولة، ومسؤوليته الأساسية هي للدولة، فالحق في ممارسة الوظيفة العسكرية مسموح به قانوناً بشكل مقيد ومحدد لجسد اجتماعي محدد، الأمر الذي يعطيه روحاً تنظيمية قوية»⁽³²⁾.

إن التعامل مع العلاقات العسكرية - المدنية على أساس معادلة خدمة/ربوب (موفر الخدمة هو الجيش، والزبون هو الدولة) يمثل عقلانية خاصة، تمنح الجيش صفة الاحترافية.

لكن هذه الاحترافية، كما يرى هنتنغتون، حديثة العهد؛ فقبل الثورة الفرنسية، كانت أسلاك الضباط المختلفة تتشكل إما من المرتزقة الذين يتبعون من يدفع أكثر، وإما من السلاء الذين يتبعون الملك، حتى عندما ينفي، فبينما لم تعرف بدايات القرن التاسع عشر أي جيوش محترفة، فإن بدايات القرن العشرين عرفت القليل من الجيوش التي لم تكن محترفة⁽³³⁾.

يفترح هنتنغتون معادلة بسيطة لتجاوز هذا الإشكال والعور بالرهاس، وتتمثل في إعطاء العسكر الاستقلالية في تسيير شؤون المؤسسة العسكرية؛ استقلالية تنتج منها احترافية الضباط والأفراد، الأمر الذي يجمع عنه جيش قوي ومتماسك ومحاذ أيديولوجيًا. وفي نهاية المطاف، يقع هذا الجيش طوعًا تحت مسؤولية الحكام المدنيين⁽³⁴⁾. بناء على هذا التصور، يؤسس هنتنغتون تصديقه على الأهداف السياسية للتدخل الذي يقوم به الضباط، فيصنف العلاقات العسكرية - المدنية إلى ثلاثة أصناف: «يضم الصنف الأول الحالات التي تشبه انقلابات القصور، وفي الصنف الثاني الحالات التي تشبه الانقلابات الإصلاحية، وفي الصنف الثالث الحالات التي تشبه الانقلابات الثورية»⁽³⁵⁾. إنها ثلاثة أشكال من التدخل العسكري في الشؤون المدنية؛ ففي الجيوش التي تمارس ما يشبه انقلابات القصور، يكون التعبير شكليًا، إذ يطاول واجهة النظام من غير أن يمس جوهره، كما لو أن الأمير تخلى عن الملك لابنه أو لأبيه. أمّا في الصنف الذي يمارس انقلابات إصلاحية، فيكون الهدف تعبير جوهر النظام من خلال الإنقاء على أهم وجوهه، وتغيير التوجهات الكبرى التي يتأسس عليها النظام وإصلاحها. وفي حالة الجيوش التي تمارس ما يشبه الانقلابات الثورية، يكون التعبير جذريًا يمس واجهة النظام وجوهره على حد سواء.

تعاني نظرية هنتنغتون كثيرًا من الاختلالات، وعلى رأسها صعوبة تحقق معادلة الاستقلالية والاحترافية والحياد على أرض الواقع، وهذا يجعلها معادلة طوباوية؛ ف«المشكل مع تصنيف هنتنغتون هو أن نظريته ليست ذاتية فحسب، بل صعوبة التحقق أيضًا. ولم ينجح هذا التصنيف في توضيح أن التدخل العسكري يمكن أن يبدأ بشكل يشبه أحد الأصناف المذكورة، إلا أنه يمكن أن يتطور نحو تغييرات راديكالية»⁽³⁶⁾.

وهذا ما يعني أن النظرة الستاتيكية للعلاقات، بين الجيش والمدنيين، لا يمكنها أن تفسر الدينامية التي يتفاعل بها الجيش مع محيطه، فالتحول من صف إلى آخر أمر ممكن جدًا. كما أنه سيكون من الصعب تفسير ردات فعل العسكر، من دون ربطها بفترات زمنية محدودة، أي أن هذا التصنيف يمكن أن يكون صحيحًا خلال فترة زمنية محددة وقصيرة فحسب.

من جهة أخرى، ناقش فاينر مقارنة هنتغتون لمفهوم الاحترافية، وحاول هدم أحد أهم دعائم نظريته، والمتمثلة في ادعاء هنتغتون أن قيادة احترافية الجيش تؤدي بالضرورة إلى زيادة حياده وانعزاله عن السياسة، وهي معادلة يدحضها فاينر، من خلال سرد أمثلة تاريخية واضحة، إذ يقول: «تدفع الاحترافية (بحسب طرح هنتغتون) العسكر إلى النظر إلى مهماتهم باعتبار أنها مختلفة عن مهمات السياسيين، وتجعلهم يشعرون بالاكتماء الذاتي وبالدوام الكامل، ومن ثم ينبغي منطقيًا أن تمتنع هذه الاحترافية الجيش من الرغبة في التدخل (في الشأن السياسي)». لكن الشواهد التاريخية تبين لنا، بما لا يدع مجالًا للشك، أن «كثيرًا من الضباط المحترفين بشكل عال تدخلوا في السياسة سابقًا، والحالتان الألمانية واليابانية مثالان واضحان على ذلك»⁽³⁷⁾. في مثل هذه الحالات، يمكننا الحكم بأن الجيش تدخل في السياسة، ولم يلتزم الحياد على الرغم من احترافيته العالية، كما توقع هنتغتون، و«هذا هو الصعف الكبير في نظرية هنتغتون، فمقارنته كلها مسببة على التعريف الذي أعطاه للاحترافية، وما تبقى هو مجرد استنتاجات تنطلق من هذا التعريف»⁽³⁸⁾. وفي منطور فاينر، إن ما توصل إليه هنتغتون من علاقات بين الاستقلالية والاحترافية والحياد هو مجرد استنتاجات افتراضية تنبني على التعريف الذي أعطاه للاحترافية. وعوضًا عن أن يتحول مفهوم الاحترافية إلى فرضية، يثبتها هنتغتون بالمقاربة الإمبريقية المؤسسة على تفصي الواقعين التاريخي والاجتماعي، أصبح المفهوم مقدمة سابقة تنسب عليها استنتاجات لاحقة، من دون أدنى مراعاة للواقعين التاريخي والاجتماعي للجيش.

ثانيًا: نظرية فاينر

انتقد فاينر، كما أسلفنا، معادلة هنتغتون التي تقضي بأن احترافية الجيش تؤدي بالضرورة إلى حياده، معتبرًا إياها نتيجة افتراضية تنسب على التعريف الذي أعطاه

للاحترافية لا غير. وعلى هذا الانتقاد، يؤسس فاينر تصنيفه على مستوى تدخل الجيش في السياسة وشدته. كما أنه يركز على حلفيات الجيش السوسولوجية والأنثروبولوجية والتاريخية، خصوصاً أن هذه الحلفيات هي التي تحدد أشكال ردات فعل العسكر على المثيرات الصادرة من الجهات المدنية.

بداية، يناقض فاينر مقاربة هنتغتون للاحترافية، حيث يرى أن «الاحترافية ليست كما يعتقد هنتغتون، أي ليست القوة الوحيدة أو الأساسية التي يمكنها منع رغبة العسكر في التدخل؛ فمن أجل كبح جماح رغبة التدخل (العسكري في السياسي)، يجب على العسكر أن يستوعبوا أولاً مبدأ سمو السلطة المدنية. فلتحقيق الاحترافية، يجب أن تُقرر بشكل رسمي ونهائي جميع السياسات والبرامج الحكومية من قِبل الدولة المدني المسؤول سياسيًا»⁽³⁹⁾. إذا، ليست الاحترافية، بحسب فاينر، نتيجة سيرورة الدعم والترقية لاستقلالية الجيش، ولا هي السيرورة التي تتسبب في دعم الحياد العسكري وترقيته، بل إنها قرار سياسي صارم، يحدد بوصوح وبشكل رسمي وقانوني، معترف به من الجميع، أن الحب المدنية تملك السلطة والأسقية على الضبط؛ فعندما تؤسس مثل هذه التشريعات، لا يبقى لنا إلا العمل البيداغوجي الضروري لترسيخ التشريعات المؤسسة لسمو السلطة المدنية على السلطة العسكرية، كثقافة مجتمع. عندئذ، يمكننا الحديث عن احترافية الجيش.

يعتبر فاينر أن تصنيف الجيوش مسألة معقدة حدًا. وهو يقترح منهجًا نظريًا لقراءة حصائص الجيوش وتصنيف علاقاتها بالمدنيين بناء على مدى تورط العسكر في الحياة المدنية. وينطلق فاينر من الصنف الأول الذي يمثله الحكم العسكري غير المباشر. وهو حكم لا يتورط فيه العسكر مباشرة، إذ يمارس المدنيون سلطاتهم ومسؤولياتهم وفق ما تمليه عليهم تشريعات الدولة، إلا أنهم يقعون تحت تأثير ابتزاز العسكر الذين يستعملون سلطة القوة، من أجل تحصيل تفصيلات على المستوى التنظيمي كالميرانية والتجهيز، أو حتى على مستوى الشخصي، كالتحفيرات المادية والترقيات.

يمكن، في هذا الصنف، أن يتطور الابتزاز في حال الأزمات إلى مساهمة العسكر في تغيير الحكومة المدنية بحكومة مدنية ثانية، أكثر انسجامًا ونفهمًا لتطلعات الجيش.

الصنف الثاني، ويسميه فاينر الصنف الثاني، هو حكم قائم على مصدرين أساسيين للسلطة: الأول هو الجيش ممثلًا في سلك الضباط، والآخر هو الحزب السياسي. تكون

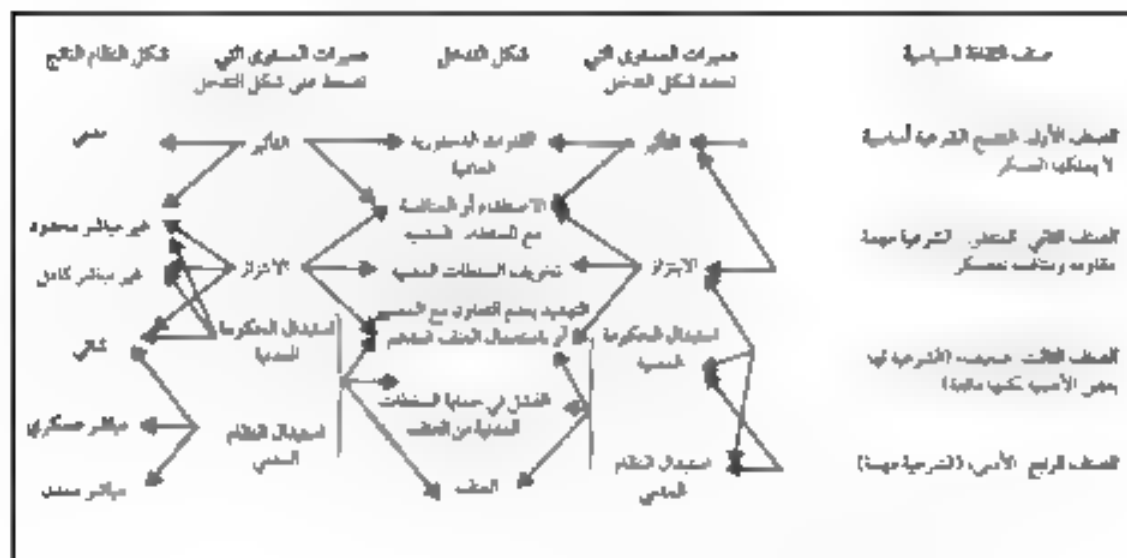
المسؤوليات في هذا النوع من الحكم موزعة بشكل يتناسب مع توازن قوى بين مصدرى السلطة، ووفق حلف غير معلن بين قوة سياسية تشرعن تدخل العسكر، وقوة عسكرية تحمي شرعية الحزب السياسي وتدعمها بالقوة. فلانتزاع الذي يمارسه الجيش ضد السياسيين في الصنف الأول، يتحول إلى انتزاع من نوع آخر يمارسه العسكري والسياسي ضد المجتمع والمعارضة. وتكون النتيجة النهائية لهذا الشكل من الحكم برور حاكم مستبد يعتمد شمولية سياسية مدعومة بالقوة العسكرية، علماً أن الحاكم قد يمكن أن يكون عسكرياً سابقاً جرى تمديده، للتوافق مع مقتضيات الدستور والتشريعات الوطنية المعمول بها.

أما الصنف الثالث والآخر، فيتمثل في الحكم العسكري المباشر، وهو نظام يُعلن فيه العسكر أنفسهم حكاماً للبلاد فعليين ومباشرين، فيتولون المسؤوليات السياسية والمدنية، جنناً إلى جنب مع مهماتهم العسكرية، وحتى لو شكلوا حكومة مدنية، يبقى الجيش مصدر السلطة والقوة الوحيد. الشرعية هنا يكتسبها العسكر بقوة السلاح والعنف؛ ذلك أن الطعنة العسكرية تعوض المؤسسات المدنية، وتحل محل الحكومة، بشكل مؤقت أو دائم.

يقول فاينر: «وبهذا، يمكننا الاعتراف بالأشكال التالية للحكم العسكري: 1- غير المباشر المقيد؛ 2- غير المباشر؛ 3- الكامل؛ 4- الثاني؛ 5- المباشر؛ 6- المباشر الممنن»⁽⁴⁰⁾، وهذا ما يوضحه من خلال الشكل (2-1)

الشكل (2-1)

شبكة العلاقات المعقدة بين العسكري والمدني بحسب نظرية فاينر



يتضح لنا، من خلال هذا الشكل مدى تعقّد العلاقات العسكرية - المدنية، ومدى تداخلها. كما يظهر، وهذا هو المهم، أن الخطوط الفاصلة بين أشكال نظم الحكم تبقى رفيعة جدًا، إلى درجة لا يمكن معها التنبؤ بالوقت الذي يمكن أن يتحوّل نظام حكم من الحالة العسكرية إلى الحالة المدنية. وهذا بسبب تداخل الحصائص والآليات التي يعتمد عليها كل من الجناح العسكري أو الجناح المدني في تثبيت شرعيته، وفرض سلطته على باقي مصادر السلطة.

اعتمد فاينر على المقاربة بين أشكال التدخلات العسكرية في الدول المختلفة، لبيان لنا العوامل التي تحدد استعدادات العسكر للتدخل سياسيًا وفرضهم؛ فبحسب رأيه، تتبع استعدادات العسكر للتدخل في المجال السياسي من العوامل التالية: «المصالح الوطنية، ومصالح المؤسسة العسكرية، والمصالح الاجتماعية، خصوصًا الإثنية والطائفية والطبقية منها، والمصالح الفردية. بناءً عليه، يؤكد فاينر أن التدخلات العسكرية تكون مبرّرة بالمصلحة الوطنية حتى في الحالات التي تكون فيها حماية مصالح المؤسسة العسكرية هي المحرر الأول. وفي الحالات كافة، يجب أن تُبرّر التدخلات العسكرية بالظروف الاجتماعية والسياسية التي سمحت بحدوثها»⁽⁴¹⁾. تركز مقاربة فاينر، للعلاقة بين العسكر والمدنيين، على ضرورة تفهّم العوامل التي أدت بالعسكر إلى التدخل في المجال المدني؛ فبوع العوامل ودرجة تأثيرها هما ما يحددان الشكل الذي يتدخل فيه العسكر في الحياة المدنية. والتبرير الذي يعتمد عليه العسكر لتدخلهم هو من أهم استراتيجيات تثبيت الحكم العسكري بأي شكل كان، حيث تؤدي المؤسسة الإعلامية والنخب السياسية والمدنية المتحالفة مع العسكر دورًا محوريًا، لا يقل أهمية عن دور السلاح، في تمرير تدخل العسكر، كفعل ضروري وإحصاري لإنفاذ البلد من الانهيار.

يربط فاينر بين تدخل العسكر في الحياة المدنية وما يسميه الثقافة السياسية، والتي يقسمها إلى ضعيفة وقوية؛ إذ ترتبط، بحسب رأيه، الثقافة السياسية بمدى وجود المؤسسات الرسمية ووظيفتها، والإجراءات الشرعية التي تضبط الممارسة السياسية في بلد ما؛ فالدول ذات الثقافة السياسية الضعيفة هي الدول التي نفقّر إلى هذه المؤسسات والإجراءات، سواء بغياها أو بضعف نشاطها. والتدخلات العسكرية في الحياة المدنية، تكثر في الدول التي تكون ثقافتها السياسية ضعيفة. أمّا في الدول ذات

الثقافة السياسية القوية، فحتى لو حدثت فيها تدخلات، فإنها تكون من أجل الضغط، لا من أجل التأثير المباشر في الحكم⁽⁴²⁾.

انطلاقاً من هذه المنهجية النظرية، يصل فاير إلى تصنيفه الرباعي للعلاقات العسكرية - المدنية:

«1- يضم الصنف الأول جميع الحالات التي يستعمل فيها الضباط سلطاتهم الشرعية والدستورية للضغط على الحكومة، مثلهم مثل أي مجموعة ضاغطة أخرى، من أجل تحقيق أهداف واضحة، مثل رفع ميزانية الجيش.

2- يضم الصنف الثاني الحالات التي يستعمل فيها الضباط التهديد بالعقوبات، أو الابتزاز لتحقيق الغايات نفسها.

3- يضم الصنف الثالث الحالات التي يتم فيها تغيير نظام حكم مدني بأخر، لأن الأول لم يلَبِّ طلبات العسكر بالشكل المرغوب فيه.

4- يضم الصنف الرابع الحالات التي تجري فيها تحية السلطات المدنية وتعويضها بحكم عسكري مباشر»⁽⁴³⁾.

يوضح وليم تايلور هذه الأصناف الأربعة، فيسميها كالآتي: الطعمة العسكرية؛ الطعمة العسكرية مع تشريع وأحزاب تعمل كواجهة لحكم مدني؛ الحكم الرئاسي للمعنيين من العسكر؛ النظام التسلسلي، أو الحكم العسكري المباشر⁽⁴⁴⁾. نلاحظ في هذا التصنيف التدرج في الانتقال من حالة إلى أخرى؛ فمن الصنف الأول، الذي يكون فيه الجيش بعيداً من الممارسة السياسية، يبدأ الجيش في التورط شيئاً فشيئاً، فينتقل إلى الصنف الثاني فالصنف الثالث، إلى أن يصل إلى الحكم العسكري المباشر في الصنف الرابع، أي يتحول صاحب البزة العسكرية إلى رجل سياسي خالص، يستعمل قوة السلاح مصدرًا للشرعية.

أكثر ما يعاب على تصنيف فاير سطحيته وتبسيطيته؛ فتصنيفه هو مجرد وصف اختزالي، أراد من خلاله أن يجمع أكبر عدد ممكن من الجيوش في أقل عدد ممكن من الأصناف. ومن ثم أعاققت هذه الاختزالية فهم التعقيدات الكبيرة التي تميز العلاقات العسكرية - المدنية، خصوصاً في دول العالم الثالث والدول العربية، وهي تعقيدات أوضحها بدقة في عرض منهجية التصنيف، إلا أنه تجاوزها في التصنيف نفسه، وذلك ليجعل تصنيفه أكثر مقرونية وأقل غموضاً.

ثالثاً: نظرية جانويترز

تطلق الفكرة الأساسية لمقاربة جانويترز السوسولوجية من مبدأ ضرورة إشراك العوامل الاجتماعية والثقافية في نشر ثقافة أسبقية المدني على العسكري؛ فمن منظور جانويترز، لا تتعلق الاحترافية بمعادلة يتم فيها التركيب بين مجموعة من العناصر لتصل إلى النتيجة المرجوة، وإنما تتعلق بعمل بيداغوجي يهدف إلى نشر ثقافة هيمنة المدني على العسكري، وخدمة العسكري للمدني بطوعية. بناء عليه، فإن تحكّم المدنيين في العسكر «يمكن أن يتم عبر الشبكات الاجتماعية؛ وليس من طريق المحاربين المحترفين، أي من طريق الحندي المواطن، كما أن جنود الاحتياط سيكون لهم دور مهم في ربط العسكر بالمجتمع، وهذا بالنظر إلى جذورهم المدنية»⁽⁴⁵⁾. فإذا كان تركيز النظريات السابقة على الجانب التقني (الجندي المحارب) بوصفه شرطاً لضمان الاحترافية، فإن جانويترز يعتبر أن الجوانب الثقافية هي الأكثر أهمية. وبذل «الجندي المحارب»، يفصل «الجندي المواطن»؛ فالجندي المنشع بقيم المواطنة والحس المدني يمكن، وبسهولة، أن يفنعه بضرورة الاهتمام بمهامه العسكرية التي يجب أن تتم تحت سلطة النخب المدنية، وبالامتناع - في الوقت نفسه - عن المشاركة في الحياة السياسية المدنية. انطلاقاً من هذه الرؤية، يعول جانويترز على الحندي الاحتياطي، لأنه جندي تربي وتكوّن في الحياة المدنية، ثم انحدر في الجيش ليحصل على تكوين عسكري تقني، ولهذا يمكنه نشر قيم المجال المدني في المجال العسكري. من جهة أخرى، يهتم جانويترز بالتحول، ويعتبر أن المجتمعات تتميز بسرعة التحولات وديمومتها. بالتالي، فإن القوات المسلحة تصطر إلى التكيف مع هذه التحولات. ويرى جانويترز أن أحسن فترة يمكن فيها فهم العلاقات العسكرية - المدنية هي فترة التحولات، لأنها فترة يصطر فيها العسكر إلى الاستجابة للتحولات الاجتماعية بردات فعل خاصة، ربما لا تظهر في الظروف العادية؛ فيحسب جانويترز، «يجب مقارنة المؤسسة العسكرية في أثناء سيرورات التحول، لأن المؤسسة العسكرية ستضطر إلى التحول بسبب تحول الشروط المحيطة بها في المجتمع الذي تنتمي إليه. وقد تعيرت الظروف بشكل عميق بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ما أدى إلى نشوء وضعيات كان فيها النشاط العسكري أكثر حساسية للظروف السياسية والاجتماعية مما سبق، وهذا ما أدى إلى التنوع في اهتمامات نشاط المدنيين والعسكريين ومجالاته. وبالشكل

عنه تعبرت الظروف الداخلية للدول، الأمر الذي فرض على القوات المسلحة البحث عن سلسلة من التكييفات⁽⁴⁶⁾، فسيرورات التحول إذاً هي التي تدفع بالقوات المسلحة إلى الاستجابة - سلبيًا أو إيجابيًا - للظروف الناشئة بفعل هذه التحولات؛ استجابة يمكن من خلالها تقويم مدى احترافية الجيش، وتقويم العلاقات العسكرية - المدنية بشكل واقعي.

أما بالنسبة إلى علاقة العسكر بالسياسة، فيطلق جانويتز، عالم الاجتماع العسكري، من مسلمة مناقضة لطرح هنتغتون، فإذا كان الأخير قد نظّر إلى الكيفيات التي يتم من طريقها تفادي تسييس العسكر، فإن جانويتز يعتبر أن العسكر فاعلون أساسيون في الحياة السياسية، بالنظر إلى المركز الذي يحتلونه في الدولة، وأمام المجتمع ككل.

يدل هذا الفارق بين هنتغتون وجانويتز على الاختلاف في البراديغمات المؤسسة لنظرية كل منهما؛ ففي الوقت الذي يعتمد هنتغتون على خلفية سياسية، يعتمد جانويتز على خلفية سوسيولوجية. وحين يعتمد هنتغتون براديغم مؤسسًا على ضرورة التمايز بين العسكري والمدني، كشرط أساس لوصول العسكري إلى مستوى عال من الاحترافية، فإن الاستقلالية عنده هي الشرط الأول للاحترافية والحياد، كما رأينا. أما جانويتز، فينطلق من براديغم التشابه بين العسكري والمدني. وعوض الاستقلالية، يفترض أن اندماج العسكر في الحياتين المدنية والاجتماعية هو السبيل الأوضح لضمان احترافيتهم؛ فبالنسبة إلى جانويتز، «يجب ألا يشكل الصباط جسداً منفصلاً عن المجتمع المدني، بل يجب أن يكونوا مندمجين فيه بشكل عميق؛ فإمام استحالة عزل الجندي المحترف عن الحياة السياسية للبلد ومخالفاته للعقلانية، يقترح جانويتز إشراك قادة الأحزاب الوطنية في التكوين السياسي للصباط. وفي مثل هذه الظروف، يكون للعسكريين موقف إيجابي من الهيمنة المدنية على العسكر، لأنهم يعرفون أن المدنيين يقدرون المهمات والمسؤوليات الموكلة إليهم. يضاف إلى هذا أن العسكر سيندمجون في المجتمع المدني لأنهم يشعرون بتقاسم القيم المشتركة مع مجتمعهم»⁽⁴⁷⁾. وهذا يؤكد اعتقاد جانويتز أن الاحترافية أمر ثقافي أكثر مما هو أمر تقني.

يتأسس براديغم تشابه العسكر أو اندماجهم في الحياة المدنية على مسلمة أساسية في نظرية جانويتز، وهي أنه لا يمكننا منع العسكر من المشاركة في الحياة السياسية، بل إنه يعتبر أن الحديث عن عدم تسييس العسكر هو يوتوبيا، فحتى الموقف الحيادي، أو اللاموقف، هو في حد ذاته موقف سياسي، يمكن أن تكون له آثار سلبية أو إيجابية في

هذا الطرف أو ذاك. من هنا، اعترض جانويتر على طرح هنتغتون، اد يرى «أن مشاركة العسكر في السياسة أمر لا يمكن تعالیه، وأن التمييز الواضح بين العسكر والمجال المدني أمر غير ممكن التحقيق. وعلى العكس من هنتغتون، يقترح أن يبقى العسكر تحت رقابة المدنيين على مختلف مستويات الشؤون العسكرية»⁽⁴⁸⁾.

يقترح جانويتر مقارنة أكثر دينامية لمفهوم الاحترافية في الجيش، من خلال إصفاء سمات خلقية على الممارسة العسكرية؛ فالاحترافية عنده يجب أن تناسس على مستويات عالية من تقدير الذات، وفرص معايير الاستحقاق كقيم خلقية تسيّر الحياة العسكرية. وحتى عند التفكير في وضع السياسات العسكرية، ينبغي جانويتر موقفًا مختلفًا، يعتمد فيه على التشاور بين المدني والعسكري بدلًا من الهيمنة، وهو يرى أن العسكر والمديين «يقررون بشكل مشترك وضع الأهداف العسكرية، باعتبار أن العسكري والمدني يعتمد بعضهما على بعض»⁽⁴⁹⁾. وعوض الهيمنة، يفضل جانويتر التعاون والتشاور بين العسكري والمدني، باعتبار أنه يحتاج بعضهما إلى بعض. ومع الوقت، تصبح الثقة بين الجانبين، واقتناع كل طرف بحاجته إلى الطرف الآخر، مبادئ مهمة في تسيير النشاط التربوي الطويل الأمد الذي يهدف إلى تثبيت احترافية الجيش كثقافة اجتماعية.

حاول جانويتر ترميم نظرية هنتغتون والتغطية على نفاصلها. وإليه يعود الفصل في التمييز بين العلاقات العسكرية - المدنية في الدول العربية، والعلاقات العسكرية - المدنية في باقي دول العالم. قبل نظرية جانويتر، وقع المفكرون والعلماء، بمن فيهم هنتغتون، في خطأ التعميم، معتبرين جيوش العالم كافة كيانًا واحدًا تحكمه القواعد ذاتها، ويخضع للنتائج نفسها. إلا أن جانويتر تنته إلى أن هذه العلاقات تخضع لظروف ومحيطات مختلفة، وبالتالي، ستكون المخرجات والنتائج مختلفة أيضًا؛ فتاريخ إنشاء الجيش، وتاريخ مسار بناء الدولة، والمحيط المحلي والدولي، كلها عوامل محددة للشكل الذي ستكون عليه العلاقة بين العسكري والمدني. ومن هنا، جاء تصنيفه هذه العلاقات، والذي يتأسس أولاً على المنطقة التي ينتمي إليها الجيش. ثم يتم التصنيف داخل كل منطقة، على أساس ردات الفعل التي يبدئها الجيش أمام المديين. بناء عليه، صنّف العلاقات العسكرية المدنية في الدول العربية في ثلاث فئات: الأرستقراطي والديمقراطي والشمولي. أما بالنسبة إلى باقي الدول، فإنه صنّف العلاقات العسكرية - المدنية في خمس فئات: الشمولي الشخصي؛ الشمولي الجماعي؛ الديمقراطي

التنافسي؛ التحالف المدني - العسكري؛ الأوليغارشية العسكرية⁽⁵⁰⁾. يعكس هذا التصنيف التعقيد الذي يميز العلاقات العسكرية - المدنية، في مختلف مراحل تاريخ البشرية، كما في مختلف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المحلية والدولية، والذي يولد النظامان العسكري والمدني فيه وينموان ويعيشان؛ فحالة أوروبا قبل الحرب، ليست كحالتها بعد الحرب، وحالة أميركا اللاتينية في السبعينيات ليست كحالة أميركا الشمالية في الفترة نفسها، وحالة أفريقيا ليست كحالة آسيا... الخ.

لا يمكننا تفادي تدخل العسكر في السياسة بحسب جانويتر، وبالتالي، فإن الأولوية ليست في البحث عن سبل منع هذا التدخل، وإنما في البحث عن سبل توظيفه لمصلحة الدولة والمجتمع. فالسبل الأمثل لجعل العسكر يستجيبون للسلطات المدنية هو في «تشجيع التبادل المشترك والتفاعلات المنتظمة بين المجالين المدني والعسكري، وهذا ما سيؤدي إلى ديمومة حضور قيم المجتمع وتطلعاته داخل المؤسسة العسكرية. لهذه الأسباب، يطالب جانويتر بالتجنيد العام، لأنه يرى فيه الوسيلة المفتاحية للتلاقي بين المحال المدني والمحال العسكري؛ فالتجنيد يؤدي، حسب وجهة نظره، إلى مدنية العسكري، ومن ثم يحمي من تدخل العسكر في السياسة تدخلًا سلبيًا»⁽⁵¹⁾. يمكننا القول، إذا، إن جانويتر يوسس مشروع مدنية، أو مذبذبة الجيش على العمل البيداغوجي التربوي الطويل الأمد. بهذا، يبقى تطور العلاقات العسكرية المدنية مرتبطًا بعوامل أخرى، كمستوى الديمقراطية، ومستوى تطور النظامين الاقتصادي والسياسي، وفوق هذا كله موقع الدولة وجيشها ومكانتهما ضمن الرهانات الجيو - استراتيجية المحلية والدولية.

تمكن جانويتر من تحاور قصور النظر الذي ميّز سابقه من الدارسين للعلاقة بين الجيش والمدنيين، لكنه لم يتمكن من تجاوز صعوبة تحقيق هذه المبادئ على أرض الواقع؛ فإن اعتمدت (نظرية جانويتر) شبكة مفاهيمية تساعد على وعي تشعب العلاقة وتعقيداتها بين الجيش والمدنيين، فإنها ستساعد الباحثين كثيرًا على تحقيق ذلك. أما إذا أخذت آلية لتعبير العلاقات العسكرية - المدنية وتطورها بالشكل الإيجابي، فإن نتائجها غير مضمونة؛ فالعمل البيداغوجي والتربوي الذي اقترحه جانويتر لا يتحكم فيه العسكر والمدنيون فحسب، بل يتحكم فيه أيضًا كثير من الجهات والعوامل التي تؤثر بدرجة كبيرة في نسب النجاح والفشل، أي أننا سنواجه، مرة أخرى، الإشكالية العامة المتعلقة بإمكانية إعادة إنتاج - بمستوى النجاح ذاته - التطورات السياسية

والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي حدثت في أوروبا وأميركا الشمالية.

رابعًا: نظرية مهران كامرافا

أهم ما يميز دراسة مهران هو احتصاصها بالعلاقات العسكرية - المدنية في الشرق الأوسط، حيث يقدم لنا «تصنيفاً ثلاثياً للعلاقات العسكرية - المدنية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: صنف الضباط السياسيين المستبدين، وصنف الملكيات المؤسسة على القبلية، وصنف الجيوش ذات النعنية المزدوجة»⁽⁵²⁾. ينبني هذا التصنيف على التوزيع الأيديولوجي لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وهو، إلى حد ما، توصيف أمين يعيد رسم خريطة الشرق الأوسط بشكل دقيق؛ فالأنظمة الحاكمة والجيوش في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تأثرت، بشكل مباشر، بالعوامل التاريخية التي أدت إلى قيام الدولة الوطنية في المنطقة. بالتالي، كانت العلاقات العسكرية - المدنية نتيجة حتمية لهذه الظروف.

يرى مهران أن «في الصنف الأول، عادة ما يُستَير النظام عسكريّ سابق تحول مع الزمن إلى سياسي مدني، ومن ثم هناك سعي إلى مذبذبة جهاز الدولة ككل بسبب الخوف من قوة العسكر السياسية. لكن، على الرغم من عدم مشاركة العسكر في الحياة السياسية، فإنهم لا يزالون يؤدون دوراً خلفياً مهماً عبر قنوات عدة. تُعتبر دولتا مصر وسورية مثالين للضبّاط السياسيين المستبدين. وفي كلٍّ منهما، تمارس القوات المسلحة سلطتها السياسية عبر علاقتها الرمزية بمؤسسة الرئاسة القوية. يتمتع العسكر بسلطة حصرية أو بسلطة الفيتو على الرئاسة التي تعتمد على المؤسسة العسكرية كمصدر وحيد للقوة»⁽⁵³⁾. وبلا حظ في هذا الصنف تحول الجيش إلى ما يشبه الحكومة الموازية التي تحكم فعلياً، ولكن من خلف الستار؛ فحتى لو رُوّجت الأجهزة الإعلامية للدولة أن الحاكم منتخب بشكل ديمقراطي، فإن خلفيته وامتداداته العسكرية تجعله يُقَمِّم مصالح الطائفة العسكرية على مصالح باقي الطوائف الاجتماعية. وبهذا، يتحول الجيش إلى سلطة فعلية، لا هي المجالات العسكرية فحسب، بل وفي باقي المجالات المدنية أيضاً. يقدم مهران شكلاً مختلفاً من العلاقات العسكرية - المدنية في الملكيات القبلية؛ «فميزة هذه الدول هي اعتمادها بشكل مطلق على القوات المرتبطة بالقبائل الموالية، وعلى جماعات المرتزقة الأجانب. ففي الممالك، مثل السعودية والمغرب، اعتماد على

الولاء القبلي أسلوبًا للحد من ضغط العسكر على المدنيين. وفي العربية السعودية على سبيل المثال، يجري اختيار رجال الحرس الوطني وصباطه، بعية تأمير التوارس بين القوات المسلحة النظامية وحماية النظام من التهديدات الداخلية، من بين القبائل الموالية للعائلة المالكة⁽⁵⁴⁾. مرة أخرى، نلاحظ مع مهران كيف أن الأحوال الاجتماعية والإثنية والسياسية هي التي تحدد لنا شكل العلاقات العسكرية - المدنية؛ فالملكيات العربية تنبني أساسًا على مفهوم العائلة المالكة. وهي بدورها ترتبط بشبكة من القبائل الموالية والمناصرة، وحتى المعادية. من هنا، تصبح مسألة حماية السلطة المدنية للعائلة الحاكمة من أولويات القوات المسلحة. بالتالي، يصبح للبعد الإثني دور مهم، لا في تشكيل الجيش فحسب، بل أيضًا في تسيير العلاقات العسكرية - المدنية، بين الجيش والسلطة، وبين السلطة والقبائل الموالية والمناصرة والمعادية.

في صنف الجيوش ذات «التبعية المردوجة» (أو المتعددة)، تكون البنية العسكرية أقل ارتباطًا بالولاء القبلي، أو لا ترتبط به لوحده، بل هناك ولاء نحو الأيديولوجيا، كما هو الشأن بالنسبة إلى بعض الدول كإيران والعراق قبل عام 2003، وليبيا في عهد القذافي؛ فبالإضافة إلى الجيوش النظامية، أنشأت هذه الدول ميليشيات موازية، يكون دورها الأساس حماية النظام من التهديدات المحلية، بما في ذلك تحديات الجيوش النظامية.

على عكس الجيوش النظامية، تخضع هذه الميليشيات لأدلجة وتلقين قويين وثابتين في اتجاه تقوية الولاء للنظام الحاكم. ويكون اختيار أعضاء الميليشيات في العادة من المتطوعين الذين يدعون إحراطًا أيديولوجيًا قويًا، وارتباطًا عاطفيًا كبيرًا بالحاكم أو بالنظام. ويُعتبر الحرس الثوري الإيراني مثالًا قويًا لهذا الصنف، باعتبار أن الحرس الثوري «يقدم على أنه الحامي الحصري للثورة الإسلامية التي قامت في عام 1979»⁽⁵⁵⁾. ويقع هذا الصنف في الوسط تقريبًا بين صنف الصناط المستبدين، وصنف الملكيات القبلية، أي إن النظام المدني يؤسس لمشروع أيديولوجي خاص به، يريد من خلاله تجاوز المشروع الملكي ومشروع الصناط.

لكي يتمكن هذا المشروع من النجاح، يُصار إلى أدلجة مختلف أجهزة الدولة، بما في ذلك الجهاز العسكري، فتتسطخ خلايا التلقين والأدلجة من أجل دعم صورة النظام لدى الصباط والأفراد، ومن أجل مراقبة مدى التزامهم أداء فروض الولاء والطاعة للحاكم. ثم تحتم الحلقة بإنشاء كتائب وميليشيات مستقلّة تنطيمًا بعضها عن بعض. وتعمل كلها

على حماية النظام، وعلى مراقبة مستوى ولاء باقي الكنائس والميليشيات في لبنان واحد. يقدم مهرا ن تصنيفاً قائماً على أساس المتابعة التاريخية للجيوش والأنظمة الشرق الأوسطية. وفي حين يبقى هذا التصنيف مهماً وضرورياً لفهم آليات عمل الجيوش العربية، وكيفية تسييرها للعلاقات العسكرية - المدنية، فإنه لا يسمح لنا في الوقت نفسه بتفسير ردات فعل هذه الجيوش خلال الأزمات. فإذا ضمّ صنف من الأصداف جيوشاً تتشابه في الصفات والخصائص والآليات، وجب أن تكون ردات الفعل متشابهة أو متقاربة في الأقل. إلا أن أزمة الربيع العربي أظهرت لنا تناوبات كبيرة في ردات الفعل التي أبدتها الجيوش العربية حيال الأزمة. ومن هنا، يمكن أن يكون هذا التصنيف أرضية انطلاق، نحاول من خلالها أن نفهم ما حدث، ولماذا حدث بهذا الشكل وليس بشكل آخر.

خامساً: مقارنة زولتان باراني

تبقى مقارنة زولتان باراني (Zoltan Barany) متميزة من المقاربات السابقة، لأنها اهتمت بالجيش في لحظة الثورة؛ فلم تكن دراسته شاملة للعلاقات العسكرية المدنية بصفة عامة، وإنما اقتصر ت على هذه العلاقات خلال فترة الثورة فقط.

أفرد باراني في كتابه كيف تستجيب الجيوش للثورات؟ ولماذا؟ فصلاً كاملاً لدراسة ردات فعل الجيوش العربية على «ثورات الربيع العربي». وهو أشار، منذ البداية، إلى أن البحوث التي اهتمت بالجيوش العربية قليلة جداً. وقال إن «القوات المسلحة العربية كانت موضوعاً لم يتلقَ الاهتمام الأكاديمي المناسب في السنوات الأخيرة، وحتى الأعمال القليلة المتاحة عن الموضوع نادراً ما تكون على علم بأحدث الأعمال النظرية والمقاربة في مجالات دراسة القطاع الأمني بشكل عام، والجيش بشكل خاص»⁽⁵⁶⁾. إن شخ المعلومات المتوفرة للباحثين العرب وغير العرب، في موضوع الجيوش العربية، هو اهم العوائق التي تعترض البحث في المجالات الأمنية العربية. ويرتبط هذا الشخ، بشكل كبير، بطبيعة الانظمة العربية، والتي هي في مجملها أنظمة شمولية قمعية، جعلت من أجهزتها الأمنية المختلفة موضوعاً عصياً على البحث العلمي. بل حولته إلى شكل من أشكال التابوهات، «حيث يقف عامل السرية عائقاً أساسياً أمام إجراء البحوث السوسيولوجية في القوات المسلحة، لا سيما إذا كانت

الدراسة تتطلب بيانات وإحصاءات عن حجم النسق العسكري وشكله»⁽⁵⁷⁾.

اهتمت مقارنة باراني، بشكل خاص، بمسألة قدرة الخبراء على التنبؤ بردات فعل الجيوش امام الثورات العربية. فانطلق من فكرة فشل الخبراء في التنبؤ بالثورات، ومن ثم بردات فعل الجيوش العربية على «ثورات الربيع العربي». ومن ثم يحدد لدراسته غاية أساسية تتمثل في وضع منهجية علمية تسمح بتغطية هذه النقاط، وتمكن الباحثين والخبراء من توقع ردات أفعال الأجهزة الأمنية في حالة الأزمات الحادة.

يبرر باراني إشكاليته بحجتين أساسيتين، تتمثل الأولى في أن الشكل الذي تتحده «استجابة القوات المسلحة لطام ما لأي انتفاضة هي أمر جوهري في نجاح أو فشل الانتفاضة»⁽⁵⁸⁾. بالفعل، يتوقف نجاح أو فشل الثورات على موقف الجيش منها، فالثوار وبعد إشعال فتيل الثورة ينتظرون ردة فعل الجيش، الذي يعتبر بمثابة الرسالة التي تحدد شكل تطور الثورة واتجاهه، وتحدد مآلاتها أيضاً.

أما الحجة الثانية فتتمثل في إمكانية «تقديم تحمير واع، أو حتى أن نتوقع بثقة كبيرة نمط استجابة جيش ما نحو ثورة أو انتفاضة شعبية إذا كنا على معرفة عميقة بهذا الجيش، وبالعلاقات بالدولة والمجتمع والبيئة الخارجية التي تحيط به»⁽⁵⁹⁾، يسجل باراني مشروع هذا ضمن التقاليد التي أسسها فاير وجانويتر، والتي تقترض فهم الجيوش وتصرفاتها، من خلال فهم الحلفيات الاقتصادية والسوسيولوجية والأنثروبولوجية والتاريخية التي تحيط بالجيش والمجتمع والسلطة التي يعمل تحت إشرافها، ومعرفة هذه الحلفيات بحسب باراني تمكننا من التنبؤ بثقة بما يمكن أن يقوم به الجيش في حال قامت انتفاضة شعبية في بلد ما.

انطلاقاً من هذه المقدمات صنف باراني جيوش البلدان التي مستها «الثورات العربية» إلى ثلاثة أصناف أساسية، أولاً: الجيوش التي «وقفت» مع الثوار، كما في حالة مصر وتونس؛ ثانياً: الجيوش التي انقسمت حول دعم الثورة كما في حالة اليمن وليبيا؛ وثالثاً: الجيوش التي قررت الحفاظ على الوضع القائم كما في البحرين وسورية؛ ثم أضاف صنفاً رابعاً سماه جيوش الملكيات العربية، التي صنعها كجيوش معزولة بشكل تام عن الحراك السياسي في مجتمعاتها.

إن أهم ما يميز مقارنة باراني هو اتخاذها للجيش كنقطة مركزية للبحث، حيث اهتم أكثر بالصباط والجنود، ولم يكن اهتمامه بالسلطات المدنية أو بالمجتمع، إلا من حيث

قدرتها على إثبات أفكاره المتعلقة بوضع نموذج نظري يسمح للخبراء بالتنبؤ بردات فعل الجيوش المدروسة، فإذا كانت النظريات السابقة، قد تعاملت مع العلاقات المدنية العسكرية، كحالة تفاعلية بين الجهتين المدنية والعسكرية، فإن مقارنة باراني قد تعاملت مع هذه العلاقات كفعل تقوم به الجهات المدنية بشكل حر ومستقل، وردة فعل تقوم بها الجهات العسكرية، أيضاً كفعل حر ومستقل، قد يتأثر بالوصعيات الاجتماعية والاقتصادية والانثربولوجية للمجتمع، لكن مع ذلك تبقى تصرفات العسكر وكأنها منعكسات شرطية، يمكن توقعها بمجرد التعرف إلى المثيرات التي أدت إلى حدوثها. أعتقد أن المهم في بحث العلاقات العسكرية - المدنية ليس التنبؤ بحدوث أفعال وردات فعل، بقدر ما هو محاولة فهم الأفعال وردات الفعل بعرض تفسير الواقع، أما التنبؤ فيبقى حاضغاً لصعظ حصوصية الطاهرة الاجتماعية والإنسانية وتعقدها، لذا يكون من التهور الإدعاء بإمكانية توقع ما يمكن أن تؤول إليه طاهرة اجتماعية إنسانية، مجرد مقارنتها مع ظواهر سابقة، ومع وصعيات اجتماعية واقتصادية وانثربولوجية أخرى، من هنا يمكن القول إن الفرق بين ما حدده باراني من غايات لبحثه، وبين ما حققه، يبقى شاسعاً جداً، حيث إن بحثه لا يعدو أن يكون مجرد حصيلة شاملة ومختصرة لما عرفته المنطقة العربية في 2011، ولموقف الجيوش العربية منها، فالادعاء بإمكانية التنبؤ «بأثر رجعي» الذي قام به باراني في هذا البحث، من خلال العودة إلى قراءة مختلف تجارب جيوش العالم مع الثورات، والمقارنة بين هذه التجارب، لا يصم لنا بأي شكل من الأشكال القدرة على التنبؤ بما يمكن أن تكون عليه ردات أفعال جيوش أخرى، في وصعيات وظروف اقتصادية واجتماعية وتاريخية وانثربولوجية مختلفة وفي المستقبل.

من جهة أخرى، تعاني مقارنة باراني تناقضاً رهيباً بين مقدماته وروح الثورة نفسها، حيث يتهم الخبراء والباحثين بالعجز عن التنبؤ بحدوث الثورة، ومن ثم العجز عن التنبؤ بردات فعل الجيوش اتجاهها، في الحقيقة «أنه اتهام يناقص طبيعة الثورة نفسها، التي تتعلق بتفجر الأوضاع في لحظة مفاجئة غير حاصعة للصبط المادي بالإحصاءات الكمية والدراسات التقنية...»⁶⁰، فالثورة وردات الأفعال اتجاهها هما فعلا مؤسسان على عامل المفاجأة والمباغطة، ومن ثم تبقى محاولات التنبؤ بمثل هذه الطواهر، أقرب إلى العمل الاستخباري منه إلى العمل الأكاديمي العلمي.

إن دحض المقدمة التي انطلق منها باراني، سيؤدي لا محالة إلى دحض جزء كبير من

التحليل ومن القراءات التي قدمها عن مختلف الثورات التي ميزت العالم، فالشيء الذي لم ينته له، أو تعاصى عنه، هو أن طبيعة الثورة هي المفاجأة والمباغنة، وإلا فلن تكون هناك ثورة. مع جميع هذه النقص التي ميزت مقاربة بارافني يبقى بحثه محاولة مهمة، من الناحية المنهجية، بالنظر إلى الكم الهائل من المعلومات التي أنت بها دراسته.

تقويم واستنتاج

عدد تقويم نظريات العلاقات العسكرية - المدنية، يستنتج أن من الممكن أن تفيدنا هذه التصنيفات - على المستوى النظري - بمعرفة الخصائص المشتركة بين مجموعة من الجيوش، وما يميزها من مجموعات أخرى، أما على المستوى العملي، فلا يمكنها أن تكون جامعة مانعة؛ إذ في الإمكان دائماً وضع أكثر من جيش واحد في أكثر من صف، بسبب تشابه خصائصه مع أكثر من جهة، وهذا ما يجعل إمكانية تفسير ردة فعل الجيوش معقدة، وأحياناً مودية إلى استنتاج خاطئ؛ فلو كان في الإمكان وضع جيش ما في أكثر من صف واحد، لكان في الإمكان تفسير ردة فعله بأكثر من تفسير واحد. بناء عليه، يمكن التصنيفات أن تساعدنا على وعي خصائص الجيوش بعمق، أو كما يقول زكي صاريجيل (Zeki Sarigil) «تُنتقد التصنيفات في العلوم الاجتماعية بسبب كونها وصفية وليست شارحة، كما تُنتقد لكونها ثابتة (ستاتيكية)»⁽⁶⁾. من جهة أخرى، يمكن التصنيفات أن تساعدنا على المقارنة بين الوحدات المراد تصنيفها، لكنها لا تمكينا من فهم الظاهرة بشكل جيد؛ فالتصنيف يمكن أن يتوقف عند حدود الوصف، أما التحليل والتفسير فيحتاجان إلى آليات أخرى.

من جهة ثانية، جرى انتقاد المقاربات العربية من جهة سعيها إلى المماثلة بين الجيوش العربية وجيوش الدول النامية، متجاهلة الخصوصيات التي تميز هذه المجتمعات وجيوشها. من هنا، تكون «دراسة الحالة» (التي يمكن أن تستفيد من الإرث العلمي المؤسس حول العلاقات العسكرية - المدنية) هي التقنية الأكثر قدرة على وعي تعقيدات العلاقات العسكرية المدنية وفهمها. ثم «أنت نظريات المماثلة (Concordance theory) كأحد أهم الانتقادات لهذا النموذج المهيمن من داخل المنظور الغربي ذاته. فوفقاً لنظرية التوافق، يجب، عند دراسة العلاقات المدنية - العسكرية لأي دولة،

الاهتمام بصفة أساسية بإرث تلك الدولة الثقافي والتاريخي، وكيف يؤثر هذا الإرث في كل من المؤسسات السياسية والعسكرية، إضافة إلى اهتمامها بالمجتمع كلاعب رئيس، يساهم في استقرار الأنموذج المناسب للعلاقات المدنية العسكرية لكل دولة، بحانب اللاعبين الآخرين، وهما المؤسسات العسكرية والمؤسسات السياسية»⁽⁶²⁾.

أما المقاربات التي بنت تصنيفاتها على أساس ردات فعل الجيوش في حالة الأزمات والثورات، فإنها صلت الطريق منذ اللحظة التي حددت لنفسها - كهدف أساس - إمكانية اعتماد هذه التصنيفات كآلية للتنبؤ بالأزمات وردات فعل الجيوش اتجاهها. وهذا لأن التنبؤ في حد ذاته يتعارض مع جوهر الثورات ومع طبيعة ردة الفعل، المسيير على عصر المفاجأة والمناغاة، أو كما قال عزمي بشارة، ربما يكون من «الصعب، إن لم يكن من المستحيل، إطلاق تعميمات عابرة للزمان والمكان حول الجيش والسياسة، أي خارج السياق التاريخي، بما فيه التاريخ المحلي، والثقافة، والبيئة الاجتماعية وغيرها»⁽⁶³⁾. وترداد هذه الملاحظة قوة عندما يتعلق الأمر بالأجهزة الأمنية والقمعية، التي تمارس حذرًا وتصفية دقيقة وممبهاة على المعلومة، التي يمكن أن يعتمد عليها الخبراء في التحليل.

من هذا المنطلق ستتجاوز المقاربة التصنيفية إلى مقاربة سوسيولوجية تعتمد الشرح والتحليل حالة بحالة، من خلال شبكة تحليل تنطلق من افتراضات مؤسسة على المعطيات التاريخية والسوسيولوجية والأنثروبولوجية المتعلقة بالجيش والدولة المراد دراستها، أي إننا سنعتبر أن كل دولة هي صنف مستقل بحد ذاته، لنقوم بعد ذلك بتحريب شبكة التحليل على كل حالة على حدة، الأمر الذي سيمكننا من فهم ردة فعل كل جيش تجاه الثورات العربية باعتباره حالة خاصة.

يتناول كثير من الدراسات العربية العلاقات بين الجيوش العربية والخب السياسية، نوع من التعميم الذي يحتزل كثيرًا من الحقائق الجوهرية، والخصوصيات الثقافية والإثنية والطائفية، أي تعميم يُهمل تميز كل دولة من الدول العربية، والذي يجعل العلاقة بين العسكر والسياسة علاقة متغيرة تفرص علينا دراسة هذه الدول حالة بحالة. يرى عدد من الباحثين⁽⁶⁴⁾ أن دور الجيوش العربية احتزل في حماية النظم الشمولية، وهذا طرح تبسيطي محالف للواقع، ولا يعكس مستويات تعقد العلاقة بين العسكر والسياسة في العالم العربي. لذا، وجب التحذير - على صعيد المنهجية - من هذه التعميمات التي لا تسمح لنا بفهم الواقع العربي بشكل واضح ودقيق؛ ففي عدد من

الحالات، كما سيتبين لنا من خلال شبكة التحليل المعتمدة، يتعدى دور الجيش مسألة حماية النظم الشمولية إلى حماية الجيش نفسه، أو مختلف الطوائف التي يرتبط بها الجيش أو المدنيين.

(19) Vladimir O. Rukavishnikov and Michael Pugh, «Civil Military Relations,» in: Giuseppe Caforio (ed.), *Handbook of the Sociology of the Military*, Handbooks of Sociology and Social Research (Boston, MA: Springer US, 2006), p. 132.

(20) Gerassimos Karabelias, «Civil Military Relations: A Comparative Analysis of the Role of the Military in the Political Transformation of Post-War Turkey and Greece: 1980-1995,» Final Report Submitted to North Atlantic Treaty Organization (NATO), June 1998, pp. 15-16.

(21) Derek Lutterbeck, *Arab Uprisings and Armed Forces: Between Openness and Resistance*, SSR Paper; 2 (Geneva: Centre for the Democratic Control of Armed Forces (DCAF), 2011), pp. 8-9.

(22) Karabelias, p. 6.

(23) Giuseppe Caforio, «Some Historical Notes,» in: Caforio (ed.), p. 16.

(24) Ibid., p. 15.

(25) Hans Born, «Democratic Control of Armed Forces Relevance, Issues, and Research Agenda,» in: Caforio (ed.), p. 155.

(26) Samuel P. Huntington, *The Soldier and the State: The Theory and Politics of Civil-Military Relations* (Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1957), p. 3.

(27) Caforio, p. 15.

(28) Huntington, p. 72.

(29) Ibid., p. 72.

(30) Ibid., p. 72.

(31) William C. Taylor, *Military Responses to the Arab Uprisings and the Future of Civil-Military Relations in the Middle East: Analysis from Egypt, Tunisia, Libya, and Syria* (New York, NY: Palgrave Macmillan, 2014), p. 27.

(32) Caforio, p. 16.

(33) Samuel E. Finer, *The Man on Horseback. The Role of the Military in Politics* (London: Pall Mall Press, 1969), p. 24.

(34) Bård Kårtveit and Maria Gabrielsen Jumbert, *Civil-Military Relations in the Middle East A Literature Review*, CMI Working Paper, WP 2014: 5 (Bergen, Norway: Chr. Michelsen Institute, June 2014), p. 4, and Lutterbeck, p. 9.

- (35) Karabelias, p. 10.
- (36) Ibid., p. 11.
- (37) Finer, p. 25.
- (38) Ibid., p. 25.
- (39) Ibid., p. 28.
- (40) Ibid., pp. 165-166.
- (41) Kårtveit and Jumbert, p. 105.
- (42) Lutterbeck, p. 10.
- (43) Karabelias, p. 10.
- (44) Taylor, p. 33.
- (45) Rukavishnikov and Pugh, p. 133.
- (46) Caforio, p. 17.
- (47) Ibid., p. 18.
- (48) Kårtveit and Jumbert, p. 4.
- (49) Hans Born, Marina Caparini and Karl Haltiner, *Models of Democratic Control of the Armed Forces A Multi-Country Study Comparing 'Good Practices' of Democratic Control*, DCAF Working Paper Series; no. 47 (Geneva: Geneva Centre for the Democratic Control of Armed Forces (DCAF), 2002), p. 6.
- (50) Karabelias, p. 11.

(51) Lutterbeck, pp. 9-10.

(52) Ibid., p. 12.

(53) Ibid., p. 12.

(54) Ibid., p. 13.

(55) Ibid., p. 13.

(56) رولتان باراني، كيف تستجيب الجيوش للثورات؟ ولماذا؟، ترجمة عبد الرحمن عيش (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2017)، ص 16.

(57) فؤاد الاغا، علم الاجتماع العسكري (عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2008)، ص 13.

(58) باراني، ص 19.

(59) المرحح نفسه، ص 20-21.

(60) سلمان بونعمار، فلسفة الثورات العربية: مقارنة تفسيرية لنموذج انتفاضي جديد، دراسات فكرية؛ 1 (بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2012)، ص 16.

(61) Zeki Sarigil, «Civil-Military Relations Beyond Dichotomy: With Special Reference to Turkey,» *Turkish Studies*, vol. 12, no. 2 (June 2011), p. 265.

(62) أحمد عبد ربه، «العلاقات المدنية العسكرية وإشكاليات التحول الديمقراطي: دراسة في الاتجاهات النظرية الحديثة»، في: حمدي عبد الرحمن (محرر)، جيوش والتحول الديمقراطي في إفريقيا معوقات بناء الدولة (الدوحة: منتدى العلاقات العربية الدولية، 2015)، ص 30.

(63) عزمي بشارة، «الجيش والحكم عربياً: إشكاليات نظرية»، سياسات عربية، العدد 22 (أيلول/سبتمبر 2016)، ص 8.

(64) Birthe Hansen and Carsten Jensen, «Challenges to the Role of Arab Militaries,» in: Carsten Jensen

(ed.), *Developments in Civil-Military Relations in the Middle East* (Copenhagen: Royal Danish Defence College, 2008).

الفصل الثالث

الشبكة التحليلية الشارحة

العلاقات العسكرية - المدنية في

الوطن العربي

بعد هذا المدخل النظري الضروري لفهم الخلفيات النظرية للعلاقات العسكرية - المدنية، سنبقى إلى مستوى ثان من التحليل، يتمثل في بحث العلاقة بين السياسي والعسكري في دول ثورات الربيع العربي، حيث يبين لنا الواقع العربي أن الجيوش العربية تأثرت، في تشكيلها وتنظيمها، بتأريحية المجتمع وتركيبته، وبطبيعة النظام السياسي للدول التي تنتمي إليها. من هنا، كان كل جيش منها حالة خاصة، أنتجت ردات فعل خاصة عند قيام الثورات العربية. فما هي هذه الأوضاع التي ساهمت في تشكيل الجيوش العربية؟ وما هي الشبكة التحليلية التي تفسر لنا ردات الفعل المتباينة للجيوش العربية أمام ثورات شعوبها؟

يمكن أن تكون الإجابة من خلال بناء شبكة تحليلية خاصة، نسعى من طريقها إلى فهم ردات فعل الجيوش العربية وتفسيرها، أمام الأزمات الحادة التي تمر بها منطقة الشرق الأوسط منذ عام 2010.

تتبنى شبكتنا التحليلية على مسلمّات ونواتج توصلت إليها النظريات السابقة. أولى هذه المسلمّات تتمثل في خصوصية منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وهذا وفق ما نبهتنا إليه بحوث جانويتر ومهران. أمّا المسلمّة الثانية، فتتمثل في تأثير العلاقات العسكرية - المدنية، بشكل مباشر أو غير مباشر، في الأوضاع الخاصة بنظام الحكم أو بالمؤسسة العسكرية، وتأثيرها أيضًا بأحوال المجتمع العامة، السياسية منها والاقتصادية والسوسولوجية والأنثروبولوجية، إضافة إلى الرهانات والصفوطات المحلية والدولية، التي يقع تحتها العسكر والمدنيون على حد سواء.

أولاً: أساس الشبكة التحليلية المعتمدة

ستتأسس شبكتنا التحليلية على مفهوم أساس وجوهري، يرتبط بشكل عضوي بالأسباب التي أدت إليه، وأيضًا بالنتائج التي ستنتج منه. ويتمثل هذا المفهوم في ما ستسميه هذه الدراسة بألية الوقاية من الانقلاب.

تبين لنا المتابعة التاريخية لأوضاع نشأة الجيوش العربية وتطورها، أن العلاقات العسكرية - المدنية، في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، تتحدد بناء على أربعة عوامل

جوهرية، لكل واحد منها علاقة مباشرة بآلية الوقاية من الانقلاب:

العامل الأول: موقف الحاكم من الجيش

بالنظر إلى طريقة وصول الحاكم العربي إلى السلطة، والتي يمكن حصرها في التوريث أو الانقلاب (العسكري أو المدني) أو الثورة أو التفاوض السياسي، فإن موقف الحاكم من الجيش يتلخص إما بالحواف والحيطة والحد، وإما بالاستحواد على الجيش أو بالانقياد والتبعية له أو بالحياد والاستقلالية. وتتحدد ردة فعل الحاكم تجاه الجيش انطلاقاً من هذه المواقف، وهي ردة فعل تحدد بشكل كبير آلية الوقاية من الانقلاب.

العامل الثاني: علاقة الجيش بمسار بناء الدولة

يكشف تاريخ دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الحديث والمعاصر، تبييناً واضحاً في مسارات بناء الدولة، من الثورة والتحرر من الاستعمار الغربي، إلى الانقلابات العسكرية على الأنظمة الملكية التي نشأت عقب سقوط الخلافة الإسلامية، إلى الحركات الثورية الإصلاحية القبلية التي عملت على توحيد عدد من القبائل في دولة وطنية. و«ينطبق هذا الأمر على دول عدة في الوطن العربي، كانت في معظمها تحت السيطرة الأوروبية أو العثمانية، وكان عليها أن تحارب من أجل استقلالها، سواء عسكرياً أو سياسياً. أذت القوات المسلحة دوراً مهماً في هذا المسار، سواء بحمل السلاح، أو بتأطير مقاومة سياسية للقوات الأجنبية، أو من خلال العصيان. وفي بعض الحالات، كان الجيش هو المؤسسة الأولى التي يتم تأسيسها، وأصبح في بعض الحالات يرمز إلى الدولة ككل [...] ويمثل تحررها من قرون من العبودية للقوات الأجنبية، وما يميزه من الجيش العثماني أو الجيوش الأوروبية، ليس قيادتها أو معداتها، إنما ولاؤها لدولة معينة وأمة محددة»⁽⁶⁵⁾.

كانت للجيوش، أمام هذا التباين، مساهمات متفاوتة أيضاً، فمن مبادر ومغفل للمسار، وبالتالي متسبب في بقاء الدولة في بعض الدول، إلى نتيجة لبناء هذه الدولة في حالات أخرى، أي إنه لم يكن موجوداً، أو كان مهمشاً في أثناء المشروع في مسار بناء الدولة. من هنا، يتحدد شكل الآلية المعتمدة للوقاية من الانقلاب، بالنظر إلى مكانة الجيش في

العامل الثالث: تركيبة المجتمع الاجتماعية والإثنية والطائفية

نظريًا، يُفترض أن يهتم الجيش، من منطلق الحداثة، بالمهام العملياتية التي تحددها له القوانين والمواثيق الرسمية للدولة؛ فالمؤسسة العسكرية مؤسسة حديثة، ويقصد بـ «الحديثة المؤسسة التي يكون لها بنية عقلانية ورسمية وتراتبية، وتجري الترقية في داخلها عبر الاستحقاق لا عبر المنح، كما أنها متجددة ومتطورة تكنولوجياً»⁽⁶⁶⁾. لكن من منطلق انتماءاتها الاجتماعية، تجد المؤسسة العسكرية نفسها مضطرة (أو أنها تدفع دفعًا) إلى التفاعل مع الخصائص الاجتماعية والإثنية والطائفية للبلد الذي تنتمي إليه، فتتحدى، ولو حريئًا، عن عقلانياتها ورسميتها، وحتى تراتبيتها، ففي دول العالم الثالث عمومًا، ودول العالم العربي على وجه الخصوص، يبقى دور الإثنية والطائفة والعشيرة والعائلة مهمًا في مختلف مستويات القوات المسلحة. إلى درجة أن الولاء للطائفة أو العشيرة يكون في بعض الجيوش مقدمًا على الولاء للدولة أو للجيش. إنها عادة موروثة عن الاستعمار الذي اجتهد في استغلال التنوع الإثني والطائفي والفلي في استراتيجيات الهيمنة، لبسط نفوده على مستعمراته بأقل ما يمكن من تكاليف.

وفي هذا الصدد، يذكر دوبالد هوروفيتز⁽⁶⁷⁾ ثلاثة عناصر تتمثل في: 1- العلاقات بين العسكريين والسياسيين؛ 2- الصعوبات التي يواجهها العسكر عند محاولة تحديد انتماءاتهم الإثنية؛ 3- تدخل المدنيين في الحياة العسكرية. هذه العناصر تساهم بما لها من تأثير في تحديد دور الجيش ومكانته في شبكة علاقات السلطة، صم مثلث العلاقات العسكرية - المدنية، الذي يضم القوات المسلحة والدولة والمجتمع.

ترتبط الوصعية غير العقلانية للقوات المسلحة، بالنسبة إلى المجتمعات التي تنتمي إليها، بالممارسات الاستعمارية؛ فالمعروف أن القوة الاستعمارية التي كانت تدعي السعي إلى تحديث الشعوب المستعمرة، عملت كإجراء أول على تشكيل قوات مسلحة محلية. ولم يكن ذلك من أجل حماية البلدان المستعمرة، ولكن من أجل بسط سيطرة القوة الاستعمارية أكثر فأكثر. وها بالضبط، تدخلت الأنثروبولوجيا، فعملت عملها، حيث جرى التعرف بدقة إلى التوريعات الإثنية والطائفية في المجتمعات المستعمرة. ومن ثم جرى استغلال هذا التوريع في أثناء تشكيل الجيوش المحلية، فاعتمد على

الأقليات في تشكيل جيوش تساعد القوات الاستعمارية على ضبط الأغلبية وتطويعها؛ «فالجيش التي شكلتها القوى الاستعمارية كانت تهدف إلى إجاز الأفراد مهماتهم، لا على الرغم من الولاءات الإثنية، ولكن بسببها. ثم استمر هذا التقليد الاستعماري في كثير من الجيوش التي أعيدت هيكلتها»⁽⁶⁸⁾ بعد جلاء الاستعمار. وواصلت كثير من النخب السياسية، بعد الاستقلال، الاعتماد على الطائفية والإثنية في تشكيلها الجيوش وتوازنها المختلفة، وبحماسة تفوق في بعض الأحيان الحماسة الاستعمارية. تواصلت هذه العادات الاستعمارية مع الجيوش المستقلة، حيث بات واصخا، وأحيانا ضروريا، أن تتحكم التركيبة الإثنية والطائفية والعشائرية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، في تحديد دور الجيش وتشكيلته على مستويات التنظيم والتعداد والاهداف والاستراتيجية.

استثمرت الأنظمة التي تتميز دولها بتنوع إثني أو طائفي، إيجابا أو سلنا، في هذا التنوع بالشكل الذي يمكنها من تسيير معادلات الولاء والطاعة عند ضباط الجيش وأفرادها، بما يقيها المفاجآت غير السارة؛ فـ «الطريقة التي يرتبط بها كل من الدولة والمجتمع والجيش، تتحكم فيها عناصر أخرى، كالتجديد. ويمكن أن نتعرف من خلال عملية اختيار المجندين، إلى أي مدى يمكن الدولة أن تثق في بعض عناصر المجتمع، وكيف ترتبط هذه العناصر بالدولة؛ فارتفاع أو انخفاض معدل التجديد من طائفة ديمية معينة، أو من إثنية معينة، يحدد لنا، بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية، العلاقة بين الدولة والمجتمع والجيش»⁽⁶⁹⁾. هنا أيضا، يكون لهذه العوامل السوسولوجية والأنثروبولوجية دور مهم في تحديد شكل آلية الوقاية من الانقلاب.

العامل الرابع: الأوضاع الدولية المحيطة بالشرق الأوسط وشمال أفريقيا

هناك رهانات سياسية واقتصادية، وحتى ثقافية، حولت منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلى حلبة صراع، تتصارع فيها القوى العالمية من أجل تقوية غنائمها الاقتصادية والميسية والثقافية. ويمثل الوضع السياسي بوجود الكيان الصهيوني واحتلال فلسطين، والوضع الاقتصادي باحتواء المنطقة على معظم احتياطات العالم من النفط، والوضع الثقافي باحتواء المنطقة على أهم نقاط الصراعات الدينية

والثقافية، اضافة إلى الموقع الجيو استراتيجي الذي يجعل المنطقة من أقرب الأسواق إلى جميع القوى الاقتصادية العالمية، ويجعلها في الوقت نفسه الممر الإحصاري لهذه الأسواق والاقتصادات.

هذه العوامل كلها تمثل عوامل ضغط وضعت المنطقة في صلب اهتمامات القوى العالمية العظمى، ما يدفعنا إلى الجزم بأنه لم يحدث في الماضي، ولا يمكن أن يحدث في المستقبل، أي تطور في المنطقة من دون أن يكون هناك تأثير، مباشر أو غير مباشر، لهذه القوى في أنظمة المنطقة وجيوشها. وكون النظام الحاكم والمؤسسة العسكرية والمجتمع هي القوى الفاعلة الأساسية في هذه الحلبة المعقدة، فإن تأثير القوى الأحسية في العلاقات العسكرية - المدنية يصبح تحصيل حاصل، بالتالي، تصبح فوبيا التدخل الأجنبي - عسكرياً كان أم استخبارياً - أحد المحركات الأساسية والمبررات الحاضرة لآلية الوقاية من الانقلاب.

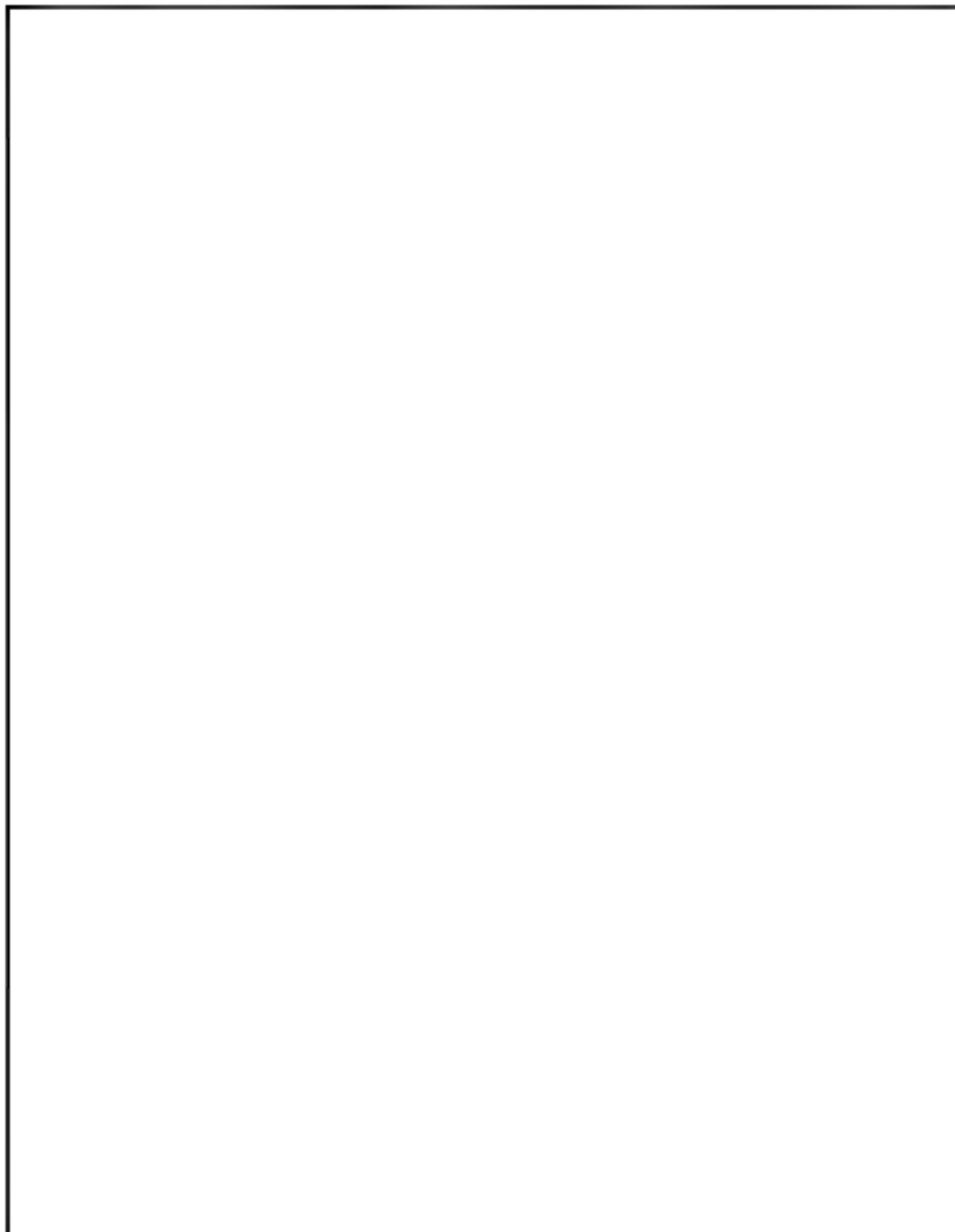
نتيجة هذه العوامل الداخلية والخارجية، تعرضت جيوش المنطقة لهيكله وبناء يخضعان لشكل آلية الوقاية من الانقلاب المعتمدة، وهي الآلية التي أقررت وضعيات خاصة بكل جيش. ومن ثم تحكمت هذه الوضعيات في ردات فعل الجيوش العربية أمام ثورات الربيع العربي.

كانت ردة فعل الجيش التونسي محايدة، وكانت ردة فعل الجيش المصري متدحرجة من مساندة المتظاهرين، إلى مساندة النظام. أما ردة فعل الجيش السوري، فكانت مساندة للنظام، وتميزت ردة فعل الجيشين اليمني والليبي بالتردد والانقسام بين مساندة النظام ومساندة المتظاهرين. هذا مع العلم أن شكل ردة فعل العسكر هي التي حددت بشكل أساس مآلات هذه الثورات ومخرجاتها، والتي لا تزال الدول المعنية بها تعانيها إلى اليوم؛ إذ لا يحفى على أحد أن دول الربيع العربي كلها تعاني حالة لاستقرار سياسي وأمني متفاوتة الدرجات، حتى أصبح من المبرر التساؤل عما إذا كانت الانتفاضات العربية، ثورات فعلية أم مجرد انقلابات مقنعة، فتفاوتت النتائج من ديمومة حالة العوضى الشاملة المرتبطة بردة الفعل الانقسامية أو المساندة للنظام (سورية وليبيا واليمن)، إلى حالة الفوضى النسبية المرتبطة بردة الفعل الحيادية، أو ردة الفعل المتدحرجة (تونس ومصر). كما نتج من موقف الجيش فشل الدولة في أسوأ الحالات (ليبيا وسورية واليمن)، ومقاومة فشل الدولة مع احتمالات تقترب من النجاح بالنسبة إلى حالة تونس، واحتمالات تقترب من الفشل بالنسبة إلى حالة مصر.

من هنا، نعتزص انه يمكننا فهم مآلات الثورات العربية، من خلال فهم ردات فعل الحيوش العربية على هذه الثورات، وهي ردات الفعل التي سنفسرها من خلال آلية منع الانقلابات المطقة من الحاكم، والتي ترتبط هي أيضًا بعلاقة الحاكم بالجيش ومصادر بناء الدولة، وبالتركية الاجتماعية والإثنية والطائفية والثقافية للمجتمع، وبالأوضاع الدولية المحيطة. ويمكننا تمثيل شبكة التحليل التي سنقيس، من خلالها، صدق العرقية التي قمنا باعتمادها، وفق الشكل (1-3):

الشكل (1-3)

تفسير ردات فعل الجيوش العربية تجاه ثورات الربيع العربي





ثانيًا: آلية الوقاية من الانقلابات

لاحظنا في ما سبق درجة تعقّد العلاقات العسكرية المدنية، ووقفنا على حقيقة، مفادها أن الحدود الفاصلة بين الحكم العسكري والحكم المدني رقيقة جدًا، إلى درجة أن التحول من نظام حكم إلى آخر يمكن أن يحدث في أي لحظة، وبأي شكل من الأشكال. تعاني دول العالم الثالث صعوبة إجراء تحول ديمقراطي يضمن الوصول إلى السلطة،

والتناوب عليها، وفق آليات محددة وواضحة ومعترف بها من الجميع. لذلك، أصبحت ميزة العلاقات العسكرية - المدنية، في دول العالم الثالث عمومًا والعالم العربي خصوصًا، هي الانقلابات والانقلابات المضادة. وأصبح التآمر على الحاكم من معارضييه، أو من أقرب الناس إليه، تقليدًا مميزًا للدول المتخلفة، حتى يمكن القول إن كلام مكيا فيلي يبقى، على الرغم من قدمه، صالحًا لتوصيف أوصاع حكام العالم الثالث اليوم، وذلك حين يقول «يفقد الملوك أرواحهم بالمؤامرة، أكثر مما يفقدونها بالحرب المفتوحة»⁽⁷⁰⁾.

يميز جيلبير الأشقر بين أربعة أشكال من الانقلابات:

«1- الانقلاب الثوري: ويهدف إلى تغيير راديكالي لسياسة النظام، ويسمى الانقلابيون فعلهم هذا 'ثورات'. الأمثلة يمكن استقاؤها من الانقلاب صد الملكية في مصر في عام 1952 وتونس في عام 1957 والعراق في عام 1958 واليمن في عام 1962 وليبيا في عام 1969 والسودان في عام 1969 وعام 1989»⁽⁷¹⁾، وهو الشكل الأكثر وضوحًا للانقلابات العسكرية؛ إذ إنه يعلن نفسه من البداية باعتباره فعلًا ثوريًا يقصد من ورائه تغيير الوضع القائم تغييرًا شاملاً، يتم في هذه الحالة إسقاط النظام القائم ومؤسساته ورموزه وسحب، وبشرع في العمل على وضع البدائل الجديدة، ويستهدف في الأساس تغييرًا راديكاليًا للأنظمة، كالتحول من الملكية إلى الجمهورية، أو تغييرًا راديكاليًا للأيديولوجيا، كالتحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية.

«2- الانقلابات الإصلاحية: وهي تهدف إلى تصحيح نظام قائم وتعديله، من دون قطيعة راديكالية مع النظام السابق. تضم الأمثلة انقلاب هواري بومدين في عام 1965 في الجزائر، وأحمد حسن البكر وصادق حسين في عام 1968 في العراق، وحافظ الأسد في عام 1970 في سورية وريث العائدين بن علي في عام 1987 في تونس. وكذلك ثورات القصور في دول الخليج»⁽⁷²⁾. إنها انقلابات أقل وضوحًا، حيث لا يكاد نلاحظ الهدف من التغيير، لأنه يركز على النخب والأشخاص، ولا يستهدف تغييرات راديكالية، بل يستهدف تصحيحًا جزئيًا للنظام القائم.

«3- الانقلابات المحافظة: تأتي ردة فعل على عدم الاستقرار السياسي، وتهدف إلى المحافظة على النظام القائم، أو إلى إعادة النظام في أثناء الفترات الانتقالية، مثل الانقلابات المتكررة في موريتانيا»⁽⁷³⁾. يصاحب هذا النوع من الانقلابات حالة الأزمات، وعادة ما يقدم حلولًا سريعة لها، فالهدف الأساس هو المحافظة على النظام

القائم، أو وصع حد لحالة الفوضى التي يمكن أن تهدد النظام، وهو أيضًا انقلاب غير واضح وغير معلن، وربما لا ينتبه إليه المجتمع إلا بعد فوات الأوان.

«4- الانقلابات الرجعية: وتهدف إلى قمع الحركات الراديكالية التي وصلت إلى الحكم، أو تحاول الوصول إليه، مثل انقلاب الجزائر في عام 1992»⁽⁷⁴⁾. وهي الحركات التي يجري من خلالها الالتفاف على مطالب التعبير الراديكالي؛ فعوض إذعان النظام لهذه المطالب، يعدُّ انقلابًا داخليًا يمنع تحقق مطالب التعبير الراديكالي، ويعطي العسكر فرصة ترميم النظام واستعادته، وتقادي خسارته وصياغه بشكل نهائي.

أصبح الانقلاب على الحكام في العالم الثالث، بعد الحرب العالمية الثانية، الآلية الحصرية للتداول على السلطة، حيث تعطينا الإحصاءات أرقامًا مثيرة، تشير إلى حدوث «ما يقارب 357 محاولة انقلابية في العالم الثالث بين عامي 1945 و1985، أي إن حوالي نصف عدد الدول الدامية جزَّب الانقلاب العسكري خلال هذه الفترة، في الأقل مرة واحدة، ومن بين هذه المحاولات، 183 انقلابًا ومحاولة انقلاب ناجح، أي ما يعادل 51 في المئة. لا يبدو أن هذه الظاهرة اقتربت من نهايتها، إذ نلاحظ حدوث 75 انقلابًا ومحاولة انقلاب بين عامي 1986 و2000»⁽⁷⁵⁾. تؤثر هذه الأرقام إلى وصع حرج وقلق في دول العالم الثالث؛ فبمثل هذا المستوى من الانقلابات والمحاولات الانقلابية، تصبح الثقة معدومة في الاتحامين، حيث لا يثق المدني في العسكري، لأنه يظهر له خطرًا محققًا بوجوده وسلطته. ولا يثق العسكري في المدني، لأنه يظهر له تهديدًا كما أن لمكاسبه وامتيازاته المادية والمعنوية.

يمثل العالم العربي حالة نموذجية لعدم الثقة السائدة بين الحاكم من جهة والنخب السياسية الأخرى والنخب العسكرية من جهة ثانية؛ فبعد الحرب العالمية الثانية، وبعد تشكُّل الدول الوطنية في للعالم العربي واستقلالها، عرفت الدول الناشئة كلها انقلابًا أو محاولة انقلاب واحدة في الأقل. بل إن بعض الدول تحوَّل فيها الانقلاب إلى القاعدة، بينما أصبح الاستقرار والتداول السلمي على السلطة هو الاستثناء.

أمام هذا الوضع، ولتسيير حالة الحوف والخوف المتبادل، التي أصبحت سائدة بين النخب السياسية والنخب العسكرية، امتدَّى الحكام الدين وصلوا إلى السلطة بواسطة الانقلاب وقوة السلاح، إلى آلية تمنع تكرار ما حدث لهم، حيث تم العمل على تنفيذ مجموعة من التكتيكات والاستراتيجيات في تسيير العلاقات العسكرية - المدنية، بحيث

يصبح من المستحيل التفكير في القيام بعمل انقلابي ضد الحاكم. هذه التكتيكات وهذه الاستراتيجيات، هي ما سسميها آلية منع أو آلية وقاية من الانقلابات.

يتكلم كل من ارون بلكين وايفان شوفر على آلية منع الانقلاب من دون الإشارة إليها بالاسم، حيث يقولان: «عندما يكون تهديد الانقلاب كبيراً، نتوقع أن يقوم معظم الرعماء بضغط التوارس مع عسكريهم، وهذا من خلال تقسيم قواتهم العسكرية إلى تنظيمات متنافسة، تقوم بمراقبة بعضها بعضاً والموارنة بينها، وهذا ما يمكن ان يشمل تشكيل فروع عسكرية إضافية وأحياناً مكررة، تمنع أيّاً من الفروع الأخرى من السيطرة المطلقة على مصادر السلطة، كتكوين قوات حرس السواحل، إضافة إلى القوات البحرية، وقوات خاصة شبه عسكرية من القوات الأكثر ولاء، كل هذا من أجل غاية وحيدة هي حماية الزعيم»⁽⁷⁶⁾. يتضح لنا من البداية أن أساس هذه الآلية هو إنشاء حالة من الشك بين مختلف وحدات القوات المسلحة، بعرض السيطرة على تدفق المعلومات داخل الوحدات وفي ما بينها؛ فالشك يمنع الأفراد والصباط من الحركة، ولا سيما إذا علم أن، إضافة إلى الشك، يدفع الحاكم الشمولي الوحدات العسكرية إلى التنافس على تقديم فروص الولاء والطاعة للحاكم، الأمر الذي يعزز أرباحته وفي الوقت نفسه يرفع من مستويات الشك والحدرد داخل الوحدات العسكرية المختلفة.

أما عند جيمس كوينليفان، فإن طرح فكرة آلية الوقاية من الانقلاب يصير أكثر وضوحاً ودقة، خصوصاً أنه اهتم اهتماماً مباشراً بالحالة العربية الإسلامية؛ فالمحيط العربي عُرف، منذ سقوط الخلافة الإسلامية، بكثرة الصراعات التراحيدية بين مختلف مكونات الأجهزة القوية في الدولة، من أجل الوصول إلى السلطة أو الحفاظ عليها، حيث «يوفر الشرق الأوسط أرضية خصبة للانقلابات، فبين اذار/مارس 1949 (تاريخ أول انقلاب بعد الحرب العالمية الثانية) ونهاية عام 1980، وقعت 55 محاولة انقلاب في الدول العربية، نصفها كان ناجحاً. وكان لوقوعها أسباب عدة، منها الصراعات على السلطة بين الجماعات المختلفة في سلك الضباط»⁽⁷⁷⁾. أحدث هذا الوضع حالة من القوبيا؛ إذ أصبح الحاكم غير مطمئن على سلامته الجسدية وعلى كرسي السلطة. ثم عملت الأنظمة العربية على تنفيذ استراتيجيا تسمح بتقييد سلطة الجيش، فلا يكون وجوده مصدر تهديد للحاكم؛ اد «تعلم أولئك الذين وصلوا إلى السلطة من طريق الانقلاب، كيف ينفذون الإجراءات التي تمنع تكرار الانقلابات، فإذا كان جوهر الانقلاب هو الاستيلاء على السلطة من مجموعة صغيرة من الأفراد من

داخل أجهزة الدولة، فإن جوهر آلية الوقاية من الانقلابات هو إقامة الننى التي تقلل احتمالية استغلال المجموعات الصغيرة للنظام القائم من أجل تحقيق الانقلاب، ومنه «أعزف [الكاتب هنا كوينليفان] آلية الوقاية من الانقلاب على أنها مجموعة من الإجراءات يتخذها النظام للوقاية من الانقلابات العسكرية»⁽⁷⁸⁾. بالفعل، كانت التجارب التي مر فيها الحكام العرب في الخمسينيات والستينيات، والسبعينيات، تجارب ملهمة لهؤلاء الحكام، جعلتهم يفكرون بجدية في تعادي ما سبق أن قاموا به من قبل؛ فكانت آلية الوقاية من الانقلاب استراتيجيا مثمرة أدت إلى استقرار أنظمة الدول العربية عقودا عدة.

يمير مايكل ماكارايس ثلاثة أشكال من آليات الوقاية من الانقلاب:

«أولاً، تنشئ الأنظمة الحاكمة مؤسسات عسكرية موازية، وكثيراً من الأجهزة الأمنية، من أجل حماية نفسها من تدخل المؤسسات العسكرية»⁽⁷⁹⁾، بحيث تعطى هذه القوات الموازية، وشبه العسكرية، استقلالية تامة عن الجيش، وفي الوقت نفسه، يتم ربطها بشكل مباشر مع مكتب الزعيم. ويبقى الهدف الأساس لهذه القوى هو حماية النظام، ومنع أي محاولة للانقلاب عليه. يؤدي فصل هذه القوات عن الجيش إلى حدوث نوع من التوازن في القوة، وفي الرعب، بين الجيش وهذه القوات شبه العسكرية الموازية، الأمر الذي يجعل التفكير في أي عملية انقلابية مبنياً على حساب المكاسب والخسائر؛ ففي غياب المعلومات الدقيقة لدى القوات النظامية، مقارنة بالقوات الموازية والمالية للحاكم، تميل عملية الحساب دائماً إلى تفصيل عدم التفكير في الانقلاب أصلاً، «إضافة إلى ما سبق، تقوم قوات الأمن والشرطة والاستخبارات بالمراقبة وبالعمليات الاستخباراتية التي تسمح لها بمراقبة الجيش وكشف المحاولات الانقلابية قبل حدوثها»⁽⁸⁰⁾. أدى هذا الوضع إلى نسج أسطورة «الزعيم الذي يعرف كل شيء عن أي شيء»، وهي أسطورة تعطي الحاكم الأسبقية والأفضلية على جميع أجهزة الدولة الأخرى، بما فيها أجهزة الاستخبارات، نظراً إلى مركزية تدفق المعلومة التي أصبحت تحت سلطة الحاكم. من هذا المنطلق، يصح التفكير في الانقلاب مغامرة لا يجرؤ عليها إلا المتهورون.

«ثانياً، يحافظ النظام الحاكم على ولاء القوات العسكرية والأمنية من خلال تقوية مستويات الإنفاق فيها، وتوزيع مكاسب مادية سخية على أفراد القوات المسلحة»⁽⁸¹⁾. إنه شكل من أشكال الرشوة السياسية السائدة في العالم العربي، حيث يتعمد النظام

الحاكم تقديم حوافز مادية ومعنوية سخية للقوات المسلحة عموماً، وللضباط خصوصاً. وبهذه الاستراتيجية يضمن تجديد أفراد هذه القوات، لأن هذه الحوافز ستحوّل القوات المسلحة إلى مصدر للارتقاء الاجتماعي. بالتالي، يكثر الطلب على الاضرار في صفوفها، ما يعطي النظام إمكانية اختيار الأفراد الأكثر انسجاماً مع آلية الوقاية من الانقلاب المعتمدة. ومن جهة ثانية، يؤدي سحاء المدني مع العسكري، إلى تحقيق العسكر مركزاً اجتماعياً مرموقاً، مقارنة ببقية القطاعات ومجالات النشاط، فتؤدي هذه الاستراتيجية إلى «ربط مصير القوات الأمنية بمصير النظام الحاكم. فضمان المزايا الاقتصادية لمصلحة القوات الأمنية هو بمنزلة ضمان حصة لها من نتائج استمرار النظام في الحكم»⁽⁸²⁾، الأمر الذي يجعل التفكير في الانقلاب أمراً غير عقلائي في الأساس.

«ثالثاً وأخيراً، يستثمر الرعماء السياسيون في شبكة القرابات والهويات الطائفية والإثنية، في أثناء بناء القوات المسلحة؛ إذ يعطى بعض الأهمية للطائفة العفدية التي ترتبط بشكل مباشر مع الرعيم السياسي، يتم توظيف الطائفة والإثنية والقرابات الدموية في تسيير عديد الجيش وتراثيته، من أجل ضمان الولاء المطلق. تعيش الأقليات في المجتمعات العربية تحت ضغط أسطورة التهديد الذي تمثله الأغلبية على وجود الإثنية أو الطائفة الدينية أو الأقلية الجهوية. لذلك، يصبح الحاكم - إذا ما كان مرتبطاً بهذه الأقليات - كـ «المهدي المنتظر». وتتفاقم رغبة الحاكم في حماية حكمه وتوطيده، مع رغبة الإثنية أو الطائفة أو الجهة في حماية وجودها ودفع تهديد الأغلبية.

نتيجة هذه التقاطعات، ينشأ شكل من التواطؤ بين الحاكم والأقلية الإثنية أو الطائفية أو الجهوية، وهذا بدوره يحد كثيراً من إمكانيات التفكير في الانقلاب العسكري. يرى كويليفان أن «على الرغم من كون كل آلية وقاية حالة خاصة قائمة بذاتها، فإن جلّها يلتقي في بعض الخصائص المشتركة:

- الاستغلال الفعلي للولاء العائلي والإثني والطائفي الديني، خصوصاً في ما يتعلق بالمناصب القيادية، وفي إنشاء الوحدات الموازية للجيش.

- تشكيل قوات مسلحة (ميليشيات) موازية للقوات النظامية.

تطوير وكالات الأمن الداخلي المتعددة والمنفصلة، وبصلاحيات متداخلة، ما يسمح بقياس تطور مستوى ولاء وحدات الجيش، مع تأمين قنوات اتصال مباشرة مع القائد،

لكل وكالة من الوكالات.

- تشجيع المهارة في الجيش النظمي.

الدفع بسحاء للعاملين على هذه الإجراءات من أجل صمان صوب النظام الحكم»⁽⁸³⁾. تتنايل ردات فعل الحكام تحاه القوبيا العسكرية، بحسب التركيبات الإثنية والطائفة والسياسية للدولة وللمجتمع؛ فهناك من يعمد إلى تقوية الجيش، وكسبه لمصلحته باعتبار ه حليفًا قويًا لمشروع الحكم. وهناك من يعمل على إصعاف الجيش، باعتباره عدوًا يهدده؛ «فالحاكم الذي عادة ما ياتي من الجيش أو من قوة أمنية أخرى، يعمل على تقسيم القوات المسلحة إلى وحدات منفصلة، بحيث تتنافس على مصدر السلطة وعلى التأثير، عادة ما يتولى الحاكم أو أحد أفراد أسرته المقربين قيادة هذه الوحدات العسكرية»⁽⁸⁴⁾، وبين التقوية والإضعاف تتدرج الاستراتيجيات باتجاه القطبين، وبناء على هذه الاستراتيجيات، يمكن فهم العلاقات العسكرية - المدنية بوصفها ردة فعل على هذه الآلية.

في حانة الأحد بأموذج القوبيا العسكرية (M.J tarophobia)، يعتمد الحاكم العربي آلية مؤسسة على تهميش الجيش، وتجريده من كل سلطة يمكنها أن تؤثر في مستقبل الحاكم؛ أي استراتيجية تقوية الحاكم وتهميش الجيش، فيحصع الولاء للسلطة لمطلق قوة الحاكم أو ضعفه. يمثل هذا الأنموذج دولة ليبيا؛ فطروف وصول القذافي إلى الحكم والتركيبية القبلية للمجتمع الليبي، دفعت النظام الحاكم إلى الاستعاضة عن التركيز على الجيش بالتركيز على الميليشيات وتسليح الشعب وتدريبه، الأمر الذي أدى إلى تحول الجيش إلى مؤسسة تعيش على هامش الدولة، تحرس العتاد الحربي ولا تستعمله. من هنا، كانت ردة فعل هذا الجيش، أمام الثورة، انهيار السريع والكلي، للجيش وللولة وللمجتمع. وأخيرًا السقوط في أتون الحرب الأهلية المدمرة.

عند اعتماد أنموذج تبعية الجيش للحاكم، يسعى الحاكم إلى تقوية الجيش بالصيغة التي تحدم سلطته، أي استراتيجية الاندماج شبه الكلي بين الحاكم والجيش، بالتالي يحضع الولاء للسلطة لمطلق الطائفة الحكمة. ويمثل هذا الأنموذج الحالتين السورية واليمنية، حيث الأوضاع التاريخية، من انقلابات وحرب أهلية، والأحوال الاجتماعية، من تنوع وتعذد طائفي إثني، إلى برور جيش مدمج في الدولة وأجهرتها. ومع الثورة، حدث انهيار لوحدة الدولة من دون انهيار كلي للنظام، كما تشكل أكثر من جيش، ونشبت الحرب الأهلية.

أما في حالة اعتماد نموذج تبعية الحاكم للجيش، فإن الجيش يتحول إلى مؤسسة حاكمة من خلف الستار، في ما يُعرف باستراتيجية الحكومة الموازية والدولة العميقة، فيخضع حينئذٍ الولاء للسلطة لمنطق الجيش هذا النموذج تمثله الحالة المصرية، حيث كان للأوصاع السياسي والاقتصادي والثقافي السائدة، منذ الحماية ومروراً بانقلاب الضباط الأحرار والحروب العربية - الصهيونية، الدور الأساس في تشكيل المؤسسة العسكرية، فأصبح الجيش مؤسسة موازية للدولة، وجعله الوضع هذا يتصرف بشكل مستقل تماماً عن تصرفات الدولة، حيث اعتمد استراتيجية الانسحاب من أجل الهجوم. وكانت النتيجة التضحية بالنظام من أجل إعادة بناء دولة الجيش وترميمها؛ فقبول الجيش سقوط جمهورية مبارك وقيام جمهورية الإحواز، لم يكن إلا استراتيجية لإعادة بعث جمهورية الجيش وترميمها.

في النهاية، يؤدي اعتماد النموذج الحداثي للدولة إلى تحييد الجيش، لمصلحة تقوية الشرطة وسلطة الحاكم، أي اعتماد استراتيجية الجيش الاحترافي، حيث يحصع الولاء للسلطة لمنطق الربح والحسارة. والنموذج هذا تمثله دولة تونس؛ فالظروف التاريخية المصاحبة لنشوء دولة تونس، واعتماد التونسيين مشروعاً حداثياً يستمد مقوماته من النموذج الغربي، أنتجت جيشاً محترفاً تعامل مع الثورة بطريقة سمحت بحدوث تحول سلس ومن دون وقوع حمائر مادية أو بشرية كبيرة. ومع أن ذلك أدى إلى سقوط النظام، فإن الدولة ظلت قائمة وتتصرف باستقلالية.

كانت آلية الوقاية من الانقلاب باجحة ومفيدة بنسبة كبيرة؛ إذ مكنت جميع الدول التي استعملتها من توفير الاستقرار السياسي أكثر من أربعين عاماً، وقللت بشكل كبير من الانقلابات والمحاولات الانفلائية. يقول مكارا: «قضت آلية الوقاية من الانقلاب على الانقلابات في الشرق الأوسط منذ عام 1980، وهذا إنجاز رائع بالنظر إلى التاريخ المضطرب للعلاقات العسكرية - المدنية في المنطقة»⁽⁸⁵⁾. وباستثناء بعض الحالات النادرة، كموريتانيا والسودان، وبعض انقلابات القصور التي تقع في ممالك على شكل تعديلات في توزيع السلطة بين أفراد العائلة المالكة، يمكننا الجزم بأن هذه الآلية أثبتت فعاليتها في ما تبقى من الدول، وأصبح معدل البقاء في السلطة، لحكام الدول العربية، هو الأطول، خصوصاً عند مقارنته بالديمقراطيات الحديثة.

نجحت هذه الآلية إذاً في تقوية سلطة الحاكم، وفي ضمان استقرار الحكم بين يديه فترات طويلة. إلا أنها أدت إلى إضعاف القوات المسلحة العربية بشكل رهيب؛ فعندما

نطلع على تفاصيل هذه الآليات، بالنسبة إلى كل دولة عربية، يسهل فهم واستيعابها للابتكاسات التي مُيت بها الجيوش العربية خلال الستينيات والسبعينيات، وحتى الثمانينيات، وهذا ما يؤكد كَلَّ من أولريش بيلستر (L. Pister) وتوبياس بوهملت (T. Böhmert) ؛ إذ إيهما يبينان بوضوح أن آلية منع الانقلاب، وبقدر ما تمركز وتقوي سلطة القائد، بقدر ما تصعب فعالية الجيوش، وتنطلي سرعة ردة الفعل لدى الوحدات العملية، بل يمكن أن تؤدي أيضًا إلى ضعف الوحدات والأفراد أو إلى عجزهم عن استعمال الأسلحة التي يحصلون عليها.

حوّلت هذه الآلية الجيوش العربية إلى جيوش ضعيفة وغير قادرة على المبادرة والتحرك بسرعة. وفي هذا الصدد، يرى عدد من المهتمين بالعلاقات العسكرية - المدنية، والصراعات الدولية، أنه «غالبًا ما تعيق آلية الوقاية من الانقلاب قدرات الجيود؛ أو لا لأن عندما تستثمر الدولة كثيرًا من الموارد في آلية الوقاية من الانقلاب، فإنها تقوم بذلك، وبالضرورة على حساب المؤسسة العسكرية النظامية. وثانيًا لأنها تضطر بذلك إلى تحفيص أعداد الأفراد وتسلّيحهم، أو حتى التأثير في نوعية الجيود، نتيجة ضعف التدريب والتحييد. إضافة إلى الترقّيات غير المؤسسة على الكفاءة»⁽⁸⁶⁾. بناء عليه، يمكننا الجرم بأن بقدر ما كانت آلية منع الانقلاب مفيدة للأنظمة الحاكمة، كانت صارة بالقوات المسلحة، حيث أضعفتها، وأضعفت قدراتها على الاستجابة السريعة، حتى في أداء مهماتها الأصلية، أي تسيير الحروب والفوز بها.

ثالثًا: بين الثورة والانقلاب

لا يمكننا المرور إلى مرحلة تشريح علاقة العسكري بالمدني خلال مرحلة التحول، التي صاحبت ثورات الربيع العربي وأعقبها، من دون المرور بمفهوم الثورة وضبط علاقته بالانقلاب، وذلك لجعل الرؤية أوضح عند عرض المعطيات المتعلقة بالعلاقات العسكرية - المدنية وتحليلها؛ فالاعتماد على ما سبق، تمثّل حالات الثورات العربية، وحالات التحولات المصاحبة لها أو التي أعقبها، أحسن طرف يمكننا من خلاله فهم هذه العلاقات، ولا سيما أن الجيوش تعمل، كما يتنا سائقًا، على التكيف بسرعة مع وصعوبات التحول التي تميز المجتمعات، حتى تحافظ على تنظيمها ومركزها. انطلاقًا من عملية التكيف التي يمارسها الجيش للاستخدام مع التحولات أو لتجاورها،

ستتوقف بعض الشيء عند مسألة الثورة، لمعرفة ما إذا عرف العالم العربي «ثورة» بالفعل، وهل تركت الجيوش العربية هذه الثورات تأخذ مسارها الطبيعي، أم إن بعض أجيحة الأنظمة العربية استثمر في هذه الثورات، ليتجاوز آلية منع الانقلاب ويحدث تغييراً طال انتظاره، أم إن آلية منع الانقلاب كانت قوية جداً، إلى درجة أنها أدخلت البلدان العربية في دوامة من انعدام الأمن والاستقرار.

لعل هذه الإشكالات كلها بشكل عفائي، سنعمد أولاً إلى وضع تعريف للثورة، يحمل في الأقل الحد الأدنى من التوافق، ثم نقوم بتطبيق معايير هذا التعريف على الثورات العربية، لنصل إلى وضع مقترحات للإجابة عن التساؤلات السابقة.

يبقى الهدف من هذا الجهد كله هو تهيئة المجال لفهم العلاقات العسكرية - المدنية، قبل هذه الثورات وخلالها، ثم بعدها؛ ذلك أن العلاقات العسكرية - المدنية في العالم العربي، كانت العامل الأساس في تحديد مقدمات اندلاع هذه الثورات، بالشكل عيه الذي كانت فيه العامل الأساس في تحديد مآلاتها ونهاياتها.

تحدث «عن الثورة عندما تتحدى مجموعة من المتمردين، بشكل غير قانوني و/أو بالقوة، النخب الحكومية، بخصوص شغل الأنوار في بنى السلطة السياسية. وتحدث الثورة الناجحة عندما يكون المتمرّدون، وكنتيجة لتحدي النخب الحاكمة، قادرين على تولي أدوار مهمة في بنى السلطات السياسية. فإذا كان المتمرّدون يستهدفون إحداث تغيير سياسي واجتماعي مهم، فإنهم مطالبون أولاً بشغل هذه الأدوار في النسي السياسية»⁽⁸⁷⁾.

بهذا المعنى، لا يمكننا الحديث عن الثورة إلا إذا وجد: 1- متمرّدون، أي مجموعة أشخاص يرفضون الوضع القائم، ويقررون التوقف عن الانصياع للقوانين التي حددها النظام الحاكم، خصوصاً تلك المتعلقة بأساليب توزيع السلطات في الدولة؛ 2- تحدّ للنخب الحاكمة، ويعني التحدي هنا مواجهة النخب الحاكمة بأفعال تضغط في اتجاه فرض التغيير على النخب الحاكمة، علماً أن هذا التحدي يمكن أن يمس تغيير هذه النخب في حد ذاتها؛ 3- أن يكون التحدي غير قانوني و/أو بالقوة، أي أن يتحدى المتمرّدون القانون الذي وضعته النخب الحاكمة، فيلجأ المتمرّدون إلى استعمال الضغط من طريق تجنيد الجماهير، أو باستعمال القوة والعنف؛ 4- أن ينتج من هذا التحدي شغل المتمردين مناصب مهمة في مؤسسات السلطة السياسية. يمثل هذا المعيار المقياس الذي يعرف من خلاله أن الثورة نجحت في تحقيق أهدافها؛ فمن دون

إعادة النظر في أساليب توزيع السلطة، واستعادة المتمردين من التوزيع الجديد، كسيجة أملتها الثورة، فإننا سنكون أمام ثورة فاشلة؛ 5- حدوث تغيير سياسي واجتماعي مهم، وهو غاية الثورة النهائية. أي أن يحدث تحول ذو معنى بالنسبة إلى المتمردين وأنصارهم، وبالنسبة إلى النخب التي كانت تحكم؛ فالثورة الناجحة هي التي تتمكن من نقل المجتمع من أوضاع سياسي واجتماعي واقتصادي معينة، إلى وضع جديد ومختلف وتصحيحي للمسايق.

من الضروري عند دراسة الثورات الشعبية «التميز بين التمرد العسكري (Putsch) والانقلاب والثورة»⁽⁸⁸⁾. فعلى الرغم من الاختلافات الجوهرية بين السيرورات الثلاث، فإن الأوضاع المحيطة بها تسهل، بشكل كبير، التحول من سيرورة إلى أخرى؛ إذ يمكن أن يصبح التمرد العسكري ثورة، كما يمكن أن تتحول الثورة إلى انقلاب في أي لحظة. يشير التمرد العسكري إلى تغيير جذري عفيف تُعبر من خلاله النخب الحاكمة وتُطرد، وربما حتى تقمعها نخب أخرى تمكنت من السيطرة على الدولة بقوة السلاح والعنف. أما الانقلاب العسكري فيأخذ أشكالاً أكثر تنوعاً وتعقيداً تبدأ من الابتزاز، وإرغام النخب الحاكمة على التنحي من طريق التهديد ومن غير عنف مادي، وتصل إلى غاية التمرد العسكري، وقلب النظام بالاستعمال الفعلي للقوة المسلحة، وحتى العنف. في كلتا الحالتين، تكون المشاركة الشعبية ضعيفة، ويبدو المجتمع مجرد متفرج سلبي، ربما يكون له موقف مما يجري، لكنه لا يشارك فيه إيجاباً أو سلباً، إلا أن سلبيته يمكن أن تُقرأ علامة رصا تشجع الفاعلين على المضي في مشروعهم.

تعتبر الثورة، من جهتها، عن مسار أكثر تعقيداً؛ حيث يعرفها تشارلز تيلي (C. Tilly) بأنها «تحويل إكراهي للسلطة داخل الدولة، بحيث يكون هناك، في الأقل، مجموعتان مختلفتان تطلبان السيطرة على الدولة، وعلى أجزاء مهمة من الشعب المنتمي إلى تلك الدولة، بحيث يعني نجاح الثورة السيطرة على السلطة في الدولة»⁽⁸⁹⁾. فإذا، إن أهم ما يميز الثورة من السيروريتين السابقتين هو استقلال النخب التي تعتمد عليها استقلالاً تاماً عن النخب السياسية الحاكمة. بالتالي، تمثل الثورة تحدياً خارجياً وخارجاً عن القانون للنظام القائم، يكون فيه الدعم الشعبي ضرورياً لإنجاح الثورة؛ فالثوار يسعون إلى تعويض ضعف مواقفهم السياسي والقانوني والعسكري، بحشد الدعم الشعبي، للضغط على النظام القائم. في هذا الوضع، لا يمكن الحديث عن نجاح الثورة إلا بعد تمكن

إعادة النظر في أساليب توزيع السلطة، واستعادة المتمردين من التوزيع الجديد، كنتيجة أملتها الثورة، فإننا سنكون أمام ثورة فاشلة؛ 5- حدوث تغيير سياسي واجتماعي مهم، وهو غاية الثورة البهائية. أي أن يحدث تحول ذو معنى بالنسبة إلى المتمردين وأنصارهم، وبالنسبة إلى الحزب التي كانت تحكم؛ فالثورة الناجحة هي التي تتمكن من نقل المجتمع من أوضاع سياسي واجتماعي واقتصادي معينة، إلى وضع جديد ومختلف وتصحيحي للسابق.

من الضروري عند دراسة الثورات الشعبية «التمبير بين التمرد العسكري (Putsch) والانقلاب والثورة»⁽⁸⁸⁾. فعلى الرغم من الاختلافات الجوهرية بين السيرورات الثلاث، فإن الأوضاع المحيطة بها تسهل، بشكل كبير، التحول من سيرورة إلى أخرى؛ إذ يمكن أن يصبح التمرد العسكري ثورة، كما يمكن أن تتحول الثورة إلى انقلاب في أي لحظة. يشير التمرد العسكري إلى تغيير جذري عنيف تُعبر من خلاله الحزب الحاكمة وتُطرد، وربما حتى تقمعها بذب أخرى تمكنت من السيطرة على الدولة بقوة السلاح والعنف. أما الانقلاب العسكري فيأخذ أشكالاً أكثر تنوعاً وتعقيداً تبدأ من الابتزاز، وإرغام الحزب الحاكمة على التناحي من طريق التهديد ومن غير عنف مادي، وتصل إلى غاية التمرد العسكري، وقلب النظام بالاستعمال الفعلي للقوة المسلحة، وحتى العنف. في كلتا الحالتين، تكون المشاركة الشعبية ضعيفة، ويبدو المجتمع مجرد متفرج سلبي، ربما يكون له موقف مما يجري، لكنه لا يشارك فيه إيجاباً أو سلباً، إلا أن سلبيته يمكن أن تُقرأ علامة رصا تشجع الفاعلين على المضي في مشروعهم.

تعتبر الثورة، من جهتها، عن مسار أكثر تعقيداً؛ حيث يعرفها تشارلز تيلي (C. Tilly) بأنها «تحويل إكراهي للسلطة داخل الدولة، بحيث يكون هناك، في الأقل، مجموعتان مختلفتان تطلبان السيطرة على الدولة، وعلى أجزاء مهمة من الشعب المنتمي إلى تلك الدولة، بحيث يعني نجاح الثورة السيطرة على السلطة في الدولة»⁽⁸⁹⁾. فإذاً، إن أهم ما يميز الثورة من السيروريتين السابقتين هو استقلال الحزب التي تعتمد عليها استقلالاً تاماً عن النخب السياسية الحاكمة. بالتالي، تمثل الثورة تحدياً خارجياً وخارجاً عن القانون للنظام القائم، يكون فيه الدعم الشعبي ضرورياً لإنجاح الثورة؛ فالثوار يسعون إلى تعويض ضعف مواقفهم السياسي والقانوني والعسكري، بحشد الدعم الشعبي، للضغط على النظام القائم. في هذا الوضع، لا يمكن الحديث عن نجاح الثورة إلا بعد تمكن

الثوار من تعبير موازين القوة، عبر التحكم في جميع مصادر السلطة، والاستجابة للتطلعات الشعبية في التعبير.

عندما تنجح الثورة في إحداث تغييرات بنيوية في أشكال توزيع السلطة، وتضمن مشاركة شعبية قوية، يمكن حينئذ أن نكون أمام أمرين: الأول هو ما يشبه الانقلاب الثوري على النظام القائم، ويبقى التعبير في هذا النوع من الثورة تغييراً سطحياً يحافظ على الشكل العام للدولة، ويكتفي ببعض التغييرات على مستوى القوانين، خصوصاً الدستور، لإعادة ضبط أشكال توزيع السلطة داخل الدولة، والاستجابة لمطالب الانصار، علماً أن المشاركة الشعبية، في هذا الشكل من الثورة، تقتصر على مجموعة الأنصار، ولا تعم الشعب كله. والأمر الثاني هو أن في مقابل هذا الشكل من الثورة، نجد الثورة الاجتماعية والسياسية، التي تنتهي بتغيير جذري يستند إلى مشاركة شعبية قوية وفعالة وضاغطة، بحيث تنتهي الثورة باعتماد نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي مختلف كلياً عن النظام الذي كان سائداً في ما سبق.

في النهاية، يجب التنبيه إلى أن سواء تعلق الأمر بانقلاب ثوري أو بثورة اجتماعية سياسية، فإن النتائج تمثل مرحلة مهمة ومصيرية؛ إذ لا يمكننا الحديث عن ثورة شعبية حقيقية إلا إذا «تحولت نيات المتمردين إلى تعبيرات بنيوية في السلطة»⁽⁹⁰⁾، أي عندما تؤدي الثورة إلى تغيير حقيقي في بنى السلطة وفي الطبقات السياسية التي تتولى مقاليد الحكم.

ربما يكون من المهم جداً التوقف عند مسألة مالات الثورة، وعند اللحظة التي يمكن الحديث فيها عن نجاح الثورة، وعن تمكّنها من إحداث التعبير الذي قامت من أجله. يقول باراني إن «الثورات نادراً ما تنجح؛ فهي لكي تحقق النجاح تحتاج إلى تضافر كثير من القوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المكان الصحيح، وكذلك دعم أكثرية القوات المسلحة لها»⁽⁹¹⁾، من هنا اعتبر أن نجاح الثورات أمر نادر الحدوث، لأن احتمالات توافق القوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، في الوقت الملئم، مع موقف موائم للجيش من الثورة والثوار، تبقى قليلة جداً، ولهذا تصح احتمالات تحول الثورة إلى انقلاب، أو إلى مؤامرة على الثورة نفسها، أمراً وارداً.

من الصعب جداً التمييز بين الثورة والانقلاب، بطراً إلى التداخلات الممكنة بينها، ونظراً إلى امكانيات الاستثمار والمناورة المتاحة لجميع الفاعلين في أثناء الاحتجاجات. بناء عليه، يمكننا الحديث عن المعايير المؤسسة للثورة، والمعايير الناتجة منها؛

فالنسبة إلى المعايير المؤسسة، يمكننا الحديث عن المتمردين المؤطرين من مجتمع مدني قوي ومستقل، وعن تحدي النظام القائم ومطالبته بالرحيل والتغيير الجذري، وعن تجاوز الأطر القانونية والدستورية المحددة لآليات التعبير والتداول على السلطة. أما بشأن المؤشرات الناتجة مما بعد الثورة، فيمكننا الحديث عن تحقيق المتمردين المطالب الشعبية، وإحداث التعبير الجذري المنشود، والذي يكون أول شروطه تهيئة جميع رموز السلطة القائمة وتعييدها، واعتلاء نخب من المتمردين سدة الحكم. يترافق ذلك مع تعبير سياسي واجتماعي واقتصادي جذري، يحدث قطيعة شاملة مع رموز النظام السابق وبحبه وممارساته.

إن تعقد شبكة العلاقات بين الثوار والنخب الحاكمة (السياسية والعسكرية) من جهة، والنخب الحاكمة نفسها، كما داخل النخب الثورية في ما بينها، إضافة إلى ضغط المحيط الدولي، من جهة ثانية، كلها عوامل يمكن أن تحول الثورة التي استوفت معايير البدايات إلى انقلاب يتمرد، بشكل دكي وسلمي ووفقاً لمنطق الثورة، على معايير النهايات. ثم يعيد النخب الحاكمة بشكل أو بآخر إلى مكانها وسلطتها، مع بعض التغييرات الطفيفة لامتصاص ضغط العضب الشعبي.

عندما نعرض هذه المعايير على ما سمي «ثورات الربيع العربي»، فإنه لا يمكننا الحديث عن الثورة في أي من الحالات التي عرفت انتفاضات شعبية؛ فعندما نمعن النظر في الثورات وفي الثورات المضادة لها، ونستحضر صراعات الأجنحة التي تميز كل الأنظمة العربية القائمة وبخبرها الحاكمة، وبالنظر إلى النتائج التي حققتها الثورات العربية، والمستفيدين الفعليين من هذه النتائج، فإننا لا نستبشر حيراً؛ والتناقضات كانت ميزة هذه المرحلة، كتحالف العلمانيين الموقت مع الإسلاميين، ثم انقلاب بعضهم على بعض لاحقاً، علاوة على عوامل أخرى، وهو ما يدفعنا إلى القول، وبلا تردد، إن الثورات العربية استُغلت، فأُخذت وسيلة انقلاب، تجاوز من خلاله بعض أجنحة الأنظمة القائمة آلية الوقاية من الانقلابات، وخولت الثورة بحيث تتخذ شكلاً من أشكال الانقلابات الثورية الإصلاحية.

إن الأجنحة التي سيرت الثورات بهذا الشكل تمكنت من ضرب «سرب من العصافير بحجر واحد»، حيث قام أحد الأجنحة بالانقلاب على باقي الأجنحة، من دون السقوط في محالفة الفوانين والأعراف الوطنية والدولية، والتي يستدعي تجاوزها نشاطاً دبلوماسياً استثنائياً لتبرير التعبير وتمريضه. وفي الوقت نفسه، يكون الجناح الذي

استثمر في الثورة قد لبى طاهرياً مطالب المتمردين بالتغيير، متجاوزاً الضغط الشعبي الذي ولّده الثورة بأقل جهد وحسائر ممكنة، ومن غير تصحيح الحاصنة الشعبية للنخب الحاكمة، أو لجراء منها في الأقل. كما جرى كسر تحدي المتمردين من دون إثارة حقيطة الرأيين العامين الدولي والمحلي، مع تجاوز الزخم الإعلامي المصاحب للثورات. والأهم أخيراً هو أن الأجنحة التي استثمرت في الثورات العربية تمكنت من توجيه الضربة القاضية إلى التيار الإسلامي، إمّا بقمعه، من دون الوقوع تحت طائلة ضغط معايير حقوق الإنسان الدولية، أو عبر إدخاله في حرب استنزاف طويلة الأمد، وتوريطة في الحرب العالمية على الإرهاب وبالوكالة عن القوى الغربية.

تدفعنا التطورات التي عرفت الثورات العربية إلى تعميم هذا التقرير على جميع إسلامي دول ثورات الربيع العربي. والبدائية كانت في مصر، حيث عرف الإسلاميون هناك أقصى درجات الإقصاء والتكيل، وتحولوا بين عشية وضحاها من قمة هرم السلطة، إلى غياهب السجون والمنفى. أمّا في تونس، ونتيجة الضغط المستمر من العلمانيين، ومن قوبيا تكرار تجربة الإسلاميين في مصر، أرغم الإسلاميون على التحلي عن السلطة، على الرغم من تفوقهم الميداني والعدي. بل أنهم أرغموا على التخلي عن إسلاميتهم، فأعلنت حركة النهضة نفسها حركة علمانية، في ما يشبه المحاولة اليائسة لكسب رضا العلمانيين والقوى العربية، إضافة إلى إرغام العلمانيين حركة النهضة على الخروج من عباءة الإخوان المسلمين. أمّا بالنسبة إلى الحالات الثلاث المتبقية: اليمن وسورية وليبيا، فإن حرب الاستنزاف هو التوصيف الملئم لوضعها؛ لأن مهما تكن النتيجة، بعد نهاية الحروب الأهلية القائمة هناك، لن يبقى الإسلاميون كما كانوا قبل الثورات.

تأسيساً على هذه المالات، تكون الثورات العربية قد أوجدت وضعاً يتميز أساساً باستقطاب سني/شيعي، وعربي/عربي، وإسلامي معتدل/إسلامي متطرف وعيف، وإسلامي/مسيحي، وهو استقطاب لا يخدم إلا جهة واحدة ووحيدة في المنطقة، هي العدو الصهيوني. إضافة إلى هذا، ما عادت عملية إعادة هيكلة أساليب توريع السلطة بالفائدة على أي مجموعة من مجموعات المتمردين. بل على العكس من ذلك، تثبتت النخب الحاكمة، أو بعض أجبحتها، كملاك حصريين للسلطة. وكل ما قامت به هذه النخب هو الدخول من النافذة بعد أن طردت من الباب.

نتيجة لهذا كله، يصعب علينا الحديث في الحالة العربية عن الثورة وفق المعايير التي

يحملها هذا التعريف. وربما يبدو هذا التصور متشائماً ومتحاملاً، لكن المنتفع تاريخ الثورات القديمة والحديثة، وآليات التلاعب بالرغم الثوري، سيجد هذا التحليل أكثر من عقلاني؛ فالثورات البرتغالية، وبعد تقويمها في ضوء النتائج السلبية التي انتهت إليها، تحولت إلى انقلابات بيضاء، وهذا ما يؤكد ديفيد لين حين يقول: «تحولت الثورات الملونة إلى انقلابات: لقد كانت لها مشاركة بحبوية قوية (أو نخب مصادرة)، ومشاركة شعبية كبيرة، لكن من النوع المتفجع، وأنت إلى تجديد النخب، لكنها لم تؤد إلى إعادة بناء الطبقة السياسية أو إلى تحولات اجتماعية واقتصادية وتحولات في توزيع الملكية»⁽⁹²⁾.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، يدور جدل كبير حول ما حدث في مصر عام 2013، وهل يتعلق الأمر بثورة مضادة أم بانقلاب عسكري. وهذا لأن الأنظمة الحاكمة والشمولية، على وجه الخصوص، قادرة على التلاعب بالمفاهيم والمصطلحات بالشكل الذي يمكنها من إثارة الريبة والشك في نفوس أكثر المواطنين نكاء. ومن منطلق هذا الخلط والتعقيد المقصود لمفهوم الثورة ومفهوم الانقلاب، إلا يحوز أن نتساءل عما سمي الثورات العربية، وهل كانت فعلاً ثورات، أم إنها مجرد انقلابات مغلفة بوشة وانتفاضة شعبية صادقة وعاطفية، حري احتطافها واستثمارها بالشكل الذي سمح بتجاوز الثورات وإعادة تنظيم السلطة داخل النظام وتوزيعها، وفي الوقت نفسه العودة إلى وضع ما قبل الثورة بأقل الخسائر الممكنة؟

ينتقد عزمي بشارة بعض النخب العربية التي أنكرت على الحراك العربي تسمية الثورة، متّهما هذه النخب بالتأثر بعذتها المفاهيمية اليسارية، والتي لا تعترف بالثورة إلا عندما تقودها النخب المثقفة والسياسية. وربما يكون هذا النقد صحيحاً على مستوى معين من التحليل، وهو المستوى الذي يشير إلى هذا الحراك كمحاولة شعبية تسعى إلى تعبير أوضاعها القائمة من خلال استعمال آليات سياسية؛ إذ يمكننا حينئذ أن نعترض على النخب العربية كما اعترض عليها بشارة، لمجرد امتلاك هذا الحراك الحدود الدنيا للعناصر التي تجعل منه ثورة حقيقية. لكننا نتفق، من جهة أخرى، مع هذه النخب، لأن هذا الحراك الذي سمي الثورات العربية، تعرض منذ لحظاته الأولى للتوظيف من النخب السياسية والثقافية، أي من الإسلاميين والدولة العميقة والنخب الوطنية، والنخب المعارضة في الخارج. وفي وقت لاحق، ما عاد هذا الحراك قادراً على تحمل مقتضيات الثورة، ولا سيما أن هذه النخب نجحت في تحويل ما سمي

ثورات عربية إلى انقلاب على الأنظمة القائمة وعلى الثوار، حتى أنها جحت في تحاور حالة الوثنة والانتفاضة، لتعيد التوازن إلى الاوضاع السياسية والاجتماعية، والنقد إلى الوضع نفسه الذي كان عليه سابقاً. وفي حالات أخرى، أحد هذا الحراك، نتيجة سقوطه رهينة بين حسابات وطنية داخلية، وأخرى دولية خارجية، مآلات تدميرية لا يمكن بأي حال من الأحوال وصفها بالثورة.

ولكي نصف بشار، والنخب العربية التي انتقدها، يمكن القول إن الحراك العربي بدأ على شكل ثورة وانتهى على شكل مؤامرة، حولت هذا الحراك إلى ما يشبه انقلاباً صامتاً أو انقلاباً أبيض في بعض الحالات، كتونس ومصر، وإلى حرب أهلية كما هي سورية وليبيا واليمن.

يقول بشار إن «المقصود بالثورة هو تحريك شعبي واسع خارج البنية الدستورية القائمة، أو خارج الشرعية، يتمثل هدفه في تغيير نظام الحكم القائم في الدولة. والثورة بهذا المعنى هي حركة تغيير لشرعية سياسية قائمة لا يعرف بها ونسبدها بشرعية جديدة»⁽⁹³⁾. يستوقع هذا التعريف لأنه يؤكد الطرح التوفيقي - الذي اعتمدها - بين موقف بشار المدافع عن الثورات العربية، وموقف بعض النخب العربية السافرة لها. وبالنظر إلى ما جاء في التعريف، من كون الثورة حركة سياسية تنشط خارج الدستور وخارج الشرعية، وتستهدف تغيير النظام القائم، والشرعية القائمة بنظام وشرعية حديدين، يمكننا أن نتفق مع بشار على أن الحراك العربي كان ثورة، أو في الأقل بداية ثورة. لكن عندما نواصل التعريف، ونجد أنه يشير إلى حركة تغيير لنظام قائم واستبداله بنظام جديد، وعندما نجد أن أي من حالات الحراك العربي لم تنجح فعلاً في تغيير نظام قائم بنظام جديد، فإننا نتفق مع النخب العربية التي انتقدها بشار، ونقول إن بالمعايير التي حددها بشار نفسه، لم تحدث ثورة بل محاولة ثورة، سرعان ما انقضت عليها النخب السياسية والثقافية، وحولتها إلى انقلاب أبيض أو إلى حرب أهلية.

إن وعي هذا التعريف الحاصل بالثورة يدفعنا إلى التساؤل عن التغيير الذي أحدثته «الثورة» في تونس، وعن الفارق بين زين الدين بن علي والناجي فايد السيسي، وعن الفارق بين حسني مبارك وعبد الفتاح السيسي، وعن الفارق بين أوضاع ليبيا وسورية واليمن قبل «الثورات» وبعدها.

يساعد فهم الحراك العربي على أنه ثورة غير مكتملة، أو مجهزة، على تنفيذ متطلبات آلية التحليل المعتمدة؛ فنحن سنبقى عبره من فهم ردات فعل الجيوش

العربية على الثورات العربية، كجزء لمسار التدخل العسكري في السياسة وفي الحياة المدنية في العالم العربي، وكتتمة له. وأولى خطوات الديمقراطية، بحسب رأي عمرو منيب دهب، «ليست الإطاحة بنظام غير ديمقراطي مهما بدا مستبداً... والتحرر من قبضة حديدية ليس كسناً، ما دامت قبضة حديدية أخرى في انتظار المتحررين من بعدها، ربما تكون الفوضى التي تلقي بمصابر البشر جزافاً حيثما اتفق، بديلاً أشد فضاضة من القبضة الحديدية المتدمر منها»⁽⁹⁴⁾. يبقى رأي عمرو منيب دهب تعبيراً صادقاً عن مآلات الثورات العربية؛ فنقد ما حملت محاولات الثورات مآلاً متدفقة بالحرية والتحرر، كانت نهاياتها قاتلة هذه الآمال بسبب الآلام التي تجرعتها الشعوب العربية بسبب هذه الثورات.

من جهة أخرى، يعرّف بشارة الانقلاب بأنه فعل «يجري داخل النظام القائم على أيدي جزء من النخبة الحاكمة أو أيدي جزء من المؤسسات الحاكمة، بما في ذلك الجيش أو قسم منه، ويؤدي إلى توزيع جديد للسلطة داخل النظام نفسه. ولكن لا يحلو التاريخ من انقلابات اضطرتها الخيارات السياسية إلى إحداث تغييرات جذرية في النظام، وقد سميت أو سمت ذاتها ثورات 'لهذا السبب'»⁽⁹⁵⁾. عندما نتجرد من العاطفة التي صاحبت الحراك العربي، ونبعد قليلاً من هذه الظاهرة، ونقارن ما جاء في تعريف بشارة للانقلاب بتطورات الحراك العربي، سنجد أنفسنا مصطربين إلى الانقلاب على بشارة، لنعيد توزيع سلطة تعريفه الانقلاب على ما سمي الثورات العربية، فنحوّلها إلى مجرد انقلابات محبوكة، تدخل ضمن استراتيجيات التدخل العسكري في الشأن المدني، وهو ما أصبح اذماً عربياً بامتياز.

لا يمكن إنهاء الحديث عن الثورة من دون الإشارة إلى الموازنة، حيث تتلازم الثورة والموازنة بشكل شبه دائم ومستمر؛ فسواء تعلق الأمر بالنظم الحاكمة، أو بالمعارضة الثورية، ينهم كل طرف الجهة الأخرى بالتآمر عليه، باستعمال جهات أجنبية و/أو داخلية، علماً أن هذه الادعاءات كلها صحيحة في كثير من الأحيان.

أعتقد أن هذه المسألة تبقى مسألة طبيعية، لأن ليس ثمة أنظمة أو حركات تعيش بمعزل عن العالم الخارجي. ومن الطبيعي جداً، بالنظر إلى التفاعلات الدولية الهوية، أن يحدث استقطاب وتحالفات بين جهات من المحيط الخارجي والنظام الحاكم من جهة، وجهات أخرى لهذا المحيط والمعارضة من جهة ثانية، وهذا الاصطفاف يُبزر بالدفاع عن الديمقراطية حيناً، وبالدفاع عن حقوق الإنسان ومحاربة الإرهاب أحياناً أخرى.

إذا كانت «نظريات المؤامرة عمارة عن تفسيرات شعبية لتفاعلات السلطة، والمسؤولية، والأسباب، التي يعي من خلالها الأحداث»⁽⁹⁶⁾، وإذا كان لتداخل المصالح الخارجية لبعض الدول، خصوصاً تلك التي ترتبط بالشرق الأوسط، دوراً محورياً في تحديد هذه السلطات وهذه المسؤوليات والأسباب، فإن الاصطفاف المبرر إلى جانب النظام، أو إلى جانب الثوار، سيتحول - بشكل آلي - إلى شكوك في وجود مؤامرة مزدوجة الاتجاه، على النظام وعلى المعارضة في آن واحد. من هنا، يُحول توحيد المقامات بهذا الشكل التبريرات والتبريرات المصادرة إلى حواصل عديمة الفائدة ومساوية للصفر، وهذا يعني أن الشكوك الدائرة حول إمكانية حدوث المؤامرة، من هذه الجهة أو من تلك، هي شكوك عادية ومبررة وأحياناً شرعية؛ فمن الطبيعي جداً أن تستجد كل جهة لحلفائها عندما يحتدم الصراع، وتصحح بحاجة إلى دعم خارجي وداخلي للمساهمة في حسمه.

أما نعت هذا الشك بأنه مؤامرة سلبية، والآخر بأنه مؤامرة إيجابية، فلا يعتبر في حقيقة الأمر إلا عن الجهة التي نفع فيها بالنسبة إلى موقع الصراع، ولا يعبر، بأي شكل من الأشكال، عن صدقية هذه الجهة أو تلك، لأن الصدقية ستبقى، في نهاية المطاف، مرتبطة بالجهة التي تنتصر في الصراع، وهذا لسبب بسيط هو أن التاريخ سيكتبه المنتصرون في النهاية؛ فما يقال عن الثورات العربية من أنها مؤامرات أجنبية، وما يقال من نقد لهذه الفكرة، ليس إلا تبريراً للمواقف التي يتحدها الفاعلون والمتابعون الحوادث، وأما الحقيقة، فتبقى مرتبطة بنهاية الصراع ونتيجته الأحيثيين.

إذاً، إن النهايات والنتائج، والتعرف إلى المستفيدين، ومقدار استفادتهم من الحراك الشعبي ومن التوزيعات الجديدة للسلطات السياسية والمادية والاجتماعية، هي التي تحدد لنا ما إذا كنا أمام مؤامرة ثورية أم مؤامرة حكومية أم مؤامرة دولية؛ ذلك أن الإمكانيات والفرص لتحويل أي فعل من النقيض إلى النقيض تبقى قائمة، ما يجعل الحدود الفاصلة بين الثورة والانقلاب الثوري والمؤامرة رفيعة جداً، وبشكل لا يسمح برؤيتها إلا كحدل تأويلي يصعب تصديقه.

تسكّل تونس أبرز الأمثلة لهذا الحدل التأويلي الذي لا يمكن تصديقه بسهولة، ولهشاشة الحدود الفاصلة بين الثورة والانقلاب والمؤامرة. تبدو الحالة التونسية كثورة مكتملة وباجحة، حيث استمر الحراك الشعبي في الضغط على النظام والقوى الأمنية، حتى فرّ الرئيس بعدما حذله الجيش، في حركة تبدو كالفيلم الخيالي بالنسبة إلى العقلية العربية؛

ففي اللحظة التي احتاج فيها الرئيس إلى الجيش، قرر هذا الأخير، وعلى غير العادة، الحياد. والحياد هنا يُقرأ وفق معاهيم جانويتر وفايدر كفعل سياسي حاسم، بل إنه فعل سياسي مصيري، حُسمت بفصله المعركة الأولى لمصلحة الشعب والثورة، كما بدا في الأقل. لكن المعارك التالية، والنتائج النهائية لما سُمّي ثورة الياسمين، بيّنت لنا، أو في الأقل أعطتنا بعض المؤشرات الدالة على أن ما حدث، كان تأمرًا على ثورة كانت تسير في طريقها إلى النجاح.

لما كان هذا النجاح يعني تعبيرات جذرية في التركيبة الاجتماعية، وفي توزيع السلطات، والأكثر من هذا، تغييرًا جذريًا في إعادة توزيع الامتيازات المادية والمالية والاقتصادية بين النخب الدرجوازية، والنخب السياسية وحتى النخب العسكرية، كان من الضروري أن تتدخل هذه النخب، بل وتتحالف من أجل تأطير هذه الثورة، وتأطير التعبير التي يمكن أن تنتج منها. بعد ذلك، بدأت المؤامرة على النظام وعلى الثورة في الوقت نفسه، فصُحّي بين علي لأن وجوده، حتى قبل الثورة، كان قد أصبح يشكل خطرًا على هذه النخب الدرجوازية والسياسية والعسكرية. وضحّي أيضًا ببعض منادى الثورة، لأن اكتمالها، كان بدوره سيشكل خطرًا على هذه النخب.

من هنا، كانت النهاية والنتيجة السعيدة هي أن تكتمل الثورة، من دون أن تحصل التعبيرات المرحوة، وتعود بحب بن علي إلى الواحمة، بمشاركة من الثوار أنفسهم. تتأسس هذه القراءة المحتلّة والمخالفة للواقع التونسي، بل وتتأكد، عندما نجيب عن مجموعة من الأسئلة المحورية: ماذا تعبر بفعل الثورة؟ ما نصيب الثوار من التوزيع الجديد للسلطات وللامتيازات الاقتصادية؟ ما مصير النخب السياسية التي كانت تشارك بن علي الحكم؟ ما مصير النخب الدرجوازية الرأسمالية والعسكرية، التي قيل إنها كانت تعمل على إفقار الشعب في زمن بن علي؟ هل تحسن وضع الشعب التونسي اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا؟

لا شك في أن الإجابات الموضوعية والعقلانية عن هذه التساؤلات، تُسقط، وبالصرية القاصية، ما سُوّق له باعتبارها الاستثناء التونسي، والنجاح الوحيد للربيع العربي.

رابعًا: حدود البحث وتحذيرات منهجية لا بد منها

لن نتناول هذه الدراسة إلا الدول العربية التي عرفت ثورات أدت إلى تغيير الوضع

القائم، أي إننا سنتناول، في الأساس، الدول التي حدث فيها الفعل الثوري، وقابليته ردة الفعل العسكرية. ومن ثم، ستتجاوز هذه الورقة حالة عدد من الدول العربية: الدول التي بقيت في مامن من الحراك العربي، كدول الخليج العربي والجزائر والسودان وموريتانيا وليبنان.

العراق الذي يُعتبر حالة خاصة، لأن الفوضى التي تميزه سابقة على الثورات العربية، وكانت نتيجة الغزو الأميركي وإسقاط نظام صدام حسين وتفكيك جيشه. - المملكتان العربية والأردنية، اللتان كانت ردتا فعل نظاميهما على الحراك الثوري فيهما أن أدتا إلى التحكم في الوضع؛ ففي مرحلة أولى، نجد سرعة تدخل النظام، بفتح المجال السياسي نسبياً، الأمر الذي سمح للمعارضة بالتنافس على السلطة ديمقراطياً والوصول إليها (حالة المغرب)، فصارت المعارضة صمام أمان للنظم الملكي، وأدت دور الوافي من الصدمات، وهي تعمل، من حيث تكري أو لا تكري، لمصلحة حماية النظام الملكي. وفي مرحلة ثانية، استغل النظام الحاكم مالات الثورات العربية التراجيدية ذريعة لتخويف المجتمع والناشطين من مغنة التأثير في الأمن والاستقرار، باستخدام معادلة «أنا أو الفوضى والدمار».

- البحرين؛ فعلى الرغم من حصول «الثورة» في هذا البلد، عمل التدخل العسكري الأحني، من خلال قوات درع الجزيرة، لمصلحة النظام، وأحمد «الثورة» بشكل شبه كلي.

لن نتوقف في هذا البحث عند مسألة المؤامرة، والقوى الخارجية والداخلية التي يُنظر إليها على أنها كانت السبب المباشر وراء كل هذه الفوضى الحاصلة في الشرق الأوسط، لا لأننا ننفي دورها، خصوصاً أنه سبق لنا أن حددنا موقفاً منها بوصوح، مؤكداً هذا الدور، وإنما لأننا نعتقد أنه في حال وجدت هذه المؤامرة، فإن تنفيذها جاء في البداية عاملاً منبهاً أدى إلى الفعل الثوري، بالمستوى والطرائق نفسها في جميع الحالات المدروسة، وهذا ما يؤكد التشابه في بدايات ثورات الربيع العربي المختلفة. أما ردة الفعل والنهايات، فتحت تحت تأثير أشكال أخرى من المؤامرة، وهذا ما أدى إلى تنوعها واختلافها من حالة إلى أخرى، علماً أن هذا هو بيت القصيد، أي محاولة الفهم والتفسير لتعدد ردات فعل الجيوش العربية وتتوَعها أمام الفعل الثوري العربي.

سنقتصر في هذا البحث على دراسة الجيوش النظامية التابعة لوزارة الدفاع، أي إن القوى الأمنية الأخرى، التابعة في الغالب لوزارة الداخلية، ستكون خارج نطاق

البحث، إلا عندما تستدعي الضرورة ذلك، أي في الحالات التي يكون فيها تناول هذه القوى مهمًا ومفيدًا لفهم الطائفة العسكرية وتطورها في أي حالة من الحالات المدروسة.

سنسقي الفعل الثوري العربي في هذا البحث ثورات الربيع العربي، تماشيا مع ما يجري تداوله، لتوصيف جميع الأفعال الثورية التي تلت ونتجت من الثورة التونسية التي انطلقت في نهاية عام 2010، وهذا يعني أن الحدود الرميّة لهذا البحث ستقتصر على الثورات التي ميرت بعض البلدان العربية بداية من عام 2010. ولن نتعرض لباقي الحوادث، إلا إذا كان التعرض مهمًا ومفيدًا ومساعدًا على فهم تطور الفعل الثوري أو ردة الفعل العسكرية اللذين يشملهما هذا البحث.

(65) Florence Gaub, *Arab Armies: Agents of Change? Before and After 2011*, Chaillot Papers; no. 131 (Paris: European Union, Institute for Security Studies, 2014), p. 15.

(66) Alasdair Drysdale, «Ethnicity in the Syrian Officer Corps: A Conceptualization,» *Civilisations*, vol. 29, nos. 3-4 (1979), pp. 360-361.

(67) Donald L. Horowitz, *Ethnic Groups in Conflict* (Berkeley, CA: University of California Press, 1985), p. 470.

(68) *Ibid.*, p. 464.

(69) Gaub, *Arab Armies*, p. 16.

(70) Aaron Belkin and Evan Schofer, «Coups Risk, Counterbalancing, and International Conflict,» *Security Studies*, vol. 14, no. 1 (2005), p. 143.

(71) Gilbert Achcar, *The People Want: A Radical Exploration of the Arab Uprising*, Translated from the French by G. M. Goshgarian (Berkeley: University of California Press, 2013), p. 145.

(72) *Ibid.*, p. 145.

(73) *Ibid.*, p. 145.

(74) Ibid., p. 145.

(75) Belkin and Schofer, p. 143.

(76) Ibid., pp. 149-150.

(77) James T. Quinlivan, «Coup-Proofing: Its Practice and Consequences in the Middle East,» *International Security*, vol. 24, no. 2 (Fall 1999), p. 133.

(78) Ibid., p. 133.

(79) Michael Makara, «Coup Proofing, Military Defection, and the Arab Spring,» *Democracy and Security*, vol. 9, no. 4 (2013), p. 336.

(80) Ibid., p. 336.

(81) Ibid., p. 336.

(82) Ibid., p. 337.

(83) Quinlivan, p. 133.

(84) Zoltan Barany, «Comparing the Arab Revolts: The Role of the Military,» *Journal of Democracy*, vol. 22, no. 4 (October 2011), p. 29.

(85) Makara, p. 335.

(86) Jonathan Powell, «Determinants of the Attempting and Outcome of Coups d'état,» *Journal of Conflict Resolution*, vol. 56, no. 6 (December 2012),

p. 1024.

(87) Raymond Tanter and Manus Midlarsky, «A Theory of Revolution,» *Journal of Conflict Resolution*, vol. 11, no. 3 (September 1967), p. 267.

(88) David Lane, «The Orange Revolution: 'People's Revolution' or Revolutionary Coup?,» *British Journal of Politics and International Relations*, vol. 10, no. 4 (2008), p. 528.

(89) Ibid., p. 529.

(90) Ibid., p. 529.

(91) زولتان باراني، كيف تستجيب الحيوث للثورات؟ ولماذا؟، ترجمة عبد الرحمن عياش (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2017)، ص 19.

(92) Lane, p. 529.

(93) عزمي بشارة، في الثورة والقابلية للثورة (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 29.

(94) عمرو منير ذهب، لا إكراه في الثورة (الرباط: دار الأمان؛ الجزائر: منشورات الاختلاف؛ الرياض: منشورات ضفاف، 2013)، ص 37.

(95) بشارة، في الثورة، ص 36.

(96) Peter Knight, «Preface,» in: Peter Knight (ed.), *Conspiracy Theories in American History. An Encyclopedia*, 2 vols. (Santa Barbara, CA: ABC-CLIO, 2003), p. xi.

الفصل الرابع
تحليل ردات فعل جيوش ثورات
الربيع العربي

بعد التفصيل في شبكة التحليل الشارحة، سناقش وضع جيوش دول الثورات العربية، في ضوء هذه الآلية، لقياس مدى صدق الافتراض الذي وصعناه. وسندرس حالة جيوش دول الثورات الخمس حالة بحالة، من خلال التعريف بالحيش، انطلاقاً من إحصاءات عام 2010، لأنها تعبر عن الحالة التي كانت عليها الجيوش المدروسة آنذاك. وعلى الرغم من توافر معطيات حديثة بشأن هذه الجيوش، نَعْمَدُنا بتفصيل الانطلاق من هذه المعطيات، لأنها نصف لنا، بشكل حقيقي، حالة الجيوش التي طبقنا عليها شبكة التحليل، ولا سيما أن هذه الجيوش تعرضت بعد عام 2010 إلى تحولات هيكلية كبيرة، مست المستويات الهيكلية والعددية والعتادية والعقدية.

سندرس بعد ذلك حالة هذه الجيوش من خلال قياس علاقة الحاكم بمسارات بناء الدولة، وعلاقة الحاكم بالتعدد الإثني والطائفي، ثم ننتقل إلى تفكيك آلية الوقاية من الانقلاب المعتمدة من النظام الحاكم، وانعكاساتها على دور الجيش ومكانته وقوته نسبة إلى باقي أجهزة الدولة، لننتقل إلى المستوى الثاني من التحليل، حيث سنقوم بقياس ردة فعل الحيش على الأزمة التي أنشأتها الثورات في كل بلد، ونتائج هذه الاستجابة، وما ترتب عليها.

أولاً: الجيش الليبي: من التفكك إلى الفوضى

كانت القوات المسلحة الليبية، في عهد العقيد معمر القذافي، منظمة معقدة «تتكون من مجموعة من الوحدات: أهمها الجيش الليبي، والكثائب، ثم اللجان الثورية»⁽⁹⁷⁾. وصل عديد الجيش الليبي، بحسب إحصاءات 2010، إلى 76,000 جندي عامل، توزعوا في القوات البرية (50,000 جندي) والقوات الحوية (8000 جندي) والقوات البحرية (18,000 جندي)، يضاف إليهم 40,000 جندي احتياطي، حيث إن مدة التجنيد الاحتياطي كانت تراوح بين عام واحد وعامين، وكان رجال الاحتياط، في الغالب، ميليشيات شعبية⁽⁹⁸⁾. بعبارة أخرى، كان جيشاً صغيراً مقارنةً بجيوش الدول المحاورة. تعرض الجيش الليبي خلال فترة حكم القذافي لأسوأ استراتيجيات التفكيك والإضعاف،

الأمر الذي حوَّله إلى قوة عسكرية لا تملك من العسكرية إلا الاسم. وكان موقف القذافي من الدولة وأجهزتها المختلفة، بما في ذلك الجيش، موقعاً خاصاً؛ إذ أراد أن يؤسس لنظرية سياسية جديدة ومتميزة من كل ما هو متوافر من نظريات، فكانت النتيجة كارثية، فعكست مستوى الجنون الذي كثيراً ما نُعت به القذافي.

عانت ليبيا من صفة «التركة» كثيراً؛ فمن تركة الدولة العثمانية التي استولت عليها إيطاليا، إلى تركة إيطاليا التي أرادت قوى التحالف أن تستولي عليها، إلى أن حصلت على استقلالها في عام 1951، لتتحول إلى مملكة وراثية غامضة وضعيفة لم تعرف الاستقرار منذ نشأتها حتى سقوطها.

في عام 1969، انقلبت مجموعة من الضباط، بقيادة معمر القذافي، على الملك، وأعلنت قيام الجمهورية العربية الليبية، واعتقد الجميع أن الانقلاب سيكون بداية إقلاع نهضة ليبيا، خصوصاً أن البلد يحتوي على أهم الاحتياطات النفطية في المنطقة. اصطدم هذا التوقع مع رغبة معمر القذافي الملحة في تفكيك مختلف أجهزة الدولة، من غير تقديم بدائل تقوم مقامها، فكانت نهايته وسقوطه دراماتيكيين وتراحيديين بجميع المقاييس. وبحر عندما نطق الآلية التحليلية المقترحة على الحالة الليبية، نفهم بسهولة الوصف الذي آلت إليه البلاد، وأن ما حدث للقذافي في عام 2011، وما حدث لليبيا بعد عام 2011، كانا نتيجة حتمية لـ 40 عاماً من التفكيك الممنهج لدولة ضعيفة وعامضة في الأصل.

1- الجيش الليبي على هامش مسارات بناء الدولة

وصل القذافي إلى الحكم من طريق انقلاب عسكري قاده هو شخصياً، بمساعدة مجموعة من الضباط في عام 1969، حين «قامت مجموعة عُرفت باتحاد الضباط الوجدويين الأحرار، في الفاتح من أيلول/سبتمبر 1969 بانقلاب عسكري غير دموي، قاموا من خلاله بتحية الملك إدريس. كان قائد اتحاد الضباط الوجدويين الأحرار النقيب معمر القذافي، واستُبدل نظام حكم الملك إدريس بمجلس ثوري. دعم القذافي سلطاته بسرعة، وظهر في الأعوام التالية قائداً للدولة»⁹⁹. ورث القذافي دولة ضعيفة من جميع النواحي؛ فالمملكة الليبية، لم يكن لها في ظل حكم الملك إدريس تقاليد دولة عريقة. وكانت التنظيمات التقليدية، كالعروش والقبائل، تبدو كيانات مستقلة

وعبر مصصطة. من هنا، برز دور القذافي رعيماً ومؤسساً للدولة الليبية التي طالما انتظرها الليبيون، فـ «أسس في بضعة أعوام نظاماً سياسياً يجمع، بحسب المفاهيم الفيررية، بين الحكم الكاريزمي والناثريموونيالية المطلقة. بعبارة أخرى، لم يكتف القذافي بالاستيلاء على الدولة كاملة، بل استولى على اقتصاد البلد أيضاً. وأعطى نفسه حرية التغيير الراديكالي للمجتمع الليبي. وأكثر من هذا، قام بمراجعة جميع قواعد المجتمع الليبي القديمة والحديثة بحسب ما يراه ملائماً... فوق كل هذا كان يمارس وظيفة القائد العام للقوات المسلحة»⁽¹⁰⁰⁾. وكان للوضع السائد في المنطقة العربية، من بروز للأيديولوجيا القومية، وتمكّنها من السيطرة على الحكم في عدد من الدول العربية، كمصر وسورية والجزائر والعراق، الأثر الكبير في نجاح الانقلاب، وتقلته من الشعب الليبي نتيجةً طبيعية لمسار النهضة العربية المشوذة.

على الرغم من أن مجموعة معتبرة من الضباط الثنار شاركوا في الانقلاب وعملت على إنجاحه، فإن رغبة القذافي في إقامة مشروع يحمل بصمته الشخصية، حولت هذا المشروع إلى كابوس مرعج للشعب الليبي عموماً، وللصباط والجيش خصوصاً؛ فـ «شرح القذافي فكرته في الكتاب الأحصر، وبحسب رأيه، تبقى أحسن وسيلة لحماية البلد، هي تأسيس لجان (ميليشيات) شعبية، والتي يمكن أن توفر مقاومة شعبية ودفعاً ذاتياً جماعياً. أسس القذافي فكرته هذه على أيديولوجيته الاشتراكية العربية، وعلى التاريخ العريق للمقاومة الشعبية للوحد الإيطني من عام 1911 إلى عام 1944»⁽¹⁰¹⁾.

أدى التعارض في الرغبات بين القذافي وشركائه في الانقلاب إلى تكرار محاولات الانقلاب عليه، الأمر الذي صقل موقف القذافي من الجيش، وبالتالي دفعه إلى التفكير في الآلية التي تمكنه من التحكم فيه، وتحديد خطره بشكل دائم.

عندما نتحدث عن علاقة الجيش بمسارات بناء الدولة في ليبيا، نلاحظ أن القذافي، كعسكري شاب، عاش فترة ارتفاع أسهم القومية العربية، فسعى من خلال الانقلاب إلى إنهاء حكم الملك «الرجعي»، وتعويضه بحكم اشتراكي شعبي وتقدمي. من هنا، نلاحظ أنه كان للجيش دور محوري في قلب النظام، إلا أن الجيش تحول، في الوقت نفسه، إلى مصدر خطر وعدم استقرار، لأنه وإن كان راضياً عن التغيير الذي حدث بالقضاء على الملكية الرجعية، فإنه لم يكن راضياً البتة عن طريقة القذافي في تسيير البلد والجيش؛ إذ «سيطر القذافي على الميزانية العسكرية، وقام بتعيين الصباط

وترقيتهم على أساس ولائهم له. ونظم جيشه على شكل كتائب، ثم صمم متاهة من القوات شبه العسكرية، والمحارراتية والأمنية، التي عملت على مراقبة الجيش وإضعافه. من هنا، لم يتمكن الجيش من التأسيس لهوية خاصة، ولم يمارس أي استقلالية مؤسساتية»⁽¹⁰²⁾. وإطلاقاً من هذا الموقف العدائي للجيش تجاه القذافي، تشكلت العلاقات العسكرية - المدنية في ليبيا، كما سنوضحها لاحقاً.

2- القذافي بين القبيلة والدولة

على عكس الأنظمة الانقلابية التي ابتليت بها المنطقة العربية منذ نهاية الخمسينيات، والتي أتت بمشروعات تحديث الدولة ونقلها من المستوى القبلي المتخلف والضعيف والمفتت، إلى مستوى الدولة الوطنية الحديث والمؤسسي والموحد، كان مشروع القذافي متهوراً؛ فهو أراد من خلال ذلك المشروع تجاوز كل ما وجدته من نظريات ومؤسسات، لمصلحة نظام الجماهيرية الذي يمثل نسخة مشوهة من الاشتراكية. وبالفعل، «يتلخص مشروع القذافي في دولة الجماهير أو (الجماهيرية). ففي ظل حكمه، مُنعت جميع أشكال المجتمع المدني، باعتبار أن تطلعات الشعب وأماله ستصل إلى الحاكم من خلال نظام الديمقراطية المباشرة الذي اعتمده»⁽¹⁰³⁾. اصطدم هذا الطموح غير العقلاني للقذافي بعوامل عدة، أدت إلى زرع بدور انهيار نظامه منذ اليوم الأول لتأسيسه؛ إذ تحول القذافي، الذي لم يكن يُعرف عنه أنه تلقى تكويناً علمياً أو تفكيراً أو فكراً عالياً، إلى منظر بين عشية وضحاها. وهذا كان أحد أهم أسباب فشله، أي تصحّم الأب الذي عاياه طوال فترة حكمه. من ناحية أخرى، جاء القذافي إلى الحكم ليرث بلداً عنيّاً، لكنه ضعيف من جميع النواحي: بلد بلا تقاليد قوية لمأسسة الدولة؛ فمن الحكم العثماني إلى الاستعمار الإيطالي إلى حماية الحلفاء إلى قيام المملكة، كلها فترات كان الليبيون غائبين فيها عن الحكم، وبالتالي لم تتكوّن تقاليد عريقة في تشكيل الدولة وتأسيسها. ولعل هذا الفراغ هو ما شجع القذافي على إعلان نظريته الجماهيرية المتهورة. أضف إلى ذلك ضعف مستوى الليبيين الثقافي، خصوصاً خلال الفترة الملكية. هذه الظروف كلها تحالفت مع التنوع الإثني واللغوي والجهوي للمجتمع الليبي، فـ «في ليبيا انقسامات قبلية وجهوية ومناطقية بارزة. ومن الناحية الدينية يسيطر في ليبيا المذهب السنّي والجنس العربي. لكن هناك كثيراً من الخلافات بين

القبائل التي تؤيد القذافي، وتلك التي لا تؤيده. يضاف إلى هذا أن ليبيا شهدت تقسيمًا على أساس المناطق: المنطقة الغربية والمنطقة الشرقية والمنطقة الجنوبية. أخيرًا، هناك اختلافات معتبرة بين سكان المناطق الحضرية الساحلية، والمناطق الريفية الجنوبية النائية»⁽¹⁰⁴⁾. فكانت مهمة الدولة الحديثة أدا تفكيك جميع النظم التقليدية، بما فيها بنية الإنسان كتابع لقبيلة أو لشيخ، وتعويمها بالمؤسسات الحديثة التي تعتمد على المواطن الحر والسيد. لكن، لم يكن مشروع القذافي «التحديثي» إلا تكريسًا للتحالف الذي وجد ليبيا عليه، حيث إنه استثمر في تنوعها القبلي والإثني واللغوي والجهوي من أجل تعزيز الولاء له «ملكه»، كما أنه حارب علماء الدين بشدة وعنف. وأدت حربه «على العلماء المسلمين إلى تهميشهم أو إقصائهم تدريجيًا، إلى درجة أن البلاد لم يجد جسمًا موحدًا ومستقلًا لعلماء الدين عند سقوط نظامه»⁽¹⁰⁵⁾. يمكننا فهم علاقة القذافي ببناء الدولة بصيغة كاريكاتورية، تفيد بأنه أراد أن يفكك جميع المؤسسات الحديثة القائمة وتعويمها بالمؤسسات التقليدية، وإبقاء هذه الأخيرة على الهامش، مع وضع نفسه وعائلته في المركز؛ فالجماهيرية والدولة، في نهاية المطاف، هي معمر القذافي! وتبقى بقية المؤسسات والنخب تواقع تقع على أطراف المركز الممثل في شخصه.

يوجد في ليبيا أكثر من 140 قبيلة وعائلة، له 30 منها، في الأقل، نفوذ قوي. تعمل هذه القبائل وفق تنظيم تقليدي يوازي تنظيم الدولة الحديثة. وكثيرًا ما تؤدي هذه التحالفات التنظيمية بين القبائل إلى خلافات وصراعات نفوذ حادة، ما يؤدي إلى نشوء التحالفات والتحالفات المضادة. وهذا بالفعل ما تنته له القذافي، واستثمر فيه بشكل جيد خلال الأعوام الـ 40 من حكمه؛ فحلل إشكالية ضمائر ولاء الجيش له في هذا المحيط المعقد، اعتمد على مقاربة «المركزية» بوضع داته في المركز، ثم وصع قرابات الدم المنافسة له، والقبائل والشبكات غير الرسمية في المحيط. وكانت هذه الجماعات تتنافس في ما بينها من أجل تحصيل سلطات سياسية، في الوقت الذي كان القذافي يستعملها للتنافس على الولاء له بعضها على حساب بعض. وإذا حاول فرد، أو أفراد، منافسة القذافي على السلطة، فإنه كان من السهل عليه استبداله بعناصر إثنية من قبائل أخرى أو من دوائر أخرى⁽¹⁰⁶⁾. وبهذا، تصبح الدولة مبنية على شكل دوائر متتالية ومتنافسة في الحجم، حتى تصل إلى أصغر دائرة، وتضم القرابات الدموية للقذافي الذي يمثل نقطة المركز التي تدور حولها باقي الدوائر.

تمثل القبيلة في المجتمع الليبي مؤسسة بافذة، وهذا لأن العرف القبلي يدفع بأبناء القبيلة

إلى تقديم ولانهم لقبائلهم على ولانهم لبقاى مؤسسات الدولة، بما فى ذلك المؤسسة العسكرية. ولأن القدافى كان يعلم أن «المؤسسات اللبىبة، ما عدا دائرة الصيقة ومستشارىه العسكريين، كانت ضعيفة، وأن من كانوا يخدمون فى الجيش النظامى كانوا يدينون بالولاء لمناطقهم وقبائلهم لاله كشخص»⁽¹⁰⁷⁾، قرر، وهو الذى يتحذر من قبيلة القذاذفة، الصعيرة الحجم مقاربة بباقي القبائل، بقاء تحالفات بطرائق مختلفة مع باقي القبائل؛ فتقرب من قبيلة الورقة التى تربطها قرابة دموية بقبيلة القذاذفة. كما أنه استعمل قبيلة المقارحة التى تحتل مساحات كبيرة من منطقة فران الجنوبية، واستعان بقبائل التبو الموجودة على الحدود مع تشاد، ومنح هذه القبائل بعض الامتيازات، مثل التعيين فى عدد من المناصب الدنيا والمتوسطة، وتقديم الخدمات الاجتماعية وتوزيع المال، ومساندة قبائل التبو فى نزاعاتها مع دول الجوار.

وفق الأحوال التى أشاعها نظام القدافى، أصبحت القبيلة «وسيلة لاحتواء الفرد والجماعة من الدولة، وهى فى الوقت نفسه وسيلة لاحتواء الدولة من الأفراد»⁽¹⁰⁸⁾. أى إن القبيلة استعملها الأفراد والجماعات درعاً واقية من ضغط الدولة الحديثة التى أراد القدافى إنشاءها فى ليبيا. وفى الوقت عيبه، استعمل القدافى ودولته القبيلة درعاً واقية ضد أى محاولة تغيير سياسى يمكن أن يفكر فيها الأفراد والجماعات؛ فالجهد الأساس للقدافى، تجاه القبائل، كان من أجل منعها من منافسته على السلطة، وحتى لو «قلل القدافى من دور القبائل فى مجتمع العربى الاشتراكي، إلا أن العائلة والفراة والانتماءات القبلية كانت من المكونات المفتاحية فى استراتيجية تحكمه فى القوات المسلحة»⁽¹⁰⁹⁾. يؤكد ما سبق تأثير اوضاع المجتمع السياسية والاجتماعية والانثربولوجية فى أساليب تسيير الحاكم للعلاقات العسكرية - المدنية، والتى ستعكس بدورها على استراتيجية بناء آلية الوقاية من الانقلاب فى ليبيا.

3- إضعاف الجيش كآلية للوقاية من الانقلابات

تميز التاريخ الاجتماعى الليبى بسيطرة فكرة لامركزية السلطة؛ فالتركيبية القبلية كانت دائماً تنحو إلى التمرد عن المركز، راعية فى الاستقلال الذاتى، بل فى الانفصال أحياناً. وهذا وضع عمل كل من الملك إدريس والقائد القدافى على التكيف معه، ومحاولة استغلاله بما يخدم بقاءهما فى السلطة، فتم الإبقاء على هذا التطلع إلى

الاستقلالية من خلال توليفة معقدة، تضمن أمرين متناقضين معاً: سيادة سلطة الدولة على كامل التراب الليبي، وفي الآن ذاته سيادة القبائل والمناطق، بشكل يوارى سلطة الدولة أحياناً، على تراب القبيلة أو المنطقة. وقد نجح القذافي نظرياً في إيجاد الإطار التنظيمي، من خلال نظرية الجماهيرية ومبدأ الديمقراطية الشعبية المباشرة، لتجسيد هذا التوازي المتناقض في توزيع السلطة بين الدولة والمجتمع الليبي. وكأنه أراد أن يوطر كياناً تقليدياً بإطار الدولة الحديثة. لكن هذا النجاح كان هشاً الأكبر؛ إذ بقيت دولته كياناً تقليدياً صعباً مغلفاً بإطار حديث نظري وغامض، وهذا ما انعكس على مختلف مؤسسات الدولة، وعلى رأسها مؤسسة الجيش ومختلف المؤسسات الأمنية.

يمكن أي نظام حاكم، بحسب رأي فلورانس حوب⁽¹¹⁰⁾، أن يضعف جيشه إما بالاستحواذ عليه وتحويله إلى ميليشيات تابعة له، أكثر مما هو مؤسسة وطنية، وإما من خلال الحد من مصادره الداخلية وقدراته، فتضعف إمكانياته؛ فبعد تكرّر محاولات الانقلاب ضد القذافي، لم يعد هذا الأخير يثق في الجيش، وبالتالي سعى إلى تهميشه وإضعافه؛ فـ «القذافي الذي وصل - هو نفسه - إلى الحكم من طريق انقلاب، عمل (بكل قوة ووعي) على إضعاف الجيش بغرض تقوية أمن النظام»⁽¹¹¹⁾، وقام باعطاء الأولوية للميليشيات الموازية التي كانت تحت إمرة مقرّبيه، علماً أنه قام بتشكيل هذه الميليشيات لإحداث توازن قوة ورعب بينه وبين منافسيه المحتملين؛ إذ «تم في ليبيا تقسيم القوات العسكرية إلى كثير من المنظمات التي كانت لها صلات ضعيفة مع بعضها بعضاً. وكلّت القوات المسلحة النظامية الدفاع عن حدود الدولة ضد التهديدات الخارجية، في حين كلّت القوات الأمنية حماية النظام، علماً أن جميع القوات كانت تتحمل مسؤولية سلامة النظام»⁽¹¹²⁾، من هنا كانت استراتيجيّة القذافي، في بناء آلية الوقاية من محاولة انقلاب، مبنية على إضعاف الجيش النظامي، وإرساله إلى الحدود والمناطق النائية، وفي المقابل، تشكيل كتائب وميليشيات قوية، ومجهزة تجهيزاً جيداً، ونشرها في المراكز الحضرية الكبرى أو حولها، تحسباً لأي طارئ أو محاولة تمرد شعبي.

عندما استبد بالقذافي الرهاب العسكري، أصبح «حذراً من المحاطر التي يمكن أن تشكّلها قوات مسلحة قوية على نظامه. ومن هنا، لم يعمل قط على بناء جيش وطني قوي، كما أن محاولات الانقلاب الكثيرة التي تعرض لها في السبعينيات جعلته أكثر شكاً وحذراً من مركزة القوات حتى نهاية عام 1980. وكمرحلة من مراحل تشييد دولة

الجماهير، احتار أن يكون له جيش شعبي مجهر ومدرّب تدريباً ضعيفاً وبروح انضباطية سيئة»⁽¹¹³⁾. وعند النظر إلى تعقد الوصعين السوسيولوجي والانثروبولوجي للبلد، وإلى طموح القذافي المهور في إبداع نظرية سياسية ثالثة، نراه اعتمد على حيار إضعاف الجيش من طريق تهميشه، وإبعاده عن مصادر السلطة والقرار. وفي المقابل، أنشأ كثيراً من القوى الموالية وشبه العسكرية كاستراتيجية لتفعيل آلية الوقاية من أي محاولة انقلاب. من هنا، كان الجيش النظامي الضعيف، عدة وعتاداً وتدريباً، يعمل جنباً إلى جنب مع «شبكة معقدة من البنى الأمنية، التي تتكون من الحرس الرئاسي والميليشيات السياسية، والوحدات الخاصة. وصُغت هذه البنى تحت قيادة أفراد من عائلة القذافي، مثل الكتيبة التي كان يقودها ابنه خميس. إضافة إلى هذا، «كان العمود الثالث للقطاع الأمني الليبي يتمثل في رجال القبائل المواليين للنظام، أو المرتبطين به»⁽¹¹⁴⁾. تأسست استراتيجية القذافي، إزاء، على الثقة في المقربين منه من أفراد عائلته، ثم الثقة في رجال القبائل المتحالفة معه. كل هذا على حساب الجيش النظامي الذي كان يُنظر إليه باعتباره منافساً له على السلطة، لا مؤسسة رسمية تابعة للدولة.

بدأ الجيش النظامي مؤسسة حديثة، حيث «تتألف القوات المسلحة الليبية من القوات البحرية والقوات الجوية ومن القوات البرية... وتتمثل مهمتها الأساسية في ضمان الأمن الخارجي. ونُشرت وحدات الجيش بالقرب من الحدود أو بعيداً من المدن في الصحراء، وكان هذا الشكل من الانتشار مفضوذاً، ويهدف إلى إضعاف إمكانات الانقلاب. بالتالي، كان هناك تهميش للجيش لمصلحة تفصيل «الكتائب»⁽¹¹⁵⁾. هذه المقاربة أصعبت الجيش النظامي، وحولته إلى مؤسسة شبه مينة، وأثنت الصراعات الدولية البسيطة التي عاشتها ليبيا مع الولايات المتحدة ومع تشاد، مدى ضعف الجيش وعدم قدرته حتى على أداء الوظيفة الأساسية التي حددها له العفيد.

من جهة أخرى، تأسست استراتيجية القذافي، في بناء أليته للوقاية من أي محاولة انقلاب، على نقطة جوهرية تتمثل في الحد من استقلالية القرار العسكري قدر الإمكان؛ بد حاول، بجميع الأساليب، مركزة هذا القرار في يده، أو في يد محيطه الضيق والمباشر. وتميز الجيش الليبي بكونه أكثر الجيوش العربية تسييساً؛ فبعد محاولات انقلابية عدة، قرر القذافي ترقية الصباط على أساس الولاء، لا على أساس الاستحقاق. وكان كل شيء مبنيًا على فكرة الحد من قدرة الجيش على الحركة في الاتجاه المعاكس

لرغبات الزعيم الحاكم.

اعتمد القذافي أيضًا على سياسة إراحة كل من يشك في صغف ولأنه، إضافة إلى وضع صيغ لتناوب الصباط على مناصب القيادة، لمنعهم من تكوين علاقات قوية مع محمولاتهم؛ فكلما مكث الضابط مدة طويلة في وحدته، كان هناك احتمال تقوية الانسجام بين القائد والأفراد، الأمر الذي يمكن أن يكون سلبيًا على ولاء القائد ووحدته للنظام. فوق هذا وذاك، أنشئت وحدات أمنية كُلفت بزرع المحبرين و«محافظي الشعب» داخل الوحدات، للاطمئنان إلى ولاء الضباط والأفراد، ومنع الولاء من التلاشي. من جهة أخرى، أعطى القذافي القيادات العسكرية سلطات قليلة في ما يخص تقدير ميزانيتهم وتسييرها، وبرامج تدريبهم، واقتناء عتادهم.

عمل القذافي، بعدما شعر بتهديدات المحاولات الانقلابية، «على إضعاف الجيش بشكل منهجي، وهذا ينطبق على جميع مؤسسات الدولة الأخرى، كما جرت مواراة الجيش النظامي بوحدات وميليشيات خاصة، داخل الجيش وخارجه. هذه الوحدات والميليشيات كانت مدربة ومجهزة بشكل أفضل من الجيش النظامي. كما أنها كانت تحت القيادة المباشرة لأبناء القذافي وأفراد قبيلة القذافة، وحلفائه القبليين المباشرين»⁽¹¹⁶⁾. إضافة إلى هذا كله، عمل القذافي على تصحيم عديد الجيش النظامي، و«القوات المسلحة التي قُدر عديدها بنحو 76,000 جندي، لم يكن في الحقيقة إلا 20,000 جندي. لم يكن تسليحهم قديمًا فحسب، بل وغير مُصان أيضًا، بسبب العقوبات والإهمال. إن تنظيم الجيش كان معًا بشكل بقي من الانقلاب»⁽¹¹⁷⁾، حيث إن التدريب، بصفة عامة، والتدريب بالذخيرة الحية بصورة خاصة، كان شبه محرم على الجيش النظامي، وهذا ما زاد ضعف القوات، وعدم قدرتها على التصرف كمؤسسات عسكرية محترفة.

عمد القذافي أيضًا إلى زرع عدم الثقة بين الوحدات، وبين الصباط المسؤولين عنها، وهذا من خلال التعبير المستمر للقيادات الميدانية، و«التدوير المستمر للصباط على الوحدات، ومنح المناصب على أساس الانتماءات القبلية، والولاء بدل الكفاءة، ومعاقبة كل تفكير استقلالي أو مبادر، كل هذا أدى إلى فقدان الجيش الرعامة، والأخلاق والانسجام والفعالية»⁽¹¹⁸⁾. كانت عملية تكسير مميح للتضامن الأخوي، الذي اعتبرناه في بداية هذا الكتاب خاصية مميزة للجيش الحديثة. ويبني التضامن الأخوي في الحيوش الحديثة على المعالم التي تؤسسها الوحدة العسكرية لنفسها، والتي تتمثل في

قيادة الوحدة، وفي الرباط الاجتماعي القوي بين أفراد الوحدة. من هنا، كان برنامج القذافي الأساس هو تكسير هذه المعالم، وعلى رأسها القيادة؛ فالتدوير المستمر للقيادات والصباط، هدف أساساً إلى منع تشكّل رباط اجتماعي وعاطفي بين القائد وأفراد وحدته، وتعويضه بحالة مستدامة من الشك المتبادل بين القائد وقواته، الأمر الذي يصعب أو يمنع انتقال المعلومة بين أفراد الوحدة؛ فعندما تنكسر المعالم، وتتقطع الروابط الاجتماعية، يحضر الشك، ويصبح من غير الممكن التنسيق حول أي شيء، بالتالي، يصبح من غير الممكن التفكير في الانقلاب.

عمل القذافي، منذ البداية، على تهميش زملائه في المجلس الثوري؛ إذ قام بعد انقلاب 1969 مباشرة بتعيين 15 مديناً من بين 17 وزيراً في الحكومة⁽¹¹⁹⁾. ثم حذّ قدرة العسكريين على اتخاذ القرارات التي تتعلق بتسيير المؤسسة العسكرية، وقام بحل الوزارات (بما فيها وزارة الدفاع) في الحماهيرية، وعوضها بـ «اللجان الشعبية»، وأصبح الجميع يعيش وهم «الكل يحكم»، في حين أنه لم يكن هناك إلا حاكم واحد، هو القذافي وزمرته.

حتى سقوط النظام، سيطر محيط القذافي الصيق على ميرانية الدفاع، ما أدى إلى تراكم مفرط للعتاد العسكري خلال السبعينيات والثمانينيات. وكان جيشه غير قادر على صيانة، أو استعمال، هذا العتاد بسبب قلة الأفراد، ونقص التدريب، وضعف نظام الدعم اللوجستي. ينتقد الملاحظون الحارزيون القذافي باعتباره كان مالكا أكبر حظيرة عتاد في العالم، لكنها بقيت حظيرة محفوظة في المستودعات، من دون أي فائدة استراتيجية، باستثناء كونها المخزون الذي سيتغذى منه الاقتتال الليبي - الليبي في أثناء «الثورة» وبعدها. وخفص القذافي ميزانية الدفاع من 4.4 في المئة خلال الفترة الممتدة بين السبعينيات والتسعينيات، إلى 1.2 في المئة خلال العقد الأول من القرن الحالي⁽¹²⁰⁾، مبرراً ذلك بانفراج العلاقات مع القوى الغربية، وغياب التهديد العربي الذي طالما استعمله كراعية لتمرير مشروعاته.

استعمل معظم مخصصات ميزانية الدفاع الليبية لشراء الأسلحة والعتاد. وفي المقابل، لم يُخصص شيء لتدريب الوحدات، فكان أفراد الجيش بلا فعالية ولا روح، ومن غير هوية عسكرية تحدد عقيدة الجيش القتالية، وهذا ما بينته الحرب الليبية - التشادية، ثم أكدته ردة فعل الجيش أمام «الثورة»؛ حين انهارت دفاعات النظام الليبي بشكل سريع، وتفككت وحداته، نتيجة عدم قدرته على استعمال ترسانة أسلحة طالما حرسها ولم

يتكرب عليها.

كان أبناء الفدائي يشرفون شخصيًا على القرارات المتعلقة باقتناء المعدات الحساسة الموجهة لوحدات الحبة. أما مشتريات الأسلحة البسيطة، فكان يقوم بها ضباط تحت رقابة الفدائي، وهذا من أجل الحد من استقلالية قرار المؤسسة العسكرية.

تشير الدراسات التي اهتمت بالطاهرة العسكرية الليبية⁽¹²⁾ إلى تقسيم الجيش والمؤسسات الأمنية إلى عدد كبير من المنظمات المعزولة بعضها عن بعض، فانهصر دور الجيش النظامي في الدفاع عن الدولة ضد أي خطر أصبي من خارج الحدود، في حين كُلفت القوات الأمنية حماية النظام. لكن، في واقع الأمر، كانت حماية النظام مهمة هذه القوات كلها بلا استثناء.

تمثل القوات شبه العسكرية النواة الصلبة للقوات المسلحة الليبية. كما أنها كانت السند الأول والأساس للنظام، وتأتي الكتاب على رأس هذه القوات، وهي عبارة عن «وحدات عسكرية مستقلة ومتميزة من الجيش النظامي، ويدو أنها أدت دورًا مهمًا في صمان الأمن الداخلي، وكانت منتشرة أساسًا داخل التجمعات السكنية أو حولها. تقع الكتاب تحت قيادة أفراد أقوياء وأوفياء للفدائي، وكانت لها أيضًا مناطق تدخل محددة؛ ففي أثناء الثورة مثلًا، كانت كتبية خميس الفدائي مكلفة حماية غرب ليبيا، خصوصًا حول مصراتة والربنن والزاوية، وكانت كتبية معتصم الفدائي مكلفة حماية الشرق حول أجدابيا والبريقة، وصولًا إلى سرت.

كانت الكتاب مدربة ومجهزة بشكل جيد، وتملك أسلحة ثقيلة، وكان لدى بعضها مدفعية ثقيلة ووحدات دبابات، ووحدات مشاة ميكانيكية، كما أن الكتاب اعتمدت تنظيمًا للقيادة والتحكم على الطريقة العسكرية⁽²²⁾. إنها باحتصار قوات حبة خاصة بالعقيد وعائلته، تتمتع بأفضلية التجهيز والتدريب، وبأفضلية الغرب من الرعيم وتحوز ثقته. من هنا، كان مركزها أفضل من مركز الجيش النظامي، ولا سيم أنها كانت من بين القوات الأساسية المشاركة في قمع أي شكل من أشكال التمرد، وهذا بسبب قربها من التجمعات السكنية، ولحيارتها تكنولوجيات الاتصال المتطورة.

إضافة إلى هذا كله، اعتمد الفدائي على قوات اللجان الثورية، وهي تنظيمات شبه عسكرية، انشأها الفدائي في عام 1977، وكلفها حماية الثورة. تتكون اللجان من الأفراد الموالين للفدائي، وهي مورعة على ثمانى وحدات جهوية من المعاوير، ترتبط كلها بمكتب الفدائي مباشرة.

تتمثل الوظائف الثلاث للجان الثورية بما يلي:

- الوظائف البوليسية، ومتابعة النشاط المعادي للثورة؛

- ضمان الأمن والاستقرار الداخلي؛

- تصفية أعداء الثورة؛

جُهرت اللجان الثورية بأسلحة حفيفة، في الغالب بنادق كلاشكوف، وبوسائل نقل وحركة واتصال حديثة. وقدّر عدد أفرادها بـ 60,000 رجل⁽¹⁴⁾، وهي قوات أمنية وقائية، تعمل كأجهزة استخبارية على جمع معلومات عن المواطنين، بقصد منع أي احتمال لوقوع تمرد على السلطة الرسمية.

إن الهدف من إنشاء هذه القوات الموالية، والمعزول بعضها عن بعض، والمرتبطة بقنوات اتصال مباشرة مع مركز القرار، هو خلق جو من عدم ثقة بعضها في بعض، الأمر الذي يدفع بها إلى التنافس على إرضاء الحاكم، حيث تصبح إمكانات التنسيق بينها شبه مستحيلة، خصوصاً مع السبق الفمعي الذي اعتمدته القذافي في مواجهة أي محاولة للتفكير في تعبير اتجاه الولاء والطاعة.

4- الجيش الليبي يواجه «الثورة» بالضعف والانحياز

بعد اندلاع ثورات الربيع العربي، وانحراط الشعب الليبي فيها، واحه القذافي المتطاهرين بحدة وبانفعالية شديدة، وقرر أن يصرب بيد من حديد، مستعملاً كل ما هو متاح أمامه من قوة. لكن طريقة تسييره للشؤون الأمنية خلال الأعوام الـ 40 من حكمه، كان لها التأثير المباشر في طريقة ردة فعل الجيش على «الثورة» التي بدت جادة وعسيفة منذ البداية. أمر القذافي بتحريك جميع القوات التي يتوفر عليها، والتي بقيت موالية له، ضد الثوار. لكن الجيش الذي لم يكن مستعداً لمواجهة الاضطرابات المحلية وحماية النظام، تصرف أمام هذا الوضع وفق «ثلاث طرائق: 1- خروج فردي، كقرار جنود منفردين من الوحدات؛ 2- خروج جماعي، كقرار وحدات كاملة بفيادتها وأسلحتها والتحاقها بالثوار؛ 3- الولاء للنظام كما فعلت بعض الوحدات التي بقيت ضمن القوات المسلحة لمواجهة «الثورة». المهم هنا هو أن الوحدات التي بقيت وافية هي تلك التي مُنحت الإمكانيات العسكرية، كالتدريب والتسليح وبنى القيادة

الواضحة⁽¹²⁴⁾. ولم تتأخر القوات الليبية كثيرًا في حسم موقعها، وكان تفككها مسألة وقت لأنها في الأصل مفككة وغير مدربة، ولا تحصص لسلسلة قيادة واضحة. وكان يكفي أن ينزاح حاجز الخوف الذي بنته آلة النظام القمعية ليبدأ ضباط الجيش وأفراده بالتصرف بشكل شبه حر، لا يخضع لأي تقاليد عسكرية. لقد «انفجر الجيش في الأيام الأولى للعضب، ثم عاد وساهم في القمع، بعدما تمكن القذافي من إعادة تجميع أجهزته القمعية»⁽¹²⁵⁾. لكن الأزمة كانت عسيرة وقوية، بحيث إنها لم تُتَح للقذافي الوقت لتحقيق الأفضلية على قوة الثوار المتعاطمة بسبب الدعم الشعبي المتزايد، والدعم الدولي المتحامل على العقيد.

كانت نتائج الاستراتيجية التي اعتمدها القذافي، كآلية للوقاية من الانقلاب، كارثية بجميع المقاييس⁽¹²⁶⁾، لأن النظام ركز جهده كله لمواجهة الخطر الذي يمكن أن يأتي من القوات المسلحة ومن الضباط، فأضعف الجيش والمؤسسات الأمنية بشكل غير مسبوق. من هنا، كان سقوط النظام حتميًا بعد أول هزة جديّة عرفتها ليبيا.

لم تكرر ردة فعل الجيش الليبي كارثية على النظام فحسب، بل على الدولة ككل أيضًا؛ إذ إن تفكك الجيش والدولة معًا حوّل ليبيا إلى مُلكٍ شاعر، وأرضية حصنة لِمُو جميع أشكال الأيديولوجيات المتطرفة وتطورها. ومع أن الثوار تمكنوا، بمساعدة من التحق بهم من القوات المسلحة، من حسم المعركة بقوة وعنف وسرعة، فإنهم لم يتمكنوا من إعادة بناء ما هدموه فوق رأس القذافي وحاشيته. ودخلت البلاد في حرب أهلية، تساهم في إذكائها جهات داخلية وخارجية كثيرة، وبذلك التحقت ليبيا بنادي الدول العاشلة، وعجز الليبيون حتى الآن عن إنشاء نظام حكم قادر وثابت وموثوق به.

أدى التفكير الممنهج الذي قام به القذافي ضد الجيش إلى انهيار القوات الأمنية المختلفة بشكل سريع، فأصبح من الضروري إعادة بناء القوات المسلحة، والمؤسسات الأمنية وشبه العسكرية، لتأطير الدولة الليبية ما بعد «الثورة».

اصطدم مشروع إعادة بناء الجيش والقوات الأمنية بمجموعة من العوائق الموضوعية:

أولاً، التفكك والانهيار شبه التام للجيش والقوى الأمنية، وهو ما جعل عملية إعادة بناء المؤسسات الأمنية واحدة من أكثر العمليات صعوبة وحساسية؛ ففي الحالة الليبية كانت هناك حاجة ماسة إلى تأسيس جيش وطني، وإلى جمع الأسلحة المنتشرة بشكل عشوائي بين الميليشيات والقبائل؛ ذلك أن كل ما تبقى من القوات الأمنية «احتفى من

الشوارع في أعقاب النزاع، فأصبحت مسائل الأمن العمومي بين أيدي الميليشيات التي أحدثت تشكّل بسرعة وبكثرة؛ فعلى الرغم من الدعوات الموجهة إلى رجال الشرطة للالتحاق بمناصب عملهم، إلا أنها لم تلق استجابة بسبب الخوف من الأعمال الانتقامية، وبسبب قناعات سياسية، أو بسبب قلة الهياكل. من هنا، وجبت إعادة بناء أجهزة الأمن الداخلي من الصفر»⁽¹²⁷⁾.

ثانيًا، ظهور الميليشيات المسلحة التابعة للقبائل والمجموعات المقاتلة المختلفة التي شاركت في «الثورة» وفي إسقاط نظام القذافي. وفجأة، أصبحت هذه الميليشيات كثيرة وقوية، كانت «هناك المئات من الميليشيات المتنافسة، التي تمثل قبائل من جهات مختلفة، ينعي نزع سلاح معظمها وتفكيكها، في حين يمكن الاحتفاظ ببعض منها وإدماجها في الجيش الوطني الجديد. ولكن، بالنظر إلى ما يجري على أرض الواقع، ما هي الميليشيات التي يجب تفكيكها؟ وما هي الميليشيات التي يجب الإبقاء عليها، ودمجها في الجيش الوطني؟ فبسبب التنافس الحاد بين الميليشيات، وبسبب الفراغ السياسي، لا يرصى قادة الميليشيات بالتخلي عن مكانتهم من دون تحصيل فوائد مادية كبيرة، وأغلبهم لا يثق في باقي الميليشيات، ولا في أعضاء الحكومة الجديدة»⁽¹²⁸⁾. من هنا، أصبح من غير الممكن التفكير في حل من دون أخذها في الاعتبار.

ثالثًا، الخوف من الأعمال الانتقامية دفع المنتسبين السابقين إلى الجيش والقوات الأمنية إلى رفض المساهمة في إعادة بناء القوات المسلحة وقوات الأمن، الأمر الذي أوجب إعادة بناء القوات المسلحة من جديد، والاستعانة بالخبرة الأجنبية وبالميليشيات التي كانت تسيطر على الوضع. لقد ترايد تعداد أفراد الميليشيات بشكل سريع من 26,000 فرد إلى أكثر من 100,000 فرد في غضون أشهر. وكانت هناك أيضًا مسألة عدم الانضباط؛ حيث إن بعضها هاجم جماعات أخرى، كما رأينا في تدمير بعض ممتلكات الصوفية، ومحاصرة الحكومة، ومهاجمة بعض السفارات العربية. ثم تقرر التخلي عن الميليشيات في نهاية عام 2012، وتعويضها بقوى نظامية منصبة ومدرّبة، لكن أُخّر تنفيذ هذا القرار «مرات ومرات، مع ذلك خُفض عددها، خصوصًا في طرابلس، من 49 إلى 7»⁽¹²⁹⁾ ميليشيات.

رابعًا، ارتباط الجهات المتصارعة في ليبيا ما بعد «الثورة» بجهات أحسية مختلفة ومتنافسة في ما بينها، الأمر الذي أدخل ليبيا في حرب أهلية، وفي صراع تراخيدي على السلطة، صعب عملية إعادة بناء الجيش الوطني.

تبين لنا هذه القراءة أن الوضع المضطرب الذي تعيشه ليبيا هو مؤشر واضح على حالة الفشل التي تمر بها ليبيا منذ اندلاع الثورة وسقوط القذافي إلى اليوم، إنه فشل ناتج في الأساس من التفكير الممنهج الذي مارسه القذافي على الجيش الرسمي وعلى كل مؤسسات الدولة، تفكير كانت غايته الأولى والآخرى حماية القذافي ونظامه من أية محاولة جادة للتغيير.

ثانيًا: الجيش المصري: الدولة العميقة

يقدر عدد القوات المسلحة المصرية، بحسب إحصاءات عام 2010، بـ 468,500 جندي عامل، منهم 340,000 في الجيش البري و 18,500 في القوات البحرية و 30,000 في القوات الجوية و 80,000 في قيادة الدفاع الجوي، كما يوجد 397,000 في وحدات شبه عسكرية. أما قوة الاحتياط، التي تراوح مدة تجنيد أفرادها بين 12 شهرًا وثلاثة أعوام، مع فترة إعادة تأهيل كل تسعة أعوام، فتقدر بـ 479,000، منهم 375,000 في القوات البرية و 14,000 في القوات البحرية و 20,000 في القوات الجوية و 70,000 في قوات الدفاع الجوي⁽¹³⁰⁾.

يمثل الجيش المصري، إذاً، أكبر قوة عسكرية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا عددًا وعدة. كما أنه من الجيوش المدربة بشكل جيد، إن في إطار البرنامج الدوري والعادي للتكوين والتدريب، وبرامج التدريب الدولية التي انخرط فيها مع الولايات المتحدة وحلف الناتو، أو في إطار الخبرة التي اكتسبها على مر الوقت من مختلف الحروب التي خاضها عبر مراحل مختلفة من تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

يرى القادة العسكريون في مصر أن أمن مصر القومي (الذي يساوي إلى حد ما أمن النظام) تواجهه ثلاثة تهديدات جديدة: «1- غياب توارث استراتيجي جهوي يتغذى من تعاطف القوة العسكرية الصهيونية؛ 2- خطر الحصار الإسلامي المتطرف؛ 3- الخطر الداخلي الذي يهدد النظام المحلي»⁽¹³¹⁾. من هنا، يمكننا الحزم بأن العلاقات العسكرية - المدنية في مصر تنبني على محورين أساسيين: من جهة، تاريخ المؤسسة العسكرية المصرية وقياداتها، ومن جهة ثانية، استغلال التهديدات الداخلية والخارجية للأمن القومي المصري وتصحيحهما. وعلى أساس هذين المحورين، سنناقش نقاط آلية التحليل المعتمدة لقياس العلاقات العسكرية - المدنية في مصر.

1 - الجيش المصري يبني دولته

لمعرفة مكانة الجيش المصري الحالي في الدولة ودوره في بنائها، يجب العوص قليلاً في تاريخه؛ فمذ عهد البشوات، وبالنظر إلى الوصح الطبقي السائد آنذاك، لم يكن للجيش أي قيمة اجتماعية. وكان في نظر الشعب والعامّة عميلاً للإكليز، أو في أحسن الأحوال، حادماً لطبقة أرسنقراطية متعجرفة. في المقابل، كانت النخب الحاكمة تعامله باحتقار وتزدرى أفرادَه باعتباره فلاحين، بسبب أصولهم الطبقية والاجتماعية. من هنا، يمكننا القول إن الاتجاهات السياسية لـ «القوات المسلحة المصرية كانت متأثرة بشكل قوي ببيئة المجتمع الطبقيّة. عندما أسس حرب الوفد الأكاديمية العسكرية لتوظيف أفراد الطبقات الاجتماعية الدنيا في عام 1936، لم تكن للجيش المصري تقاليد أو هيبة، وكان يوصف بالحليط الرديء من الوحدات التي لا دور لها سوى تنظيم العرص العسكري، كانت قواته تُستعمل في مهمات شرطة لمطاردة المهربين، أو مرافقة الحاكم أو أحد أبنائه خلال تنقلاته. وباستثناء حيالة التشريعات، كان صباط الجيش كلهم محط تحقير، ولم يكن أي فرد من الطبقة الرجوارية [...] يرفع في تزويج ابنته من أحدهم»⁽¹³²⁾، وهذا ما يعكس المكانة الاجتماعية التي كان يحتلها الضباط وعناصر الجيش في المجتمع المصري قبل الثورة.

من هذا المنطلق، لم تكن حركة الضباط الأحرار مجرد ثورة سياسية قامت ضد الملك والإنكليز، بل كانت ثورة اجتماعية قامت ضد تعول البرجوازية المصرية، وضد إردراء النخب البرجوازية للنخب العسكرية التي كانت توفر لها الحماية والأمن؛ ففي «عام 1952، كان الضباط الأحرار الذين قاموا بالانقلاب متحمسين للوطنية، إلا أنهم كانوا غاضبين ممّا وصغوه بالفساد والمحابة في مسائل القيادة والتجهيز. يضاف إلى كل هذا الغليان السياسي العام، والغضب تجاه الضباط الأفندية الذين كانوا متسلطين عليهم وعلى عائلاتهم في القرى»⁽¹³³⁾. وبهذا المبطق، كانت حركة الضباط الأحرار بداية انقلاب اجتماعي كبير وخطر، سيحول أبناء الفلاحين إلى أهدية جدد وبناء دولة، فيستولون على البلد، وعلى مقدراتها بالمستوى ذاته الذي كان عليه أهدية الطبقة البرجوازية، الذين حكموا مصر من قبل.

يلحصر فاير كروبولوجية الحوادث في مصر، بعد الانقلاب، كالآتي: «صرح [محمد] نجيب في يوم الانقلاب 23 تموز/يوليو 1952 بأن أول إجراء سيقوم به هو استدعاء

البرلمان السابق للتشديد على أن الإجراءات كلها دستورية. وفي 8 آب/أغسطس، أخل الانتخابات من تشرين الأول/أكتوبر 1952 إلى شباط/فبراير 1953. وفي العاشر من كانون الأول/ديسمبر، صرح بأن الدستور ألغي العمل به، وبأن السلطة أصبحت بين أيدي قادة الثورة الذين سيمارسون السلطة. وفي 18 تموز/يوليو 1953 صرح العقيد جمال عبد الناصر أن هذا النظام الانتقالي سيستمر ثلاثة أعوام، يستطيع الشعب بعدها أن يختار بين النظام البرلماني والنظام الرئاسي، كما أن المواطنين سينتخبون رئيسهم. في 28 شباط/فبراير من عام 1954، بدأت المعركة الكبرى بين عبد الناصر ونجيب. وفي 27 آذار/مارس نجح عبد الناصر في إراحة نجيب، وإلغاء قراراته السابقة بخصوص الانتخابات والعودة إلى النظام المدني، ورسم الحكم العسكري إلى غاية انتهاء المرحلة الانتقالية، أي إلى غاية انتهاء الأعوام الثلاثة في عام 1956⁽¹⁴⁾. يبين هذا التردد والأخذ والرد في القرارات المصيرية للجمهورية الناشئة، حدة الصراعات الموجودة بين العسكر أنفسهم؛ فبعد نجاح الانقلاب مباشرة، بدأت التطلعات الفردية في البروز، الأمر الذي أدى إلى ظهور مفاربتين لمسألة بناء الدولة: الأولى تريد العودة بسرعة إلى الحكم المدني، والثانية تريد أن يستفيد العسكر من نتائج الانقلاب إلى أقصى حد ممكن، ومن ثم إبقاءهم أكبر مدة ممكنة في الحكم.

المهم هنا توضيح مدى تعقد الحالة المصرية؛ فحين منذ البداية نناقش العلاقات العسكرية - المدنية، لكن في الحالة المصرية، هناك تطور مهم يضاف إلى هذه العلاقات، وهو العلاقات العسكرية - العسكرية؛ فالصراع على توزيع السلطة لا يستقطب العسكري والمدني فحسب، بل يستقطب العسكري ضد العسكري أيضاً. والتقليد المصري هذا بدأ منذ الأيام الأولى للانقلاب، حين كان الصراع يدور بين عبد الناصر ونجيب، ثم انتقل بعد ذلك إلى صراع بين عبد الحكيم عامر وعبد الناصر. ولم يكن هدف هذه الصراعات الاستيلاء على السلطة، بقدر ما كان الهدف إقامة توازن رعب بين الضباط، بحيث يتمكن العسكر من احراز السيطرة الكلية والكاملة على مصادر السلطات، وعلى الدولة ككل.

«لم يكن عبد الحكيم عامر يرعب في أخذ مكان الرئيس، لكنه كان يطمح في الحصول على توازن القوى؛ فعوض العمل على رفع قدرات الجيش القتالية، سخر عامر نفسه لتحويل الجيش إلى ما يشبه للدولة داخل الدولة، من خلال الاستعانة بأجهزة الجيش الأمنية. وهو تعامل مع الجيش كما لو أنه قطاع خاص به، وكانت ترقيات الضباط تتم

على أساس الولاء له، وليس لعبد الناصر أو للدولة. وحتى يُنقّي الرئيس في حالة قلق دائم، كان رجال عامر من الأجهزة الأمنية، يوافون عبد الناصر بتقارير يومية حول المحاولات الانقلابية المرعومة، مثل المؤامرة المزعومة في نيسان/أبريل 1957 والتي صمّت ناشطين بريطانيين وثمانية صباط مصريين. وكان الهدف هو جعل عبد الناصر في حالة قلق كي لا يُجري تغييرات عسكرية خارجة عن إرادة العسكر. إذا، ما كان يبدو محاولة لتأمين الثورة في عام 1954، تطور تدريجاً لينحول إلى محاولة تأمين هيمنة قيادة الجيش»⁽¹³⁵⁾. تشكل العلاقة بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مثلاً أنموذجياً للصراعات التي قامت بين الصباط الأحرار، واستمرت في عهدي أنور السادات وحسني مبارك، ولو بشكل أقل حدة، لأن كليهما لم يكن على مستوى كاريزمية عبد الناصر.

انتهى هذا الصراع الداخلي بالنسبة إلى الجيش باعتماد استراتيجية تعيين الجيش للرئيس، على أن يكون المعين ضابطاً من ضباطه، ثم يقوم صباط الجيش بحراسة الرئيس حراسة مشددة، لمنع من الانقلاب عليهم. وفي حال استعصى عليهم صبط الرئيس، يجري التخلص منه بأي وسيلة من الوسائل. ومع انسادات ومبارك، انسحب الجيش من السياسة تحت ضغط العلاقة المشحونة التي كانت بين الرئيس والصباط، غير أن «الانسحاب لم يكن كلياً من المجال السياسي؛ واصل الضباط العاملون والاحتياطيون تولي مناصب مهمة في الحكومات المتتالية. وتزامن هذا الانسحاب الجزئي من المجال السياسي مع تشكيل قوات شبه عسكرية، وقوات الشرطة لتسيير الصغوط الاجتماعية المتريدة، والتي تسبب فيها مشروع تحرير الاقتصاد المصري. أراد الجيش أن يحافظ على صورته، فرفض التعامل اليومي مع الفصح. إلا أنه ظل العمود الفقري والنواة الصلبة للنظام، وسلاح الفرصة الأخيرة ضد تهديدات التمرد، بما في ذلك تمرد القوات شبه العسكرية»⁽¹³⁶⁾. يحسد الجيش بهذا التصرف النزعة الأبوية التي ميرت الأنظمة الشمولية كافة؛ فالمندنيون، بمن فيهم الرئيس الذي عيه الجيش، هم بمرحلة الأطفال القصر الذين يترك لهم الجيش، أو «الأب»، مطلق الحرية في التصرف ضمن مجالات محدودة ومحددة بدقة. وفي حال نشبت نزاعات أو صراعات بين «الأبناء»، لا يتدخل «الأب»، بل يترك لهم الفرصة لحل صراعاتهم بسرعة ومن دون حسائر تؤثر في أمن الدولة واستقرارها، ولا يتدخل إلا حين يكون تدخله حلاً أحياناً، وعندما يتعذر على «الأبناء» التفاهم.

تُعتبر «الحالة المصرية، حالة أنموذجية بالنسبة إلى استكمال جميع المراحل التي مرت بها، واستنادًا إلى منطق الحوانث التي جعلت العسكر يسيطرون على البلاد. بالنسبة إلى الضباط المصريين، لم يحدث تأمر من أجل تغيير النظام المدني في البداية، فمحدث هو إراحة حكومة وتغييرها بأخرى أكثر بلاءً، لكن شهية العسكر انفتحت بعد الوصول إلى السلطة. وبعد أحذ ورد، وبعد خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف، أصبح العسكر يمثلون الطبقة الحاكمة الجديدة، أو الحكم من خلف حجاب من المدنيين»⁽¹³⁷⁾.

نجحت المقاربة العسكرية التي استحوذت على حصرية تأسيس الدولة وتنظيمه، وأصبح العسكر هم من يقرر كل شيء في البلاد، كما أنهم يملكون حق العتو على جميع القرارات الميدانية والمدنية، ما يسمح لهم بالاعتراض على أي قرار يتقدم به المدنيون.

حكم مصر خلال الفترة الفاصلة بين ثورتى الضباط والربيع العربى أربعة رؤساء، كلهم كانوا عسكريين، وبالتالي كان للجيش الدور الأساس والمحوري في بناء الجمهورية المصرية التي أسست على أنقاض المملكة التي كان الملك فاروق آخر حكامها. كما أن مشاركة الجيش المصري في تحرير البلاد من الاستعمار البريطاني، ومواجهته العدوان الثلاثي في عام 1956، وحروبه المتكررة ضد الكيان الصهيوني، كل ذلك جعله يسوق لامتلاكه الشرعية التاريخية التي تحوله الاستئثار بإدارة البلاد دون أي قوة أخرى.

بهذا، أصبح العسكر يمثلون «العمود الفقري للسلطة في مصر منذ الانقلاب الثوري في عام 1952. وصمن العسكر القيادة المباشرة للبلاد خلال حكم عبد الناصر، مدعومين بجهاز سياسي يتمثل في الحرب الواحد الرسمي. وخلال حكم السادات، وبفصل تشكيل سلطة ثلاثية الضلع (المجتمع الرأسمالي والجيش والرئاسة)، ووضع السادات ومقربيه في المركز، أضعفت الهيمنة العسكرية سببًا، وأصبحت هذه السلطة الثلاثية ممكنة بعد برور رأسمالية جديدة تضم الدولة وبرجوازية السوق»⁽¹³⁸⁾.

تتأسس عقيدة النظام المصري السياسية على أسبقية العسكر في كل ما يتعلق بمنافع الدولة، بما أنه كان دائمًا السائق إلى التصحية من أجل الوطن. من هنا، كان العسكر محرطين في المسارات السياسية المصرية المختلفة⁽¹³⁹⁾.

إن أهم ما يميز الحالة المصرية من الحالة الليبية، هو أن الفدافي نجح في الانقلاب

على رملائه الضباط الأحرار بعد انقلابهم على الملك، فاستولى على الدولة وتصرف بها كملك؛ نيم في الحالة المصرية تمكن الضباط الأحرار من منع انقلاب الروساء الأربعة عليهم، وظلوا يتحكمون في مختلف مقاليد الدولة حتى استحقوا بحق، لقب «جمهورية الضباط»⁽¹⁴⁰⁾. إنها الجمهورية التي تأسست بتيحة استيلاء الضباط على الدولة وعلى جميع مصادر القوة والسلطة فيها، أو كما يقول خلدون حسن النقيب، لقد جاء «العسكر إلى الحكم واحتلقوا للتنظيمات الاجتماعية والسياسية التي تساعد على استمرار احتكارهم لمصادر القوة والثروة في المجتمع... ولكن محصلة الاحتكار الفعال لمصادر القوة والثروة ستكون ميلاد طبقة جديدة، وهي الطبقة التي تمتلك الدولة التي تمتلك كل شيء في المجتمع»⁽¹⁴¹⁾، أي طبقة الضباط التي تسيطر على كل شيء في الدولة.

فظام الحكم في مصر نظام شمولي عسكري، لا يمثل المدنيين إلا واحته المعلنه، حيث إن «المؤسسة العسكرية كانت الحاكم الفعلي وراء ستار الرئاسة منذ انقلاب عام 1952 الذي أطاح بالملكية التي ندعمها بريطانيا... وكثيراً ما قيل إن الرئيس يتقلد السلطة والجيش يحكم»⁽¹⁴²⁾.

لم تكن هذه الهيمنة العسكرية على الحياة المدنية بلا مقاومة، بل حاول السادات ومبارك عزل الجيش ومعه من المشاركة في الحياة السياسية⁽¹⁴³⁾، لكن الجيش كان يعرف في كل مرة كيف يفسد خطط الروساء الذين سبق له أن عيّنهم؛ إذ تأسست في العقلية العسكرية المصرية مسئمة «أن الجيش لا يتلقى الأوامر من المدنيين». وفي المقابل، غرس العسكر في العقلية المدنية مسئمة ثانية معادها أن «الأمه لا يمكن أن يحكمها إلا العسكر»⁽¹⁴⁴⁾. وبفهم هاتين المسئمتين، يمكننا أن نفهم التطورات التي عرفتها مصر بعد ثورة الضباط، وتلك التي ميزت البلد بعد ثورة الربيع العربي.

2- التنوع الطائفي في مصر

تتميز مصر على المستويين الإثني والطائفي باسجام نسبي؛ فمن الدحية الإثنية، تمكنت الدولة الوطنية الحديثة من الحد من تأثير العامل الفعلي، ومن تحييد تأثير الطائفية الدينية، وساعدها في ذلك كون سكانها مسلمين على المذهب السني بنسبة كبيرة، مع وجود أقلية مسيحية تقدر بحوالي 9 في المئة⁽¹⁴⁵⁾، ووجود أقليتين، نوبية

وبهائية، أقل شأنًا وتأثيرًا من الأقلية المسيحية⁽¹⁴⁶⁾. وتمكّنت الدولة الحديثة، والى عاية الآن، من استيعاب هذا التنوع ومنعه من التأثير سلبيًا في النظام والمجتمع على حد سواء، وذلك من خلال اعتماد نظام تسلطي وقمعي يسري على الأغلبية والأقلية على حد سواء.

إن وجود مصر في قلب الشرق الأوسط، ومحاداتها الكيان الصهيوني الذي يحتل فلسطين، وتمتعها بحبرة طويلة في مأسسة الدولة، كلها عوامل مكنتها من أن تحيّد - ولو نسبيًا - أثر العاملين الإثني والطائفي.

ففي ما يتعلق بالأقباط، يرى عزمي بشار أن ما يمكن تسميته «المسألة القبطية»، قد صاع بين الرؤية الانعزالية للحزب القبطية التي ناصلت من أجل هوية قبطية مدعولة عن باقي المصريين، هوية «مصرية» خالصة ليست لها أي روابط مع هوية العالم العربي الإسلامي، وزاوية النظر الانعزالية هذه، لا ترى أن معتنقي الإسلام في مصر هم مصريون...»⁽¹⁴⁷⁾؛ وبين مقارنة دولتيّة عجزت عن «تأسيس مبدأ المواطنة والانتماء المواطني. إن فشلها في تحقيق مبدأ المواطنة، وعجزها عن أداء دورها فيه، هو الذي جعلها تقف «متفرجة» حين يلجأ الأفراد إلى كيانات أخرى تعيد تشكيل مبادئهم وفق إطار ذهني جمعي قد يصيق في أحيان كثيرة عن احتواء مبدأ المواطنة»⁽¹⁴⁸⁾، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى العجز عن تطوير مشروع مواطنة شامل لجميع المكونات الطائفية المصرية.

أدى هذا الصياح بين تعريطين، تعريظ الأقباط وتعريظ الدولة، إلى تفرغ المسألة الطائفية، ذات الاستقطاب المسيحي - الإسلامي من شحنتها النصارعية، وبالتالي تحييد أثرها على رهانات السلطة وتوزيعها وتسييرها في مختلف مراحل بناء الدولة المصرية.

من هنا، يبقى الرهان الوحيد الذي يواجه العلاقات العسكرية - المدنية في مصر هو الطائفية الإسلامية؛ فالمعروف عن مصر أنها مهد حركة الإخوان المسلمين الذين كانوا، ولا يزالون، المنافس الوحيد والجدي للسلطة والعسكر، كما بيّنت انتخابات ما بعد ثورات الربيع العربي. والخطر الإخواني، ودرجة أقل الخطر السلفي، ساعد النظام على تدعيم لحمته، وعلى تمثين الوحدة بين المدني والعسكري، بل يمكننا القول إن العسكري، ومن أجل مواجهة هذا الخطر، استحوذ على السلطة، وتغلغل في دواليها العميقة، إلى درجة يصعب فيها التمييز بين المدني والعسكري في نظام الحكم

المصري. تتميز العلاقة بين النظام والإسلاميين بالتعقد؛ فمن التحالفات إلى الصراعات السياسية التي تطورت في كثير من المراحل إلى صراعات مسلحة وعيفة. والميزة الأساسية لهذه العلاقة هي أن النظام تمكن، من خلال أدرعه الأمنية والعسكرية، من تسيير هذه العلاقات بالشكل الذي يريده وفي الاتجاه الذي يرغب فيه، مستفيداً من وضع مصر باعتبارها حليفاً استراتيجياً لمختلف القوى العظمى، فكان يستعمل الففار الحديد والفافر الداعم، بحسب ما تملّيه الأوضاع ووفق حسابات استراتيجية دقيقة، ما ساهم بالشكل الذي توقعناه من خلال آليتنا التحليلية، في رسم معالم العلاقات العسكرية - المدنية، كما سنوضحها لاحقاً.

إن الميزة المشتركة بين جميع رؤساء مصر، قبل الثورة، هي استهلالهم عهودهم الرئاسية بالمصالحة مع الحركة الإسلامية، وشرعيتها، ثم الانقلاب عليها وشيبتها، وهذا ما يثبت أن اللاعب الحقيقي الذي يحرك اللعبة مع الإخوان ومع غيرهم هو واحد، لا يمثل الرؤساء إلا واجهته الظاهرة للعيان. واعتمدت الجهة المتحكمة في خيوط اللعبة مع الإسلاميين، والمتمثلة - بلا أدنى شك - في العسكر من خلال مؤسساتهم الأمنية والاستخبارية، استراتيجية متكيفة مع الأوضاع والمحيط الدولي. والاستراتيجية هذه تتطور بشكل براغماتي بناء على الأحوال والمعطيات؛ من العف والنقمع الدموي، إلى الشرعنة والحدرد، وأخيراً إلى التوظيف والاستعمال. المهم في هذا كله، أن بعد مرور ما يقرب 80 عاماً على نشأة الحركة الإسلامية في مصر، لا يزال النظام الحاكم مسيطراً عليها بشكل صارم وحازم، ولا يزال النظام العسكري الأبوي في مصر يتعامل مع الإخوان المسلمين والحركة الإسلامية عمومًا، كابن غير شرعي اضطرتة الأعراف والقوانين إلى الاعتراف به.

3 - آلية الوقاية من الانقلاب على الانقلابيين

على العكس من خيار الفدائي بإصعاف الجيش، احتار النظام المصري تقوية الجيش حتى أصبح الحاكم الفعلي للبلاد؛ فبعد حركة الضباط الأحرار في عام 1952، أسند الحكم إلى أربعة رؤساء، خرجوا كلهم من عباءة الجيش. ومنذ ذلك الوقت، عمل العسكر على احتكار القرار السياسي في مصر، فلا يحدث شيء من دون أن يكون الجيش على علم به، وبموافقته.

خلال فترة حكم عبد الناصر، وقعت حوالى خمس محاولات انقلابية، كانت كلها فاشلة. وعلى الرغم من قوة حمال عبد الناصر وحادية شخصيته، ومن الأوصاف السياسية المواتية التي حولته إلى رعيم عربي لا يناقش ولا يمكن مواجهته بشكل مباشر⁽¹⁴⁹⁾، تعذر تحييد نفوذ الجيش المصري.

تعرض السادات لمحاولتين انقلابيتين، فلجأ، لمواجهة هذه المحاطر، إلى إقرار نظام تناوب سريع للضباط على القيادة والمناصب، بحيث لا يبقى الصابط في منصبه المدة الكافية التي تسمح له بالتآمر مع غيره ضد النظام. كما أنه اعتمد على سياسة فرق تسد لصمان ولأء الضباط والقيادات العليا.

من جهة أخرى، عمل السادات على تقوية قوات الشرطة وقوات الامن المركزي، من أجل تحقيق توازن القوة مع الجيش، وكسر احتكار الجيش للوسائل الفمعية، «حتى وإن اعتمد كلٌّ من عبد الناصر والسادات على الجيش كقاعدة لشرعية سلطتهما، فإن منهجيهما كانا مختلفين في القيادة. عبد الناصر كان حائفاً من سلطة رميله عامر، وحاول السيطرة عليه من خلال مكافأته في كثير من المباسيات. وحاول السادات تسير سلك الصباط ككل، فاستعمل ضباطاً منفردين صد بعضهم بعضاً، كما أنه استعمل في بعض المناسبات سلطاته الدستورية لتتحية القيادات العليا التي لا تتفق مع رؤيته»⁽¹⁵⁰⁾. وكان العسكريون لا المذنيون هم المشكلة الأساسية بالنسبة إلى السلطة في مصر، حيث إن استراتيجية الوقاية من الانقلاب في مصر تتلخص في مبادئ اساسيين: الأول ضرورة منع الرئيس من لانقلاب على الضباط، والثاني منع الصباط من انقلاب على الرئيس. من هنا، كانت الآلية المصرية مزدوجة إلى حد ما، وتسير في اتجاه مراقبة دور الرئيس وتحجيمه بالنسبة إلى العسكر، وفي الوقت نفسه مراقبة العسكر وتحجيم دورهم بالنسبة إلى الرئيس.

من هنا، جاءت خطة السادات لإلهاء الجيش عن المسائل السياسية، فرح الجيش في عالم المال والاقتصاد، حتى أصبحت القوات المسلحة المصرية أكبر قوة اقتصادية في مصر. وأكثر من هذا، سمح لهذه القوة الاقتصادية بأن تخرج عن السيطرة والرقابة الاقتصادية للدولة، ما يعني أن النشاط الاقتصادي العسكري غير مراقب، لا من حيث المدخلات ولا من حيث المخرجات، مع تحرره من جميع القيود الصربية والجبائية التي تفرضها الدولة على باقي أشكال النشاط الاقتصادية المدنية.

نشط الجيش المصري في الفروع الاقتصادية كافة، وطور آلة اقتصادية مهمة، وبرر

لهذه الآلة دور مهم بالنسبة إلى الدولة، بالنظر إلى حجم الإنتاج واليد العاملة التي يوظفها الجيش، والثرورة المالية التي أصبح يتحكم في تسييرها بلا رقيب ولا حسيب⁽¹⁵¹⁾.

مما «يدل على الإنقاص من دور العسكر السياسي في أيام حكم السادات، قلة عدد الضباط في الحكومة؛ ففي الوقت الذي كان حضور العسكر في الحكومة في عام 1967 يراوح بين 41 في المئة و66 في المئة، نجد أنه انخفض في عام 1972 إلى حدود 22 في المئة. وخلال فترة حكم السادات، تولى رئاسة الحكومة ستة أفراد، أربعة مدنيين وعسكريين اثنين، و163 شخصاً عملوا كوزراء، 32 منهم كانوا ضباطاً عاملين أو متقاعدين، أي ما نسبته 20 في المئة. يرى كوبر (Cooper) أن أقل من 13 في المئة من وزراء السادات كانت لهم خلفية عسكرية، وأن قرابة الثلثين منهم كانت لهم مهارات تقنية. وانخفض عدد المحافظين الذين كانت لهم خلفية عسكرية من 22 من بين 26 محافظاً في عام 1964، إلى 5 محافظين في عام 1980»⁽¹⁵²⁾. يمكننا تفسير هذا الانسحاب التكتيكي للجيش من المجال السياسي بقرارة نشاطه الاقتصادي، حيث لم تكن لصباطه القدرة على العمل على أكثر من جهة.

عُرفت مرحلة السادات بحرب تحرير قناة السويس من الكيان الصهيوني، ثم تلتها مرحلة المفاوضات واتفاقيات السلام. وبالنظر إلى النشاط العسكري والسياسي والاستخباراتي والاقتصادي الكثيف، كان من الطبيعي جداً أن يقتل الجيش ظهوره السياسي، ولو بصورة مؤقتة، لأنه سيعود بشكل أكثر قوة مع مبارك والسياسي.

حاول مبارك، بعد تسلمه سدة الحكم، أن يواصل خطة سلفه للحد من نفوذ العسكر، لكنه لم يتمكن من فعل شيء، فحاول مرة أخرى فصل السياسي عن العسكري، من خلال الاعتماد على عنصرين - في الأقل - من عناصر الخطة التي اعتمدها السادات، وهما مواصلة «إقامة التوازن مع الجيش، ومواصلة منح الامتيازات الاقتصادية للفئات المسلحة»⁽¹⁵³⁾، لكن محاول الجيش من استحواد مبارك على السلطة والدولة جعلته يفكر في كيفية منع مبارك من مواصلة مسلسل التوريث⁽¹⁵⁴⁾، ووقف خطط تحديد الجيش من الحياة السياسية.

كانت حوادث الربيع العربي في مصر بمنزلة طوق النجاة الذي سمح للجيش بتنحية مبارك، ومنع تحول السلطة خارج المؤسسة العسكرية كما كانت تأمل الثورة. «قل الإطاحة بمبارك، كانت آلية منع الانقلاب تنحصر في إجراءين أساسيين: تشكيل

أجهزة أمنية مؤازرية، وتوزيع التحفيزات المادية والرعاية. أسس مبارك، خلال حكمه، مجموعة من الوحدات الامنية ذات مهمات دفاعية ورقابية. ففي بداية 2011، وظفت وزارة الداخلية المصرية ما يعادل 1.4 مليون شخص، وهو عدد يصم الشرطة والمحبرين ومحموعات متنوعة من القوات الامنية. وكانت أقوى هذه المحموعات قوات الأمن المركزي، التي تعادل الجيش النظامي حجمًا. وتتمثل مهمتها الأساسية في قمع المعارضة المحلية، ومراقبة القوات العسكرية. بعد قوات الأمن المركزي تأتي قوات أمن الدولة، وهي عبارة عن شرطة سرية مسؤولة عن الأمن المحلي، ويراقب جهاز الاستخبارات العامة وراستي الداخلية والجيش النظامي. وبسبب تداخل الصلاحيات والولايات العصانة، كانت هذه المجموعات تتنافس على التأثير في النظام عوض الانقلاب عليه⁽¹⁵⁵⁾.

تتلخص آلية الوقاية من الانقلاب في مركزة القرار السياسي والعسكري في يد القوات المسلحة ومجلسها الأعلى؛ فالصباط هم الذين يعتبرون الرئيس، وهم الذين يسيطرون البلاد فعليًا. وفي سبيل ذلك، عملوا على جعل الجيش مؤسسة عسكرية معلقة، حتى على رئيس الدولة نفسه. ولا يمكن أن يلج إليها عسكري بسيط، أو يتدح في سسلتها القيادية العليا، إلا من تسمح له الأجهزة الأمنية بذلك. وربما يبدو الأمر حيالًا بعض الشيء، لكن المنتع تاريخ المؤسسة العسكرية يكاد يحرم بابه لم يحدث، خلال تاريخ مصر الحديث، أي أمر بلا موافقة، وحتى مباركة، قيادات القوات المسلحة المصرية، بما في ذلك اغتيال السادات وتحية حسني مبارك عن الحكم.

4 - جيش مصر يتقلب على الجميع!

كانت ردة فعل الجيش المصري على ثوار 25 يناير مُحكمة ومنظمة بشكل يوحي بوجود تخطيط مسبق لجميع المراحل التي كان يجب أن تمر بها الحوادث. وقد وحت بقوة الجيش المصري رغم ما قيل عنه؛ وتماشيًا مع ما ورد سابقًا أن هذا التخطيط كان بمبادرة المجلس الأعلى للقوات المسلحة ومباركته. فبعدما أصبحت المؤسسة العسكرية مؤسسة فوق الدولة ومستقلة عنها، صار في وسعها أن تتاور، وعند اندلاع الاضطرابات في ميدان التحرير، وتدخل الشرطة العيف والفاشل في إر، كان لقوات المسلحة الحبر في «ان تيد، التعبير أو تيداً إطلاق النار»⁽¹⁵⁶⁾، فاحتارت استثمار

الحادث من أجل التغيير، ولكن ليس كما يريد الثوار، بل كما يريد المجلس الأعلى للقوات المسلحة. عني هذا أنها قررت تأخير البدء في إطلاق النار إلى ما بعد إعادة ترتيب البيت، وإجراء تغيير كانت القوات المسلحة متأكدة من أنه لن يروق الثوار كثيرًا. كانت البداية مع العمل على حفظ الأمن بسيطرة الجيش على الشارع بلا أي احتكاك بالثوار. وراجت تلك الصور الدعائية التي تجمع الأطفال مع الجنود فوق الدبابات، كمؤشر قوي على دخول مصر في عهد جديد ينهي الشمولية والاستبداد. ثم تواصل المشهد بالموافقة على تنحية الرئيس مبارك ومحاكمته هو وزمرته، كما كان يرغب الثوار. وفي المشهد الثالث، رعاية انتخابات حرة وديمقراطية بعد اعتماد دستور ينهي الحكم الشمولي للأبد. لكن «عوض مساندة المطالب الشعبية، قام المجلس الأعلى للقوات المسلحة، خلال فترة عمله كحكومة عسكرية انتقالية، بخطط الإصلاحات الدستورية من أجل المحافظة على مصالحه الاقتصادية، وعزل نفسه عن الرقابة المدنية، وهذا ما يصفه بعض المراقبين بالانقلاب اللين والعودة إلى شمولية نظام مبارك، حيث منح العسكر أنفسهم الرقابة على الميزانية وعلى السلطة التشريعية، والسلطة المطلقة على الشؤون العسكرية. وأخيرًا كان له القول الفصل في محتوى الدستور المصري الجديد»⁽¹⁵⁷⁾.

بعد قرابة عام واحد، قررت المؤسسة العسكرية البدء بإطلاق النار بعد عزل الإسلاميين، وتقسيم المجتمع إلى موال ومعارض للرئيس المنتخب محمد مرسي. واستعملت آلة إعلامية منضبطة انضباط العسكر، تتكلم وفق الأوامر في الوقت المطلوب، لتوصل الرسائل التي تؤمر بإيصالها، لينتهي هذا كله بتنحية الرئيس، وحظر جماعة الإخوان. وبذلك، تكون المؤسسة العسكرية قد تخلصت من مبارك، ومن «الثورة» ومطالبها، وأعادت مصر إلى الوضع الذي تحذه: حاكم معين من المؤسسة العسكرية، لا يجروا على الحركة أو التنفس خارج فلكها.

«اقتنعت الجهات النافذة في السلطة المصرية، في شباط/فبراير 2011 بأن من الضروري التحلي عن الرئيس، لأنه كان يشكل خطرًا كبيرًا في عيون المحتجين، وعبئًا ثقيلًا في عيون العسكر. كانت هذه القناعة قوية ومشاركة بين الجيش ومختلف أجنحة السلطة، وبين الجيش وداعميه الماليين، خصوصًا الولايات المتحدة التي دعت الجيش إلى التدخل بما يتماشى مع هذه القناعات. من هنا، كان تدخل الجيش على شكل انقلاب محافظ»⁽¹⁵⁸⁾، والانقلاب المحافظ استراتيجيًا يعتمد على العسكر، عبر التصحية

بأحد رموز السلطة، أو أهمها، من أجل المحافظة على ما بقي من النظام القائم، وهو انقلاب يحاري المحتجين، ويُظهر الاستجابة الطوعية لمطالبهم من أجل إنقاذ البلد طاهريًا. لكن، من الناحية العملية، هو انقلاب على الرئيس وعلى المحتجين ضده، يعرض حماية النظام ومنع «الثورة» من تحقيق أهدافها والوصول إلى تعبير في الشعب الحاكمة.

إن الثروة والقوة اللتين يمتلكهما الجيش المصري تؤكدان أنه يستحيل أن يفيل الجيش بتغيير يهدد مصالحه؛ فالرهان يتعدى مجرد تغيير الرئيس إلى تغيير شامل للنظام برمته⁽¹⁵⁹⁾. من هذا المنطلق، مدعت المؤسسة العسكرية أي محاولة للتأثير في ألتها الاقتصادية، أو وضعها تحت المراقبة من أي جهة ثانية، أو إحصاعها للنظام الضريبي المطبق على المؤسسات المدنية⁽¹⁶⁰⁾. ويبتدأ لنا العام الذي حكم مرسى خلاله، كيف أنه كان نصف رئيس، أو كان رئيسًا لنصف مصر؛ «فجمهورية الضباط» بقيت عصية عليه، لأنها حافظت على استقلاليتها بالنسبة إلى المنظمات المدنية، وبالنسبة إلى الثوار، وحتى بالنسبة إلى الرئاسة⁽¹⁶¹⁾. فكان مرسى أشبه بالصيف الثقيل في قصر رئاسة الجمهورية، وكان العسكر يتحينون الفرصة لتطبيق المرحلة الموالية التي ستنتهي بتحتيته، وتحويله في مشهد درامي مُخرج بعناية، من رئيس شرعي منتخب إلى عميل متهم بالتخابر مع دول أجنبية.

كان اهتمام العسكر، الأول والآخر، يتمثل في البحث عن الآليات التي تسمح لهم بدعم سلطتهم وبفوذهم، أمام الضغط الثوري المتزايد نتيجة الأوصاع التي عرفتتها منطقة الشرق الأوسط آنذاك. و«سرعان ما اتضح أن الجنرالات كانوا أكثر اهتمامًا بتعزيز سلطتهم من اهتمامهم بدعم أهداف الثورة. في الأشهر التي أعقت تنحي مبارك، حوكم عدد من المواطنين محاكمات عاجلة أمام محاكم عسكرية بموجب قانون الطوارئ، يفوق عددهم من حوكموا أثناء حكم مبارك على مدار ثلاثة عقود»⁽¹⁶²⁾. تبين هذه الملاحظة التي عرصها جون برادلي كيف أن الثورة المصرية استعلت بشكل محكم من أجل منع الانتقال الديمقراطي الحقيقي الذي طالبت به.

بعد ذلك تمديد جمهورية الصباط شكل جعلها تسيطر على مصر كلها، واستغلت الحرب على الإرهاب الدولي، لتحد من الضغوط الدولية، التي دعت إلى احترام الشرعية وحقوق الإنسان.

لا تسيطر المؤسسة العسكرية على المنظمات التابعة لها فحسب، بل تسيطر على

الدولة ككل؛ إذ لا يوجد منصب حكومي ^{سم} أو بسيط، ولا يوجد منصب في السلطات المحلية، إلا ويعتليه عسكري متقاعد. وحتى لحان لأحياء على بساطتها، وبساطة الرهانات التي تحيط بها، يؤلى عليها عساكر متعاقدون فيها⁽¹⁶³⁾.

بحلص في نهاية تحليل الحالة المصرية إلى أن العلاقات العسكرية - السياسية والأوضاع المحيطة بها هي التي كُتبت ردة فعل القوات المسلحة على الفعل الثوري. ورتة الفعل هذه كان مخططاً لها من مؤسسة قوية ومستقلة، ووفقاً لرويتها، وخدمة لأجندتها ولعقيدتها، التي استحوذت على الدولة المصرية ورئيسها؛ فالـ «الانقلاب المصري [في] يوليو 2013» الذي كان نقطة تحول في تاريخ الثورة العربية من أجل الديمقراطية، يشبه انقلاب أوغستو بيوشيه، أي انقلاب جيش النظم على العملية السياسية، أكثر مما يشبه الانقلابات الراديكالية»⁽¹⁶⁴⁾، ما يعني أن الجيش المصري تمكن فعلاً من الانقلاب على الجميع. انطلاقاً من هذا التحليل، يرى أنه سيكون من الصعب حدوث تغيير إيجابي في الوقت الحالي بالنسبة إلى الحالة المصرية. بناء عليه، ستبقى مصر دولة تقاوم الفشل، علماً أن إمكانيات فشلها الآن هي أقرب من إمكانيات نجاحها، خصوصاً إذا استمر الوضع على ما هو عليه.

ثالثاً: الجيش السوري: الولاء الطائفي

تكوّن الجيش العربي السوري، بناء على إحصاءات عام 2010، من 325,000 جندي عامل، منهم 220,000 جندي في القوات البرية و 5000 جندي في القوات البحرية و 40,000 في القوات الجوية و 60 000 جندي في قوات الدفاع الجوي. كما أنه يضم 108,000 في وحدات شبه عسكرية، و 314,000 من جنود الاحتياط، منهم 280,000 في القوات البرية و 4000 في القوات البحرية و 10,000 في القوات الجوية و 20,000 في قوات الدفاع الحوي. وتستمر مدة تحييد الاحتياطيين 30 شهراً⁽¹⁶⁵⁾.

على خلاف الحاليتين الليبية والمصرية، تميزت الحالة السورية باندماج شبه كلي بين الحاكم والجيش؛ فشمولية الحكم السوري تميزت باستيلاء الحاكم والجيش على الدولة لمصلحة الطائفة التي ينتميان إليها، وهذا كان نتيجة الأوضاع التاريخية و السوسيلوجية و الأنثربولوجية التي ميرت الدولة السورية الحديثة والمعاصرة.

1 - جيش الانقلابات ينتهي إلى دولة طائفية

مرت سورية منذ استقلالها بموجة من الاضطرابات الحطرية، كان للجيش الدور الأساس فيها؛ إذ شهدت البلاد خلال الأعوام الـ 30 الأولى لاستقلالها ما لا يقل عن 11 انقلاباً عسكرياً وحركة تصحيحية ناجحة في معظمها⁽¹⁶⁶⁾، إذ غيرت مسار الدولة وأيديولوجيتها من القيص إلى القيص.

من ههنا، يمكننا القول بالنسبة إلى الحالة السورية، أننا لن نتردد في الجزم من البداية بأن القوات المسلحة السورية كان لها دور مركزي في بناء الدولة والنظام السياسي في سورية ككل وفي تطورهما.

بعد الاضطرابات التي عرفتتها سورية، بسبب التدخل المؤثر للقوات المسلحة في الشأن السياسي، عمل النظام البعثي على دمج الجيش، بشكل شبه كلي، في الدولة السورية. و«استعاد» (حافظ الأسد) من تجارب مملوكيه، في تأسيس نظام شمولي، يقوم على الحرب الفاند في الميدان السياسي، والطائفة المسيطرة في الميدان الأمني والعسكري⁽¹⁶⁷⁾؛ فالعلاقات العسكرية المدنية في سورية تدمج بين السياسي والعسكري والطائفي، إلى درجة لا يمكن التمييز معها بين ما هو عسكري وسياسي؛ فالرئيس، وإن كان منتخباً، يحتفظ بيزته العسكرية، باعتباره القائد العام للجيش العربي السوري.

تورط الجيش السوري بشكل كبير في الحياة السياسية السورية؛ إذ إنه كان هو، حتى مجيء حافظ الأسد، من يعين رؤساء ويعزل رؤساء ويعيد رؤساء إلى الحكم، علماً أن أغلبية الاضطرابات التي عاناها الجيش، أو تسبب فيها، كـ «الانقلابات والانقلابات المضادة بين عامي 1949 و 1962، كانت ... بسبب السياسة الخارجية السورية»⁽¹⁶⁸⁾؛ فهو الس الوحدة مع العراق أو مع مصر، والحرب مع العدو الصهيوني، كلها عوامل خارجية كان لها الأثر الكبير في أفعال الجيش السوري وردات فعله.

انطلاقاً من التهديد الذي مثله الجيش ضد الحياة السياسية، عمل نظام البعث بقيادة الـ الأسد على الاستحواذ على الجيش، وتحويله إلى جيش يخدم الدولة وحرب البعث طهرانياً، لكنه كان في الواقع يخدم مصالح الطائفة العلوية عموماً ويحرسها، وأسرة الأسد ومفريه حصوفاً؛ «لقد أدرك حافظ الأسد في الثلث الأخير من القرن العشرين أن الشق الحزبي - المدني هو الحفة الأصعب بين الفئات المتصارعة على السلطة،

فأعطى لمؤسساته نمطاً شكلياً يقتصر على قطاع محدود في أجهزة الإدارة والحكم، وجعل توازن النظام يقوم على مؤسسة عسكرية تنسط بقودا واسعا، من خلال تشكيل فرق عسكرية متخصصة في حماية النظام، ومؤسسات أمنية تهيمن على الحياة العامة. واعتمد في ذلك على العصر الطائفي - العشائري - العائلي لأنه يعتبر الأكثر صمناً بالنسبة إلى تحقيق معادلة التوازن الصعبة داخل المؤسسة العسكرية»^(١٦٩)؛ فالتركيبة السحرية التي اعتمدها حافظ الأسد، وعمل على تحسيدها في سورية، كانت قائمة على الدمج بين الدولة ممثلة في الحرب، والقوات المسلحة ممثلة في الجيش والقوات الأمنية المختلفة، والطائفة ممثلة في العلويين النصيريين. بهذا، تمكن من تشكيل نظام سياسي متصامم بصورة عضوية على أساس القرابة العائلية، ثم تأتي بعد العائلة العشيرة والطائفة؛ فالعائلة في سورية هي «المصدر الأول للولاء، ثم تأتي القبيلة أو المجموعة الدينية، ثم الجهة»^(١٧٠)، ويبدأ العداء واستراتيجيات الاحتواء، وكل من كان خارج دوائر العائلة والقبيلة والطائفة والجهة لا يصلح إلا للاحتواء وخدمة النظام بانضباط وصمت. وفي حال التفكير في غير ذلك، يكون الفهم بأشد الصور قسوة، كما حدث في مدينة حماة سابقاً، ويحدث الآن في سورية بأسرها.

إن أهم ما ميز الصراع على السلطة في سورية هو استخدام الجيش من الطوائف والإثنيات السورية المختلفة، من أجل السيطرة على الحكم ورسم المعالم الكبرى للدولة السورية. أدت هذه الحروب الساحة والباردة بين مختلف مكونات المجتمع السوري، إلى انحراط الجيش في السياسة بشكل قوي، الأمر الذي أدى بدوره إلى إضعاف كل من الدولة والجيش؛ إذ ابنت الحروب مع الكيان الصهيوني مدى هشاشة هذه القوات، حيث عجزت عن الدفاع عن الوحدة الترابية السورية. ولا تزال مناطق كبيرة من الجولان السوري، تحت الاحتلال الصهيوني، من دون أن يتجرأ الجيش إلى اليوم حتى بالتهديد باستردادها.

سنوضح، في ما يلي، الأوضاع الجيو استراتيجيه والإثنيه والطائفية التي جعلت الجيش النظامي السوري يعتمد هذا الشكل من التسيير بالنسبة إلى العلاقات المدنية - العسكرية.

على الرغم من تمكن الأسد الأب من إيجاد التوليفة التي سمحت له بصمان السيطرة على الحكم، فإن العلاقات العسكرية المدنية كانت تعاني اضطراباً مزمناً. وعانى النظام في سورية خلال حكمه تعدد مصادر السلطة؛ فوجد أن الرئاسة والحرب

والجيش والحكومة والطائفة والعائلة، وهي مصادر - وإن توحدت بالنسبة إلى الولاء للرئيس - ادخلتها أطماعها ومصالحها الشخصية، ونظاعاتها التي بدأت تتصحم نتيجة استتباب الأمن في البلد، في صراعات سلطة، تشبه إلى حد ما الصراعات والحروب المافيوية.

كانت البداية مع شقيق حافظ الأسد، رفعت، الذي تدرّج برفض تعيين شخصيات غير علوية في لجنة إدارة شؤون البلد التي خلعت الرئيس حافظ الأسد بعد مرضه. فقد تمردًا عسكريًا كان للعائلة والطائفة دور محوري في بدايته وفي نهايته. من جهة أخرى، كان قادة الجيش يقايمون ولاءهم المطلق لحافظ الأسد بالامتيازات القانونية وغير القانونية، حيث كانت محاولة الاعتراض عليها تعني الدخول في مواجهة مباشرة مع الضباط، مهما كانت قوة الجهة المتدخلة، فكانت تنتهي هذه المواجهات عادة بحرائم خطيرة، وحتى بإسقاط رؤساء حكومات ووزراء، فالجيش وإن بدا حارح السياسة، كان اللاعب الأساس في الحلبة السياسية.

2 - عندما تؤسس الطائفة دولة في سورية

تعرف سورية تنوعًا طائفيًا وإثنيًا كبيرًا ومؤثرًا في الحياتين الاجتماعية والسياسية⁽¹⁷¹⁾؛ فعلى المستوى الديني، هناك أغلبية مسلمة وأقلية مسيحية، وينقسم المسلمون إلى أغلبية سنية، تنقسم إلى صوفييين معتدلين وأخوان مسلمين وسلفيين وهابيين متطرفين، وأقلية شيعية تنقسم إلى علويين نصيريين وإسماعيليين وأثني عشريين، وهناك، إضافة إلى هذا كله، الطائفة الدرزية. على المستوى الإثني، يتوزع السكان في خريطة إثنية معقدة، فيها أغلبية عربية وأقليات كردية وأرمنية وتركمانية وشركسية وأشورية وارامية. وعلى هذين المسنويين، تمثل سورية واحدة من أكثر دول الشرق الأوسط تعقيدًا بتنوعها الطائفي والإثني⁽¹⁷²⁾.

لا يتوقف هذا التنوع عند المستويات الثقافية والأنثروبولوجية، بل يتعداها إلى الصراع على مصادر السلطة بمظاهرها المختلفة: السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية والسلطة الثقافية؛ فالمنتبع لسلسلة الانقلابات التي ميزت سورية، يدرك أنها حركات استثمرت بوضوح في هذا التنوع؛ إذ كثيرًا ما تصف المراجع أن هذا الانقلاب قامت به مجموعة من الضباط السنة، وذاك قامت به مجموعة من الضباط النصيريين أو

مجموعة من الصباط الدروز، فكانت الهوية الدينية لقادة الانقلابات من أهم المؤشرات التي يبحث عنها المحللون عند بلوغ خبر الانقلاب.

من هنا، يمكننا التشديد على وجود استقطاب سني - شيعي، وبشكل أكثر دقة، سني - علوي، فالسنة هم الأغلبية في سورية، في حين تمثل الطائفة العلوية أقلية شيعية أصبح لها تأثير كبير في الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية السورية بعد وصول حافظ الأسد إلى السلطة.

من المهم الإشارة هنا إلى أن العلوية النصيرية كانت طائفة مندوذة من الشيعة، إلا أن «المجامع الفقهية الشيعية اعتبرت فرغاً من فروع الشيعة التي يجب استعادتها إلى مجال العقيدة الاثني عشرية»⁽¹⁷³⁾. يمكننا تفسير هذا التحول الفقهي في موقف الشيعة الاثني عشرية من العلويين بحاجة شيعة إيران إلى ربط محور طهران - بيروت، من خلال مركز ثالث مهم واستراتيجي، يتمثل في دمشق. من هنا، يمكننا اعتبار هذا التحول الفقهي استثماراً استراتيجياً في «طائفة مهمشة وفيرة، تمكنت من دفع بعض أفرادها إلى الاستيلاء على السلطة بفصل الجيش في إطار بروز العصية الحوذية، وفي إطار مسيرتهم للسيطرة على السلطة والدولة»⁽¹⁷⁴⁾. من هذا المطلق، أصبحت الطائفة عنصراً مركزياً من عناصر السلطة في سورية، وفي الشام بصفة عامة.

عندما استقر الأمر بيد حافظ الأسد، البعثي العلوي، فُكر شكل جدي في كيفية استثمار هذا التنوع الطائفي من أجل المحافظة على نظامه وسلطته. وكانت المعضلة الأساسية التي واجهت نظامه هي كيف يتحكم في بلد أغليته سنة ولا «يمثل العلويون فيه إلا حوالي 12 في المئة»⁽¹⁷⁵⁾، وبطبيعة الحال، سيستعين بالقوات المسلحة والقوات الأمنية. ولكن، هنا أيضاً واجهته معضلة ثانية: إذا كانت أغلبية السكان سنة، ولأكيد أن أغلبية المخرطين في الجيش سيكونون من السنة، ومن هنا، كان يجب عليه البحث عن الكيفية التي تمكنه من التحكم في جيش مكون من أغلبية سنية من دون اصعافه⁽¹⁷⁶⁾، خصوصاً مع التهديدات الإقليمية التي تواجهه، من الكيان الصهيوني بسبب احتلال فلسطين والجزولان وأطماع اليهود التوسعية، ومن العراق وتركيا بسبب الأزمة الكردية، ومن لبنان بسبب الحرب الأهلية والطائفية اللبنانية.

يسيطر العلويون المقربون من النظام السوري على أغلبية قيادات الجيش العليا. وجاء قرار حافظ الأسد، و«من دون وجود نصوص مكتوبة، أن القوات الأساسية كلها تكون تحت قيادة ضابط علوي، على الرغم من وجود كثير من الصباط السنة، ولا سيما

أولئك الوافدين من المناطق الريفية. أكثر من هذا، عُرف الرئيس حافظ الأسد بتعيين قادة الجيش على أساس قرابته أو طائفته أو الولاء له، فيصنعهم في القوات والمواقع الاستراتيجية»⁽¹⁷⁷⁾؛ فالتوجه العام للجيش كان منصباً على استقطاب أكبر عدد ممكن من العلويين في القوات العاملة، ومساعدتهم على الترقية والتقدم في درجات على السلم التراتبي، بحيث تكون القيادات العليا في نهاية المطاف تحت سيطرتهم.

«أدى العماد علي أصلاً دوراً بارزاً في تجنيد أبناء العشائر العلوية في فرق الحبة العسكرية التي تتمتع بأفضل تدريب وأحدث معدات. وأوكلت إليها مهمة حماية القصر الرئاسي ومباني الحكومة ومسكن المسؤولين. وتنتشر [هذه الفرق] على قمة جبل قاسيوس وعلى مداخل مدينة دمشق وفي محيطها، حيث يشير حاضناتها إلى أن قيادة الجيش السوري قامت بتجنيد أعداد كبيرة من ضباط الصف وجنود الحبة العسكرية من عشيرة المتاوررة التي ينتمي إليها حفظ الأسد، وبالدات من القرادحة والقرى (المحيطة بها)»⁽¹⁷⁸⁾.

يعكس هذا التوجه عملاً ممنهجاً خطط له حافظ الأسد، حتى يُنقى على سيطرته الكاملة على الدولة والجيش، الأمر الذي يمكنه من التحكم في باقي الطوائف، حتى وإن كانت تمثل الأغلبية؛ ففي مثل هذه الأوضاع، توقف «الجيش السوري عن الظهور كجيش، وما عاد أفراداً محكومين ولا محميين بقوانينه، وعمَّ انعدام الثقة بين الضباط، وأصبح الانتماء الطائفي والإثني هو المعيار الرئيس لتشكيل سلك الضباط، خصوصاً بعد أن أقرت مجموعة سرية من الضباط، تسمى نفسها «اللجنة العسكرية»، بأن هذه الرؤية الجديدة في تسيير الجيش هي السبيل الوحيد لاستمرار نجاح نشاط العسكر السياسي. لقد فهموا أن العلاقات الإثنية والجهوية والقروية والعائلية يمكن أن تقوّي تحالفهم الأيديولوجي وتؤكد، وإن تعطيهم استقاة استراتيجية على جميع منافسيهم»⁽¹⁷⁹⁾.

اعتمد حافظ الأسد نظاماً علمانياً حاصلاً، يعتمد في الظاهر على الحرية الدينية التي يكفلها الدستور لجميع الطوائف الدينية. وينص دستور عام 1973، في مادته 35، على ضمان حرية المعتقد واحترام الدولة جميع الديانات، وممارسة حرية العبادة، وهذا في حدود احترام النظام العام. إلا أن النظام السوري كان حريصاً على عدم إظهار هذا التنوع الطائفي بحجة القومية العربية الموحدة؛ فعلى الرغم من تغلغل التنوع الديني والطائفي في التقاليد الاجتماعية، فإنه «لم يكن حاصراً بالنسبة إلى النظام، إلا في خطائته وشعاراته الوحشية. فلم يكن لفاعلي هذا التنوع والرهانات

التي يطرحها أي وجود في الفضاء العمومي السوري، إلا في حالة استعماله في الدعم التوافقي للنظام السوري، حيث لا تُذكر الطوائف المختلفة بشكل واضح ومباشر كفاعلين اجتماعيين، لا من النظام ولا من الطوائف المعنية⁽¹⁸⁰⁾. وهذا يعني أن الجميع كان يعيش حياته كطائفي مختلف عن باقي الطوائف، ويتصامن بالطرائق والوسائل كافة مع أبناء طائفته، ويتظاهر في الوقت نفسه بأن سوريته وعروبته تعلوان أي دين وإثنية آخرين.

تعامل النظام مع هذا التنوع الطائفي بتطوير آلية انتفاية دقيقة جدًا، نتج منها أن أصبح معظم الجيود الاحتياطيين من السنة، بينما كان الجيود العاملون من العلويين، بنسبة تفوق 70 في المئة، في حين تتعدى نسبة الضباط العلويين في الجيش العربي السوري الـ 90 في المئة⁽¹⁸¹⁾. من جهة أخرى، كانت قوات النخبة مخصصة بشكل حصري للعلويين، وحتى في القوات التي يكون فيها «تفوق عددي للسنة، عمل النظام على جعل هذه القوات تحت رقابة العلويين؛ ففي القوات الجوية، مثلاً، حيث نجد أن معظم الطيارين كانوا من السنة، سيطر العلويين على جميع المصالح الارضية واللوجيستية والمحابر اتية الضرورية لعمل القوات الجوية»⁽¹⁸²⁾. أما ادعاء علمانية الدولة السورية، كما يقول الدستور، فتكّبه المعطيات الميدانية، إذ توضح هذه الأرقام انحياز النظام، وحاكمه، إلى الطائفة الدينية التي ينتمي إليها، فـ «قبل أن يقوم النظام بتشييع عقيده العلمانية (تحويلها إلى المذهب الشيعي) عمد، وبشكل غير معلن، إلى صمان تفوق طائفته في جميع الأجهزة العسكرية والأمنية للدولة»⁽¹⁸³⁾.

في مقابل هذه المعاملة التفصيلية للعلويين، تعامل النظام بكل ما أوتي من قوة مع باقي الطوائف والإثنيات، حيث تنقّى محزنة حماة في عام 1980 ضد المنتمين إلى حركة الإخوان المسلمين في هذه المدينة، واحدة من أكثر جرائم النظام، وهي التي حاول من خلالها ردع خصومه ودفعهم إلى التعقل والتفكير بروية قبل أي محاولة لمعارضته بشكل حقيقي وجدي.

ستعكس هذه الطريقة في تسيير العلاقات بين الحاكم ومختلف الطوائف على آلية الوقاية من الانقلاب، وبالتالي على ردة فعل الجيش تجاه «الثورة» السورية، كما سنبين في ما يلي.

3 - آلية الوقاية من الانقلابات و انعكاساتها

عرفت سورية، بعد نهاية فترة الانتداب، حالة من الفوضى عدم الاستقرار والصراع على السلطة، ما جعلها تسقط في مسلسل من الانقلابات والانقلابات المضادة؛ ففي الفترة الممتدة بين «سنة 1949 وحتى 1970، حدث في سورية واحد وعشرون انقلاباً ومحاولة انقلابية وحركة تمرد أو عصيان، قام بها بعض صباط الجيش السوري. أما السنوات الثلاثون المتبقية من تاريخ سورية في القرن العشرين، فلم تشهد سوى محاولة انقلابية واحدة قُمت بهدوء. فقد تولى الفريق حافظ الأسد رئاسة الجمهورية طوال الفترة بين 1971 و 2000. وفرص نظام حكم يقوم على الدمج بين حزب البعث والقوات المسلحة للهيمنة على مؤسسات الحكم المدني»⁽¹⁸⁴⁾.

يبنى هذا التحول من الفوضى الى الاستقرار في عهد آل الأسد، الجهد الكبير الذي بذله النظام السوري للبحث في كيفية ضمان ولاء الجيش، ولا سيما أن هذا الجيش يتشكل من أفراد وصباط غير متجانسين، ويمكن بسهولة تعيير ولائهم بحوثاتهم أو بثبتهم. تتلخص الآلية السورية للوقاية من الانقلاب في السعي إلى دمج الجيش والنظام السياسي في كيان واحد ومتضامن عصويًا، إلى درجة أن أفراد الجيش أصبحوا يعتقدون، كما توضحه نتائج الحرب الأهلية، أن نجاتهم مرتبطة بشكل عصوي ببجاء النظام⁽¹⁸⁵⁾. وقام النظام بهيكلية الجيش على شكل نواة ومحيط، فخصص نواة الجيش للقوات العاملة والصباط العلويين، أو للذين يضمن النظام ولائهم بسببة تساوي أو تقارب 100 في المئة؛ «فالتجنيد والترقيات كانت تتم على أساس الولاء لا على أساس المهارات والاستحقاق»⁽¹⁸⁶⁾. أما محيط النواة الذي كان يمكن أن يتشكل من عناصر ومن إثنيات أخرى، فكان يعمل تحت رقابة شديدة ومقربة من النواة العلوية؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر، «عين النظام العلوي صباطًا سنّة ومن أقليات أخرى في مناصب مهمة، لكنه وضعهم في جهات بعيدة من مناطقهم، ووضع معهم ما يشبه «كلب الحراسة» من الصباط العلويين كنواب لهم، أو في مناصب موازية لمناصبهم»⁽¹⁸⁷⁾. وبهذا يمكن القول إن آل الأسد حصلوا على جيش علوي قوي مغلف بعشائر عربي سنّي هش وضعيف نسبيًا.

إضافة إلى ما سبق، قسم النظام السوري الجيش إلى وحدات عدة متداخلة من حيث المسؤولية والتوزيع على الأرض، بحيث يمكن أن يكون هناك أكثر من قوة وأكثر من

وحدة، في المنطقة والعايات نفسها، «فالوفرة تساعد على تقوية الولاء» كما يقول تايلور⁽¹⁸⁸⁾. ودعم النظام الوحدات العسكرية المختلفة بكثير من المديريات المحابرانية المتقاطعة والمتداخلة والمتصلة بشكل مباشر بمركز السلطة، فنجد «أربع مديريات استخباراتية: المحابرات العسكرية ومخبرات القوات الحوية وأمن الدولة والأمن السياسي. المديريتان الأولى والثانية يقودهما العلويون، بينما يقود السنة الثالثة والرابعة»⁽¹⁸⁹⁾. بهذا الشكل، ضمن آل الأسد القدرة على التحكم في جميع مفاصل الجيش والدولة؛ فجميع المعلومات، مهما كانت صغيرة أو كبيرة، كانت تصل إلى أعلى هرم السلطة بأكثر من طريقة وقناة، وبأكثر من سرعة واحدة.

تبين لنا من خلال تحليل الآلية السورية للوقاية من الانقلاب، أن النظام عمد إلى دمج نواة الجيش الصلبة في النظام، بحيث أصبحت نواة الواحد منهما مرتبطة بنجاة الآخر. لذلك، استمات الجيش في الدفاع عن النظام إلى اليوم. وفي المقابل، يستमित النظام في الدفاع عن الجيش ودعمه بمختلف مصادر القوة والتسلح والتحالفات الخارجية والأجنبية.

ساهم اعتماد النظام السوري على الانتقائية الطائفية في تسيير اليته للوقاية من الانقلاب، في تثبيت أقدام النظام السوري. وفي تمرير مبدأ التوريث في نظام يزعم أنه جمهوري، من دون أي مقاومة. كما أن هذه الآلية هي التي مكنت الجيش من الحفاظ على وحدته بعد «الثورة»، ولم تحدث انهيارات أو انشقاقات كبرى كنتك التي عرفها جيشا ليبيا واليمن مثلاً؛ «فالرئيس كان يصمم الولاء من خلال تأطير الأجهزة الأمنية بعناصر من الطائفة العلوية، على الرغم من أنها لا تشكل إلا 10 في المئة من عموم المجتمع السوري. يشكل العلويين قرابة 90 في المئة من الضباط و 70 في المئة من الجنود العاملين، في الوقت الذي يشكلون فيه، وبشكل حصري، جميع وحدات الحرس الجمهوري والفرقة المدرعة الرابعة وأجهزة الاستخبارات»⁽¹⁹⁰⁾. وبهذا يكون الرئيس قد ضمن ولاء القوات الأساسية وقوات النخبة، الأمر الذي يرغم باقي القوات على الانخراط في مقاربة النظام خوفاً من ردة فعله، أو طمعا في سحائه وكرمه.

لم يكن بناء هذه الآلية المعقدة أمراً هيئياً، خصوصاً إذا أخذنا في الحسبان حجم الطائفية العلوية بالنسبة إلى السنة، وإلى باقي الطوائف والإثنيات. لكن آل الأسد تمكنوا، خلال فترة حكمهم، من «تثبيت العلويين في المراكز القيادية وفي الأجهزة اللوجستية الحوية، واستطاعوا إضعاف تأثير السنة في أجهزة الأمن، وضمان الهيمنة

لئن ساهمت هذه الآلية في تقوية الولاء للنظام، فإنها أضعفت قدرات الجيش التكتيكية، وبالتالي أبطأت حركته. كما أن ربط جميع القرارات بالمركز، ممثلاً بالرئيس، جعل قدرة الجيش على الماورة، في الوضعيات الحفيفية، غير فعالة. وتسبب «اعتماد النظام السوري على سياسة انتقاء الضباط السوريين من الأعلى إلى أسفل على أساس الانتماء الديني ما بين 1960 و 1970 بأن أصبحت الوحدات غير فعالة، وغير قادرة على التصرف بشكل مستقل»⁽¹⁹²⁾، وهذا ما أنستته الحروب العربية مع الكيان الصهيوني؛ إذ كانت الوحدات الفئالية الميدانية عاجزة عن اتخاذ القرارات المصيرية من دون العودة إلى القيادة المركزية، الأمر الذي أعطى العدو أسبغية المداورة وحرية الماورة، فكانت النتيجة المعروفة، والمتمثلة في النكسات المتوالية. من جهة أخرى، نبّئت لنا تدخلات الجيش في محريات الحراك الشعبي قدرة الجيش السوري على الحفاظ على وحدته وتماسكه، لكن هذه الوحدة وهذا التماسك ينفيان بلا فائدة، لأن الجيش عجز، إلى اليوم، وعلى الرغم من الدعم الروسي والإيراني ومشاركة مقاتلي حزب الله اللبناني، عن حسم الأمور ميدانياً.

4- ردة فعل الجيش على «الثورة»، ونتائجها

بعد اندلاع «الثورة» السورية مباشرة، رد الأسد بالاعتماد على الحل الأمني من خلال قمع المتظاهرين بقوة، ومن دون مراعاة صغوبات المحيط الدولي. من الناحية التكتيكية، نقل النظام قواته إلى المناطق التي اندلعت فيها التظاهرات وعمليات العنف، وأعطيت الأوامر للجو والصباط بإطلاق النار بمختلف الأسلحة¹⁹³، فكانت ردة فعل النظام على المحتجين قوية وعنيفة بجميع المقاييس. ولم يتزدد النظام في إعلان تعبئة شاملة لجميع القوات المسلحة والأمنية من أجل وضع حد للتمرد. كانت ردة فعل الجيش منسجمة مع قرارات النظام؛ فالجيش يدافع عن النظام، لا لأنه مصدر رزقه فحسب، بل لأنه مصدر وجوده أيضاً. فدهاب النظام يعني دهاب الجيش، خصوصاً إذا علمنا أن المناطق العلوية هي في العادة مناطق جبلية محرومة ومهملة وفيرة، حيث يُعتبر الجيش مصدر عيشها الأساس، إن لم نقل المصدر الأول والوحيد. كان اخراط الجيش بحماسة في مخطط النظام لقمع الثوار نتيجة حتمية ومعروفة،

بالنظر إلى الطريقة التي استخدمها النظام في تسيير المسائل الطائفية والإثنية. وبفعل آلية الوقاية من الانقلاب التي اعتمدها النظام، أصبحت «مكونات القوات المسلحة كلها مراقبة بشكل دقيق من أعوان النظام في سورية. إضافة إلى هذا، لم تكن الانتفاضة معيئة، بل كانت محدودة ومحصورة في الحجم وفي النطاق فترات طويلة نسبياً، الأمر الذي أثر كثيراً في سير المواجهة بين النظام والمنتفضين»⁽¹⁹⁴⁾. وسمحت هذه المعطيات للجيش و النظام السوريين بإعادة تنظيم صفوفهما، وتجاوز الصدمة الأولى التي أحدثتها «الثورة» في بداياتها. ونجح النظام في ضمان وحدة الجيش رغم تفقد مكوناته، وهذا ما ساعد النظام السوري منذ أكثر من ستة أعوام على مقاومة حميع الضغوط التي مورست عليه، إن سياسياً أو عسكرياً أو اقتصادياً.

بعد مدة من بدء العنف وتطوره في سورية، بدأت بوادر الانشقاقات في الجيش السوري، من خلال فرار عدد من الأفراد والضباط من الخدمة والالتحاق بالثورة. إلا أن هذه النشاطات كانت محدودة وفردية، تقومها جوب كما يلي: «حقيقة، إن حوالي 3 في المئة من الجنود فروا من الخدمة، لكن لا أحد منهم كان من القيادات العليا؛ فالفرار حدث عموماً في صفوف الضباط الصغار والجنود، وهذا بكل المفاييس ظاهرة عادية خلال الحرب؛ فالقوات المسلحة الأميركية مثلاً، عرفت نسبة فرار تقدر بـ 2 في المئة في عام 2006. والأعداد تؤخذ بعين الاعتبار ضمن سياقها التاريخي»⁽¹⁹⁵⁾. يُظهر هذا التقويم أن الجيش السوري ظل محافظاً على توازنه وقوته ووحدته وانسجامه، على الرغم من طول فترة الصراع. ولا يبدو في الأفق القريب أن لدى هذا الجيش بية لتغيير مسار المعركة في غير الاتجاه الذي يريده النظام.

من جهة أخرى، استفاد الجيش السوري من ضعف المعارضة وقواتها، ومن نشيتها وعدم انسجامها؛ فبقدر ما كانت نواته قوية ومنسجمة، كانت قوات المعارضة ضعيفة وغير منسجمة؛ إذ تتكون هذه القوات من بعض الجنود الفارين من خدمة الجيش النظامي، والمدربين بشكل احترافي، ومن المدنيين الذي حملوا السلاح ضد النظام، ومن عدد من المقاتلين الأجانب، الذين أصبحوا مصدر إصعاف للمعارضة بعدما جاعوا لتقوية «الثورة» السورية. وهذا ما جعل قوات الثوار قليلة الانسجام في ما يحص التعبئة السياسية والعسكرية، وبات الثوار غير قادرين على قيادة قوات كبيرة على الأرض⁽¹⁹⁶⁾. وما أثنته المتابعة التاريخية للصراع السوري، هو أن عامل الوقت كان دائماً يصب في مصلحة النظام، الذي عرف كيف يعيد ترتيب صفوفه، وتنظيم

وحداته، ويقوي تحالفاته. في المقابل، كان الوقت ضد المعارضة، التي لم نردها استدامة الصراع الا صغفًا وتشتتًا وفقدانًا للثقة عند المدنيين، الذين أصبحوا يشكون في قدرة الثوار على الخروج من هذه الورطة بسلام. في هذا الصدد، يقوم وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف بالحالة العسكرية للثوار بالقول: «أصبح واضحًا كالنهار، أن حتى لو دُججت قوات المعارضة بالسلاح، فإنها لن تهزم الجيش السوري، ولن يكون هناك إلا النجح والتدمير المتبادل فترة طويلة جدًّا»⁽¹⁹⁷⁾.

إضافة إلى الحرب الأهلية العسكرية، برزت على الساحة حرب أهلية أيديولوجية طائفية، حاولت المعارضة من خلالها كسب مزيد من التعاطف والدعم الخارجي، في حين سعى النظام من خلالها إلى تقويت المعارضة وإضعافها، وربطها بالنشاط الإرهابي، قصد تبرير عصف الرد العسكري النظامي وشراسته ضد معارصيه.

«حاول النظام منذ البداية حصر توحه معارصيه في لون ديني واحد؛ فالتيحة المرحوة من طبع المعارضة بالصيغة السنّية كانت مبروحة: تعلق الأمر في البداية بتقسيم الصوف، وتنشيط المعارصين غير السنّة. وثانيًا، من أجل تقريغ 'الثورة' من الشحنة السياسية، ومن ثم برع الثقة منها عن طريق الترويج للنزعة العدوانية العالمية لمجموعات المعارضة، وبالتالي تخويف الرأي العام العربي، فرجّ المعارضة في ركن الطائفية سيدعم دور المدافع عن اللانكية التي أعطاهها النظام لنفسه»⁽¹⁹⁸⁾، عن حق و/أو عن غير حق.

حاول النظام السوري، بكل ما أوتي من قوة، حصر حربه ضد المعارضة ضمن حانة الحرب على الإرهاب. وقدم تعريفه الخاص للصراع على أنه صراع بين دولة علمانية يملكها هو، ومعارضة إسلامية منطرفة. كما سعى إلى تسويق هذه الفكرة على المستوى العالمي، بعرض تحويف الصعظ الدولي القوي الذي مورس صده. لكن الصبغة الطائفية للجيش، ومشاركة مقاتلي حزب الله في الصراع من بديته، ودعم إيران المعلن، سرعان ما حول ذلك كله الصراع السوري إلى «صراع بين إسلاميين سنّة من جهة، وإسلاميين شيعة من جهة ثانية»⁽¹⁹⁹⁾، الأمر الذي قرأه المجتمع الدولي العربي، محاولات النموية التي يقوم بها، كحرب بين إرهاب إسلامي شيوعي وإرهاب إسلامي سنّي. من هنا، كانت مشروعات حل هذا النزاع مترددة وغامضة وغير صادقة، الأمر الذي ساهم في استدامة الأزمة وماسي الشعب السوري، حتى أصبح واضحًا الآن أن ليس هناك رغبة حقيقية للمجتمع الدولي في العمل على حل هذه

الأزمة في الوقت الراهن، في الأقل.

كانت نتيجة القبضة الحديد التي واجه بها النظام الثوار، كارثية على الشعب، وعلى الدولة ككل؛ إذ تحول الصراع السوري الذي بدأ بتظاهرات سلمية في 26 كانون الثاني/يناير 2011، إلى أكثر الصراعات دموية عرفته المنطقة؛ و«القوات المسلحة للجيش النظامي والثوار تكبدت، منذ بداية الصراع، خسائر تفوق 9000 مسلح»⁽²⁰⁰⁾، وقرابة 200,000 ضحية مدنية. وحولت أكثر من نصف السكان إلى لاجئين، بعدما دمرت مدنها بشكل شبه كلي. إن توجه سورية إلى الانضمام إلى نادي الدول العاشلة، أصبح محتوماً، وهذا بسبب الاندماج القوي بين النظام والقوات المسلحة، بينما مفتاح الأزمة السورية ليس في الحرب ولا في الحوار، وإنما في فك الارتباط القوي بين النظام والقوات المسلحة؛ فتحتية النظام السوري، وإعطاء الجيش السوري ضمانات بالمحافظة عليه شريطة تغيير عقيدته وأيديولوجيته، يمكن أن يكونا بداية الحل الذي سيجنب سورية تجربة ليبيا والعراق واليمن.

رابعاً: الجيش اليمني بين القبيلة والطائفة والأيدولوجيا

يتشكل الجيش اليمني، بحسب إحصاءات عام 2010، من 66,700 جندي عامل، منهم 60,000 في القوات البرية و 1700 في القوات البحرية و 3000 في القوات الحوية و 2000 قوات الدفاع الحوي. كما يوجد حوالي 71,200 من شبه العسكريين. وتتوهم مدة خدمة الاحتياطيين عامين⁽²⁰¹⁾.

تمثل الحالة اليمنية مريخاً من الحالات التي سبق ذكرها، وهي من حيث التنوع الطائفي والإثني، تشبه الحالة السورية إلى حد ما. أما من حيث الاستراتيجيات المعتمدة من النظام في تسيير العلاقات العسكرية - المدنية، فهي تشبه إلى حد ما الحالة الليبية، من حيث سعي الحاكم إلى إضعاف الجيش. ومن المهم دراسة هذه الحالة من خلال الآلية التحليلية المعتمدة، لأنها ستوفر لنا معرفة جديدة وقراءة مختلفة للعلاقات العسكرية - المدنية العاشلة، والتي تساهم اليوم، وبلا شك، في مأساة شعب وإفشال بلد بالكامل.

٦ - الجيش اليمني وبناء الدولة

يمثل اليمن السعيد، كما يُلقَّب، الحلقة الضعيفة في الشرق الأوسط عمومًا، وفي الخليج العربي خصوصًا؛ فهو كان دائمًا يعامل على أنه الأخت القاصرة بالنسبة إلى دول مجلس التعاون الخليجي. تميز هذا البلد، عبر تاريخه الحديث والمعاصر في الأقل، بعدم استقرار شبه دائم، وبزراعات مسلحة شبه مستمرة، وبفقر مدقع. فالمكانة الاستراتيجية التي يحتلها اليمن في مدخل البحر الأحمر والمحيط الهادئ، لم تشفع له، بل كانت نقمة على البلد والشعب على حد سواء، ولم تحقق له ما يمكن أن يسمح بوصفه باليمن السعيد فعلاً. فهو ظل ضحية موقعه الاستراتيجي الذي يربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب، الأمر الذي دفع الرئيس السابق علي عبد الله صالح إلى وصف الحكم في بلده بأنه «رقص على رؤوس الثعابين»⁽²⁰²⁾، دلالة على الحذر والحيلة الدائمين والمستمرين، ومن الجميع.

إن مجرد متابعة مسار بناء الدولة وتحليله أمر معقد بالنسبة إلى الحالة اليمنية؛ فهذا المسار أقرب إلى الهدم منه إلى البناء، فـ «سواء في الشمال أو في الجنوب، كان بروز النظامين في اليمنيين ردة فعل على الفوضى التي ميزت القرن العشرين؛ ففي الجنوب، اعتبرت القوات الاستعمارية أن مشكلة اليمن قبلية أساسًا، في حين أنها في الشمال فوضى ناتجة من الصراع بين الإمامية والعثمانيين، وهي كانت على أساس الملكية الأخلاقية للبلد، لا على أساس صراع قبلي بين القبائل والنظام»⁽²⁰³⁾. نتيجة لهذا كله، ونتيجة لضعف الموارد الاقتصادية اليمنية، عرف اليمن شمالًا وجنوبًا صراعات كثيرة أثرت في تطوره ونموه، ما رهن البلد في حالة من الفقر وعدم الاستقرار.

مع التنوع القبلي الذي أثر كثيرًا في هذا المسار، نجد التنوع الطائفي الذي أدى دورًا مهمًا في عدم الاستقرار والأمن في اليمن طوال تاريخه الحديث والمعاصر، وهما ما عرف بهما اليمن مثلما عرف بتطورات سريعة وحاسمة نقلته من النقيض إلى النقيض؛ إذ يمكن أن نلاحظ أنه «انتقل من الإمامة إلى الجمهورية، الأمر الذي تلتته الانتفاضات السياسية والحروب الأهلية، وأخيرًا الوحدة»⁽²⁰⁴⁾.

بعد سقوط الدولة العثمانية، أسس الشيعة الزيدية بقيادة الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم نظام حكم مؤسس على الإمامة. وتبقى قصة العلاقة بين الإمامة والليبراليين شبه خيالية؛ فـ «قبل تأسيس الجمهورية العربية اليمنية، كان اليمن ضعيفًا ومعزولًا

عن التأثير الخارجي من طرف الحاكم الديني الإمام يحيى وابنه أحمد. وخلال الفترة الممتدة بين عامي 1940 و 1950، اختار الإمام يحيى مجموعة من 40 مرافقا، أغلبهم من الأيتام، وأرسلهم للدراسة في الخارج بمرص للتكوين والعودة إلى اليمن لخدمة الإدارة. أشرف على مجموعة الـ 40 ممثل الشؤون الخارجية عند الرحمن بيداني، الذي كان في القاهرة آنذاك. درس المبتعثون في جامعات مختلفة، في القاهرة ولبان وأوروبا العربية والولايات المتحدة. وبدلاً من العودة إلى اليمن لخدمة حكومة الإمام، فإن أغلبية هؤلاء الطلبة، يضاف إليهم مئات الطلبة الآخرين الذين سافروا بمالهم الخاص، شكلوا ما يُعرف بشبكة «اليمن الحر» للمهاجرين. في بداية الخمسينيات كان لحركة «اليمن الحر» نور أساس في تنظيم المعارضة المناهضة للحكم الشمولي للإمامية اليمنية، لتصبح في نهاية المطاف الإمام المعين حديثاً محمد النذر في 26 أيلول/سبتمبر 1962⁽²⁰⁵⁾. وعمل هؤلاء المبتعثون الـ 40، الذين أصبحوا يُدعون بالليبراليين، بالتعاون مع صباط الجيش بشكل مستمر، على إراحة نظام الإمامة التقليدي والرجعي، لتعويضه بالنظام الجمهوري الحديث. لكن للصراعات القبلية والأيدولوجية ادخلت البلاد في حرب أهلية وإقليمية، وقفت فيها دول الخليج، وعلى رأسها العربية السعودية، إلى جانب الإمام وحلفائه، بينما وقفت مصر مع الانقلابيين، إلى أن استتب لهم الأمر.

كان يُعزى أن يودي تأسيس الدولة الوطنية الحديثة على الأسس الجمهورية إلى تفكيك جميع البنى التقليدية التي هيمنت على اليمن من قبل، أي التنظيم الإثني القبلي، والتنظيم الملكي، والتنظيم الديني الطائفي. لكن شيئا من هذا لم يحدث؛ والعلاقات بين الحاكم الجمهوري وبقايا النظام الملكي والقبيلة من جهة، والطائفة من جهة أخرى، هي التي تحكمت بشكل كبير في صوغ التاريخ الحديث والمعاصر لليمن. وفي موازاة هذه التطورات، بدأ الجيش في البروز كمؤسسة غير تقليدية، إذ «أصبح الجيش مهماً، وتطور من حيث الحجم والانسجام، وأصبح الديوان المركزي للأمن الوطني، ولأعوام عدة، قوة، على الأقل في المدن. وفي عام 1980، برزت وحدة منفصلة للأمن الرئاسي لضمان أمن السلطة»⁽²⁰⁶⁾. إذا، كان الجيش حاضراً بقوة طوال فترات الصراع الطائفي والقبلي والجهوي الذي يمر تاريخ اليمن، وعمل على حسم الأمور لمصلحة النظام الحاكم. وعلى الرغم من أهمية الجيش وأهمية تدخله الحاسم في الفصل في النزاعات اليمنية، فإن نوره كان يتوقف عند المسائل العسكرية، ولا يتجاوزها إلى

المسائل المدنية والسياسية. فمجموعة الليبراليين هي التي كانت تخطط وتنظم وتقود السياسات المختلفة التي اعتمدتها الدولة والنظام الحاكم.

حاول النظام الحاكم في اليمن أن يستوعب الاختلافات الطائفية والإثنية التقليدية صمم البناء الجمهوري الحديث، وهذا ما دفع به إلى كثير من التنازلات التي لا تتسجم مع أسس الدولة الحديثة، الأمر الذي جعل الدولة اليمنية تستمر في العمل والظهور باعتبارها مؤسسة مثقلة بتاريخها الإثني والطائفي. وكان من أغرب التنازلات التي قامت بها الدولة الحديثة لمصلحة البنى التقليدية، استقطاب بقايا النظام الملكي، وإمماجهم في النظام الجمهوري وزراء ونواباً وأطراً سامية في الدولة. أما أخطر هذه التنازلات، فهو عدم صمان حصريّة استعمال العنف الشرعي في يد الجيش، عبر سماحها لقبائل وشيوخ بحمل السلاح، وتشكيل الميليشيات، حتى أصبح الشعب اليمني أكثر الشعوب العربية تسليحاً؛ فرحال القبائل يملكون حرية حمل السلاح، وهناك من يحمل أكثر من قطعة واحدة. والأسوأ أن النظام الحاكم أسند قيادة كثير من الوحدات العسكرية لرجال القبائل وشيوخها، الأمر الذي أعطى شيوخ القبائل عسوية فاعلة في المجلس الأعلى للقيادة، وعوض أن يقوم النظام بتفكيك هذه البنى التقليدية، عقد معها تحالفات طرفية ومصالحية، بحسب ما أملت عليه الأوصاع؛ فنجد نظام صالح يحارب الحوثيين ثم يتحالف معهم ويحارب إلى جانبهم، أو أنه يتحالف مع ال الأحمر ثم يقاتلهم، حتى أن أحد شيوخ القبائل لخص موقفه من الرئيس بالقول: «لا تدري أي حين يصادقك وأي حين يكون عدوك»⁽²⁰⁷⁾، علماً أن الرهان الأول والآخر، لكل تلك المناورات، هو السيطرة على قمة الحكم.

«قام الرئيس بناء نظام مؤسس على ولاء شخصيات قبلية وعسكرية، فاشع الشمال، تحت إمرة صالح، بنظام اقتصاد السوق، وتجنب القيام بإصلاحات اجتماعية عميقة. وعلى الرغم من طول مدة حكمه، لم يتمكن نظام صالح من بسط سيادته على كامل الأراضي اليمنية. ولذلك اعتمد على سياسة فرق تسد ليعزز حكمه، وهي سياسات ساعدت على توسيع فضاءات الفوضى، التي بدورها ساهمت في تمكين حكم الرئيس»⁽²⁰⁸⁾.

عاش اليمن، منذ تأسيسه كدولة، حالة من الاضطراب، إما بسبب الحروب الأهلية وإما بسبب التمردات العسكرية؛ وهو «تميز خلال السبعينيات والثمانينيات بحالة عدم استقرار صعدت داخلياً وخارجياً على النظام اليمني: اغتيال رئيس الجمهورية اليمنية

إبراهيم الحامدي في 11 تشرين الأول/أكتوبر 1977، وبعده بثمانية أشهر اعتُيل حليفته أحمد الغشمي في 24 حزيران/يونيو 1978، ثم جاءت حرب الحدود مع اليمن الجنوبي في عام 1979، ثم الحرب مع المملكة السعودية في 1980. وتعددت محاولات الانقلاب، وتعددت التمردات داخل الجيش، والعرات والمشاحبات القبلية ضد النظام»⁽²⁰⁹⁾. ولا يكاد اليمن يعرف فترة تمتد بضعة أعوام من الأمن والاستقرار، إذ كان لا يكاد ينتهي من حرب حتى يدخل في أخرى؛ فالتركيبة الإثنية ممثلة في البنية القبلية القوية، والتركيبة الطائفية ممثلة في الاستقطاب الريدي/السني، واستثمار النظام اليمني في هذه التركيبات من أجل ضمان أمنه، كلها عوامل جعلت من البنية السياسية اليمنية بنية هشّة، قابلة للانفجار لأي سبب، وتحت أي وضع من الأوضاع.

وصل صالح، وهو عسكري، إلى السلطة في عام 1978، بعد مقتل الغشمي. واستغل الحالة اليمنية وتناقضاتها، وحاول الاستثمار فيها من أجل تثبيت حكمه، فاعتمد على رجال القبائل، وقدم لهم كثيرًا من التنازلات على حساب الدولة الحديثة التي كان ينادي بها. ونتيجة ذلك كله أن أصبح «عبد الله صالح من بين أكثر الرؤساء في اليمن احتفاظًا بالسلطة، إلا أن نظامه ظل عاجزًا عن بسط نفوذه على كامل التراب اليمني، فاعتمد على سياسة فرق تسد، هذه السياسة بدورها خلقت فصاءات فوضى وعدم استقرار، ساعدت على تمكين حكم عبد الله صالح»⁽²¹⁰⁾. كما أنه استغل حالة الفوضى وعدم الاستقرار، الناتجة من الصراعات القبلية والصراعات الطائفية في توزيع السلطة في اليمن، من أجل السعي إلى تثبيت نفسه وأتباعه سادة سياسيين لليمن بلا منازع.

نتج من العلاقة الخاصة بين العسكري والمدني إضعاف الجيش الذي ما عاد موحدًا بسبب تعدد الولاءات وتشعبها، وبسبب انتشار الفساد فيه؛ فتسليم قيادة وحدات الجيش لرجال القبائل الموالية للنظام أعطاهم فرص تحويل الجيش من مؤسسة عسكرية أمنية إلى مؤسسة ريعية، يتم من خلالها تصحيم عدد الأفراد وتحصيل أجور وهمية. أما تعدد الولاءات، فجعل وحدات الجيش تتصرف كميليشيات قبلية، أكثر من كونها وحدات تابعة لمؤسسة أمنية وطنية. الأمر الذي أثر في القدرات الانضباطية للجيش وأفراده؛ فـ «الجيش، وبدل أن يساهم في بناء الأمة وتحقيق الاندماج الاجتماعي، بات أحد عوامل التفكك الاجتماعي، وساهم في تعميق الانقسامات الاجتماعية»⁽²¹¹⁾.

من جهة ثانية، ساهمت هذه العلاقة غير العقلانية بين العسكري والمدني في إضعاف الدولة، لأنها ما عادت تمتلك حصرية السلطة على مؤسساتها، ولا سيم الأمنية منها؛

فعلى الرغم من الدور المهم والاساس الذي أداه الجيش اليمني في إسقاط الإمامة وإقامة الجمهورية، وعلى الرغم من الدور المحوري الذي قام به في توحيد اليمن، وفي مواجهة الحوثيين والحراك الجنوبي، فإن دوره في مسار بناء الدولة كان هامشيًا بجميع المقاييس؛ إذ «كان تنظيم الصباط الأحرار قد اقتصر في عضويته على صغار ومتوسطي الضباط. وكان التنظيم في ما يتعلق بمسألة الحكم، كما يقول بعض قادته، مقتنعًا تمام الاقتناع بعدم تحمل المسؤولية السياسية الجسيمة في الحكم، تاركًا تلك المسؤوليات السياسية للآباء، من العسكريين والمدنيين الذين سبق لهم أن خاضوا تجارب سياسية كثيرة، على أن تسيّر الأمور وفقًا لأهداف الثورة»⁽²¹²⁾. فالنظام كان يعامل الجيش كمجموعة مرتزقة تؤدي مهمة معينة لمصلحة الليبراليين والحكام المدنيين، ثم تعود إلى ثكنتها لتحصل على أجرها.

2- الجيش اليمني بين القبيلة والطائفة

يرى سامي دورليان أن «الواقع اليمني وافر بشكل كبير، بحيث لا يمكن قراءته على مستوى واحد، طائفيًا أكان أم قبليًا أم سياسيًا»⁽²¹³⁾، الأمر الذي يعني تعقد الحالة اليمنية، وعدم إمكان فهمها من خلال عنصر واحد فقط، فقرأة الوضع اليمني تتطلب معاربتة من خلال كثير من العنصر.

يتميز اليمن بتنوع إثني وطائفي وذهبي، ساهم ويساهم في تعقد المسائل الاجتماعية والسياسية؛ فاليمن تتركب معقد من العرب السنة بحوالى 64 في المئة، ومعظمهم في الجنوب، والشيعية الزيدية بحوالى 35 في المئة ومعظمهم في الشمال، والعرب لأفارقة والجنوب الآسيويين في الجنوب، وقلة من اليهود والمسيحيين⁽²¹⁴⁾. تتوزع هذه لأجباس البشرية المتنوعة على شبكة من القبائل المتفاوتة في الحجم والانتشار على الأرض، والمتفاوتة في القرب من السلطة البعد منها. من هنا، تكون الخلافات والصراعات اليمنية - اليمنية في الأصل على أساس الانتماءات القبلية التي تتداخل معها الانتماءات الطائفية. كما يمكن أن تكون على أساس الانتماء الجهوي أيضًا، فالشمال والجنوب طلائعًا يمثلان، في المحيال اليمني، فصاءات صراع مرمنة بين اليمنيين. سواء في زمن الاحتلال أو في زمن الإمام أو في زمن الجمهورية.

على المستوى الجهوي، أدى الصراع بين الشمال والجنوب دورًا محوريًا في تشكيل

جزء مهم من حياة اليمن السياسية والعسكرية. وما يهمنا هنا بشكل خاص هو الجانب العسكري، حيث تلاحظ أغلبية الدراسات التي تناولت المشهد اليمني بالبحث، أن تركيبة جيشي اليمن الشمالي واليمن الجنوبي وعقيدتهما، كانتا مختلفتين إلى حد التناقض: الجيش الجنوبي كان أكثر انضباطاً واستظاماً والترماً بالمعايير العسكرية الدولية، وكان مؤهلاً ليؤسس النواة الأساسية لجيش وطني بالمعنى الاحترافي للكلمة. في المقابل، نجد جيش الشمال الذي كان أبعد ما يكون من جيش دولة وطنية؛ كان جيشاً عادلياً، يرتبط ولاؤه بالأشخاص أكثر من ارتباطه بالدولة. والدولة بالنسبة إلى جيش الشمال لم تكن إلا مصدرًا للربح والربح السريع الذي يتنافس من أجله الضباط حتى التقاتل في ما بينهم. والمصيبة الكبرى التي ألمت بالجيش اليمني لا تكمن في هذا التناقض فحسب، بل تكمن أيضاً في فشل الجيش الجنوبي الاحترافي أمام/وسقوطه بين يدي/جيش الشمال القبلي والعائلي، فأصبح اليمن كله تحت رحمة رغبات أولئك للضباط الذين يقودون جيشه وأسير نزواتهم وتطلعاتهم: «لقد أدت حرب 1994 إلى التدمير الكامل للجيش الجنوبي الذي كان يمكن أن يخلق حالة من التوازن العسكري في إقليم اليمن»⁽²¹⁵⁾. يمكننا القول، بتعبير آخر، إن البنى التقليدية للمجتمع اليمني من قبلية وطائفية تمكنت من التصدي للبنى الحداثيّة، ومن ثم طل اليمن يترنح، بسعادة افتراضية، في أسماه. بل إن هذه الأسما غطت حتى الجنوب اليمني، الأمر الذي تولد عنه مزيد من الضعائ، والشعور بالظلم والضميم، نتيجة الانقياد القصري «للذي هو أدنى»، كما كان يعتقد الجنوبيون الذين كانوا متقدمين بشكل ملحوظ على مستوى مشروع تحديث الدولة الوطنية.

على المستوى الإثني، تُعتبر القبيلة من بين أهم المكونات المنظمة للمجتمع اليمني. ويبقى للقبيلة في اليمن طابع ومركز خاصان؛ ف«مثل معظم التنظيمات القبلية في الشرق الأوسط، القبيلة اليمنية محزاة وتراتية، حيث إن الوحدة العليا هي اتحاد القبائل. ففي المناطق الداخلية مثلاً، هناك ثلاثة اتحادات قبلية يمنية كبيرة: اتحاد حمدان واتحاد قبائل حاشد واتحاد بكيل في شمال اليمن ووسطه، واتحاد مذحج في المناطق الجنوبية»⁽²¹⁶⁾. وتحل القبيلة في اليمن مكانة مهمة بين البنى السياسية المختلفة، بل إنها تتجاوز حدودها. حيث «يشير سرد الأنساب وبشره على نطاق واسع إلى أن المكونة القبلية هي مكون من أهم مكونات التماهي لدى كثير من اليمنيين»، وعوض تفكيكها، كمطلب أساس وضروري للدولة الحديثة، راحت القبيلة

تتعدد وتتوسع حتى احترقت حدود المؤسسات الحديثة كالجيش. واشترى الرئيس صالح ولاء شيوخ القبائل بمنحهم رتب قيادات عسكرية لأهم الوحدات العسكرية في اليمن. و«سدهم التراوح بين النظام البرلماني والنظام القبلي في اليمن بقوة، في تثبيت نظام صالح النيو باتريمونيالي؛ فالنظام كان يسير، طوال عمره، حنبًا إلى حنب مع البرعة نحو الباتريمونيالية الكاملة»⁽²¹⁷⁾. إذا، تنقّى نتيجة كل هذا التركيب، بين البنى التقليدية ممثلة في القبيلة والطائفة الدينية، والبنى الحديثة ممثلة في البرلمان والجيش، هي تمكين صالح وعائلته.

فشلت الدولة الوطنية اليمنية في تفكيك التنظيم القبلي، لأنها لم تحاول ذلك أصلًا. وبمكنا القول إن اليمن أراد أن يدخل الحداثة بأسماله، فانعكس ذلك على مسار بناء الدولة، وعلى توزيع السلطات بين المؤسسات «الحديثة» والمؤسسات التقليدية. و«كان المسار التاريخي لتشكل الدولة محفوفًا بالمخاطر الداخلية والخارجية، وأهمها تلك التي نشأت في الداخل من خلال صراع سياسي في طاهره وتحالفات اجتماعية (قبليّة، مذهبية، طائفية). ثم أحيانًا، تحالفات أيديولوجية بين مكونات العمل الحربي من اليسار الاشتراكي والقوميين الناصريين والبعثيين، حيث كانوا جميعًا في اشتراك سياسي وميداني غير منقطع، وفق تحالفات مع مختلف التكوينات ما قبل الوطنية، الأمر الذي ترتب عليه إعادة إنتاج القبيلة والطائفية والمذهبية في إطار الصراعات السياسية، لتشكل داعمًا وحماية للأطراف المتصارعة، وهب أضعفت الدولة»⁽²¹⁸⁾. إنه مسار معقد اتكأ على البنى التقليدية لتنظيم المجتمع من أجل ضمان الولاءات القبلية والطائفية ولأيديولوجية، فكانت النتيجة النهائية قيام دولة مشوهة ضعيفة، لا تكاد ترى ككيس نظري، يدعي الجميع الانتماء إليه والدفاع عنه، وأمّ على المستوى العملي، فطّلت الولاءات نصب في مصلحة القبيلة والطائفة.

يمثل الحضور القبلي في صراعات السلطة تقليدًا يميّز قديمًا؛ فحتى مع الوجود العثماني في الشمال، والاحتلال البريطاني لبعض مناطق الجنوب، لم يجر التفكير في تفكيك القبيلة، بل عمل الأتراك، والإنكليز بدرجة أقل، على استثمار التوزيع القبلي والصراعات القبلية من أجل تعزيز وجودهم في المنطقة. وواصلت الإمامة الزيدية طريقة التعامل والاستغلال نفسها للتنظيم القبلي، من أجل تأمين الحكم وتقوية الإمامة، وهي الخطى التي سار عليها الرئيس صالح بلا تغيير.

أنتج هذا الاستثمار في القبيلة والإثنية والطائفة بطنًا سياسيًا هجينًا، يعتمد مبادئ

الدولة الحديثة إطاراً تنظيمياً للبنى السياسية، ويعتمد في الوقت نفسه التوزيع القلي والديني معياراً من معايير توزيع السلطة بين مختلف مكونات المجتمع اليمني.

«تميز الدراسات التقليدية بين الإسلاميين وغير الإسلاميين، بين السنة والشيعة، بين القبيلة والمناطق الحضرية، وبين الولاءات المحلية والولاءات فوق الوطنية. بهذا، يمكننا فهم التضامانات السياسية والصراعات والأشكال التي تأخذها، ولمادا تظهر بهذا الشكل»⁽²¹⁹⁾؛ فعند ملاحظة البنى السياسية اليمنية، ومعرفة أسسها، نفهم بسهولة كيف جسد «الشيخ عبد الله الأحمر المتوفى في عام 2007، في شخصه معادلة الإسلام - القبيلة - الجمهورية، باعتبار أنه كان قائد حزب الإصلاح الديني، وقائد قبيلة حاشد، ورئيس البرلمان»⁽²²⁰⁾. مثل هذه الوضعيات لا يتكرر إلا في اليمن، وهذا لا رغبة الرئيس في الخلود في السلطة جعلته ينظم علاقات السلطة داخل الجمهورية، بشكل يولف بين القبيلة والحزب والجيش بلا أي حرج. وأدى هذا التركيب الهجين بين البنى الثلاث المتناقضة: القبيلة والحزب والجيش في الدولة اليمنية، إلى بروز شكل تقليدي من أشكال توازن القوى؛ حيث أصبحت الدولة اليمنية تبدو فدرالية من القبائل، تمتلك كل قبيلة فيها حزبها وحيشها، وتعمل على مراقبة القبائل الأخرى وردعها، وفي الوقت نفسه، تتنافس على مصادر السلطة والريع ولو بالفساد والتروير، كتصميم عدد المنتسبين إلى الجيش والحزب. من هنا، ساعد «ترسيم المكانة الجديدة للنخب القبلية ولوصولهم إلى مصادر السلطة، على تحسين هذه النخب لمراكزها وتدعيم شبكاتها، ما زاد في قوتها الشخصية. يبقى واحد من أهم مخرجات هذه العملية وأخطرها هو «قبلنة» (Tribalization) الجيش، أي إدماع العنصر القبلي في التراتبية العسكرية. وهو ما أصبح، بحسب رأي روبرت بوروواس (R. Burrowes)، الدعامة الأساسية لسلطة النظام القبلي. وأصبح جيش الجمهورية الجديدة، كما هو اليوم، قاعدة السلطة القبلية على المستوى الأعلى للنخب، ومصدراً لتحويل الثروة في المستوى الأدنى»⁽²²¹⁾. وفي وضع كهذا، يكون الاستقرار السياسي، والأمن الوطني أمرين مؤقتين وخاضعين بالضرورة لحجم تطلعات النخب القبلية، ولنسبة إرصانها من مؤسسات الدولة الأخرى، وهذا ما لحصه فواد عبد الحليل الصلاحي بكل دقة حين قال: «القبيلة، باعتبارها مؤسسة اجتماعية تقليدية، بالتحويلات السياسية الحديثة، لكنها لا تتيح لهذه التحويلات أن تتجذر وتتماسس في الواقع وفق شروطها الخاصة. معنى ذلك أن زعماء القبائل يشكلون باستمرار جماعات صعط تقليدية تتناقص مصالحها مع المصالح

العامة للمجتمع، فهي ذات عقلية براعمائية، ترتبط بجهاز الدولة ما دامت تستفيد منه ماديًا ومعنويًا، وتتفصل عنه بل وتدمره إذا ما حاول تقليص مصالحها أو تحجيم نفوذها»⁽²²²⁾. إنها البراعمائية التي تطالب ببناء المدرسة والمصححة، وتتفحص صد محاولة بدء مركز شرطة أو ثكنة في المناطق التي تسيطر عليها القبيلة.

كان تأسيس الجمهورية اليمنية من العسكريين ومجموعة الليبراليين الذين تلقوا تعليمًا حديثًا مشبعًا بقيم الحداثة والمواطنة، بمنزلة الأمل في بداية النهاية بالنسبة إلى التنظيم القبلي والطائفي. لكن حكام صنعاء، وعلى العكس تمامًا مما تتطلبه الدولة الوطنية من تحديث للمؤسسة على حساب تفكيك جميع التنظيمات والبنى التقليدية والرجعية، وتقوية المؤسسات الرسمية والحديثة كالجيش والمجالس المنتخبة، احتاروا مقارنة معاكسة تمامًا؛ إذ عملت السلطة على إضعاف الجيش وإغراقه في الفساد والممارسات الرعوية، «إلى درجة باتت معها علاقات بعض وحدات الجيش وبيئاتها أشبه بالبيئات والعلاقات العائلية والقبلية؛ فشيخ القبيلة أو ابنه هو قائد الوحدة العسكرية، ومعظم جنودها من أتباعه ورجال قبيلته»⁽²²³⁾. وفي المقابل، عُزز التنظيم القبلي والطائفي، واستُغل في حسم معادلات السلطة.

قال الرئيس صالح، وبكل وصوح، في حوار أجرته معه جريدة المجلة في العدد 347 للفترة من 1 إلى 7 تشرين الأول/أكتوبر 1986، إجابة عن سؤال واضح: إلى أي مستوى يمكن أن يعتبر أن اليمن نجح في الانتقال من مستوى القبيلة إلى مستوى الدولة؟: «الدولة هي جزء من القبائل، وإن شعبا اليمن هو مجموعة من القبائل»⁽²²⁴⁾. فبدأ، لا يتردد الرئيس، أو أي من السياسيين، في الاعتراف باعتماد النظام القبلي بوصفه جزءًا من مسار بناء الدولة الحديثة.

لتسيير هذا الوضع المعقد والمتناقض، حافظ صالح على مقاربة الإماميين نفسها شأن علاقة الدولة بالقبيلة، حيث عمل على ألا تحصل القبيلة أو الدولة على السلطة المطلقة في الجمهورية اليمنية. وكان على الحكومة أن توفق أحلافًا مع القبائل حتى تبقى. لكنها كانت، في الآن عيه، تعمل على ألا تحصل القبائل على سلطات تهدد وجود الحكومة⁽²²⁵⁾. من هنا، ظلت الحكومة اليمنية حكومة ضعيفة، خصوصًا خارج المراكز الحضرية، حيث كانت تمارس سيادة غامضة. وكانت القبائل اليمنية تؤثر كثيرًا في حسابات النظام، فـ «النظام القبلي بطابعه العصبوي وولاءاته العمودية حظي بتشجيع النظام السياسي في عهد الرئيس صالح، لأنه رأى فيه شريكًا آمنًا في الحكم.

ولدوره في الحد من إحداث التغيير والإسهام في إعادة إنتاج ما هو قائم»⁽²²⁶⁾. إنه شكل من أشكال التواطؤ بين الرئيس والقبيلة من أجل استمرار الاستيلاء على الدولة. تشير دراسة غير منشورة للمعهد الديمقراطي الوطني اليمني إلى انعدام الثقة بين القبائل والمؤسسات الحكومية الرسمية؛ إذ قال 69 في المئة من المستجوبين، من شيوخ القبائل والشخصيات العامة وأعضاء المجالس المحلية، إنهم لم يطلبوا قط مساعدة الحكومة في حل الصراعات التي تظهر في مناطقهم. وعبر قرابة 75 في المئة منهم بأنهم يؤمنون بأن الحكومة ستكون غير فعالة إن تدخلت في مثل هذه الصراعات. في المقابل، عبّر كثير من المحترفين (شيوخ القبائل) عن رغبتهم في اضطلاع الحكومة بمسؤوليات أكثر في ما يخص الحفاظ على الأمن والعدالة، واقترحوا أن تساهم الحكومة في تقوية الأمن العام في المناطق القبلية، وأن تؤسس لمزيد من المحاكم واللجان الخاصة من أجل حل مشكلات الثأر. لكن، عندما يناقش المستجوبون عرض مسائل الثأر على المحاكم الحكومية، فإن مقارباتهم تبقى متفاوتة: 52 في المئة منهم يفضلون أن تتولى محاكم الدولة هذه المسائل، في حين يفضل 47 في المئة منهم إبقاءها تحت وصاية القبيلة، وقال 15 في المئة إنهم لن يقبلوا حكم محاكم الدولة في ما يخص الثأر، ويفضلون أخذ ثأرهم بأيديهم عوض اللجوء إلى النظام القضائي الرسمي، ويعتقد أكثر من 9 في المئة منهم أن عائلاتهم لن ترصي بمعاقبة الدولة للحياة⁽²²⁷⁾.

تعكس نتائج هذه الدراسة مدى قوة القبائل في مناطقها، وتبيّن بوضوح شدة المقاومة التي تبديها القبيلة أمام محاولات التحديث التي تريد الدولة إدخالها، بشكل تدريجي، في مجتمع تقليدي معقد؛ فالنخب القبلية تريد الاستعادة من ريع الدولة، بالتالي ترحب بمشروعات التنمية، لكنها تقاوم أي محاولة لاستخدام التنمية وسيلة لتمدد سلطة الدولة داخل القبيلة، وهذا هو التناقض الذي أبقي الدولة اليمنية في حالة ضعف مزمن.

في الوقت الذي يعتبر 20 في المئة فقط من اليمنيين أن القبيلة هي وحدة التماهي الأولى بالنسبة إليهم، تستمر القبيلة أداء دور مهم وكبير في السياسة اليمنية. وجرى استدعاء القبائل للدفاع عن الدولة ضد التهديدات الخارجية في كل مرة، ولا سيما التهديدات الصادرة عن اليمن الجنوبي سابقاً، وعن السعودية، وضد محاولات كسر وحدة 1994، وضد التمردات العسكرية، كتمرد الحوثيين الذي بدأ في عام 2004⁽²²⁸⁾. وساهمت هذه المهمات الحيوية التي أوكلت إلى القبيلة، في شرعيتها كمؤسسة من

مؤسسات الجمهورية اليمنية. بالتالي، باتت المشاركة في تقاسم التصحيات مبرراً للمشاركة في تقاسم الربح، على قلته.

تمت الوحدة بين اليمن الشمالي والجنوبي في عام 1994. وعلى الرغم من كون الوحدة وعلاً إيجابياً عمل على لمّ شمل شعب يميني واحد، مرقته الإمبريالية الاستعمارية، فإن تلك الوحدة تمت وسط كثير من التناقضات الخطرة التي نتج منها كثير من عدم العدل وعدم المساواة بين جهات الشمال وجهات الجنوب. وساهم في هذا الجو السلبي أن هذه الوحدة فرضت بقوة السلاح؛ فالشمال الذي أسس دولة متنافضة تجمع بين التقليدي والحداثي، بشكل توافقي وغير عقائلي، ستولى - إلى حد ما - على الجنوب الذي كانت جمهوريته أكثر عقلانية وأقرب إلى الحداثة، حيث ما عاد للقبيلة أي أثر في السياسة. كما كان الجيش في الجنوب جيش دولة لا جيش قبيلة. وكانت القبائل الجنوبية «محتلة عن مثيلتها الشمالية، فهي أصغر حجماً وأقل تماسكاً، وكان تأثيرها ضعيفاً في النظام تاريخياً. وعلى العكس من قبائل الشمال، لم يحدث أن سيطرت قبيلة واحدة على اتحاد قبلي أو مجموعة جهوية، كما هو الشأن بالنسبة إلى قبيلتي حاشد وكييل في الشمال. وكان البريطانيون قد نجحوا نسبياً في تفكيك للنية القبلية في الجنوب، وهي المهمة التي أصلها بحماسة كبيرة النظام الشيوعي لجنوب اليمن الذي خلف البريطانيون بعد رحيلهم في عام 1967»⁽²²⁹⁾. وبهذا المعنى، فإن الوحدة اليمنية أشبه بانقراض التقليدي على الحداثي، والبدوي على الحضري، وهذا ما سيؤدي إلى كثير من الاحتلال والتناقضات السياسية والاجتماعية والجهوية بين الشمال والجنوب.

عمل هذا التناقض على إضعاف الجمهورية ومؤسساتها، وعلى انحسار سلطة الرئيس والدولة. وعزّز الشعور الدائم لدى الجنوبيين بالصيم وبالتهميش وبالضعف، أمام شمال قوي بقبائله التي تسيطر على الجيش وعلى الأحزاب، أي على السياسي والعسكري في الوقت نفسه.

بيّنت لب حوادث «الثورة» اليمنية، والحرب الأهلية التي تبعته، أن سلطة الرئيس والدولة لم تكن تتعدى أسوار قصر الرئاسة؛ فالرئيس اليمني لم يحكم اليمن كليةً وفعلياً طوال فترة حكمه، بل كن هناك نوع من التوزيع للسلطة بالتراضي بين الرئيس ومحيطه من ناحية، وزعماء القبائل والطوائف والجهات من ناحية ثانية، وذلك أن «صراع الحب، والتدخل الأجنبي، والعنف الإثني، والقبلية، والتوترات السنية -

الشيعية، والنظر في الديني والإرهاب، كلها أجراء من الواقع الفوضوي الكثيف لليمن»⁽²³⁰⁾؛ فوضي أظهرت الحرب الأهلية الأخيرة عجز اليمينيين عن حسمها؛ فمهد انقلاب 1962، والحرب الأهلية التي تبعتها، والتدخل الأجنبي الذي حسم المعركة، إلى انقلاب 2014 والحرب الأهلية التي تبعتها والتدخل الأجنبي الذي جاء ليحسم المعركة، لا يكاد نجد تعبيراً وفروقاً ذات معنى في الواقع اليمني، فنقيت المقاربات والممارسات هي هي، ولم تتغير إلا الألوام واتجاهات التحالف، وهذا الأمر وحده يمثل مؤشراً قوياً على أن الوضع اليمني لم يتغير كثيراً في ظل الجمهورية.

نستنتج من خلال ما سبق أن علاقة الحاكم بالتنظيم القبلي والطائفي في اليمن علاقة مميزة، إذ عملت على تقوية نفوذ بعض القبائل والطوائف من جهة، والتفريق بينها من أجل السيادة والحكم من جهة أخرى. وفي المقابل، أهملت الدولة المؤسسات الحديثة، التي كان من المفروض تقويتها والاستعانة بها لحسم صراعات السلطة والنفوذ. العنصر الأخير والمهم في الحياة السياسية اليمنية، والذي يعرر تعقيد هذه الحالة، هو العنصر الطائفي الديني. فالخريطة الدينية في اليمن تتشكل من أغلبية سنية سنية، تتوزع بين أغلبية شافعية وأقلية مالكية، تقابلها أقلية سنية شيعية تتوزع هي بدورها بين أغلبية زيدية وأقلية علوية.

وعلى الرغم من الصراعات القائمة بين اليمينيين منذ القدم، فإنها كانت في الغالب صراعات قبلية وسياسية أكثر منها دينية، وهذا بسبب التقارب بين المذهبين الزيدي والشافعي. لكن انتصار الثورة الخمينية في إيران، ورغبة الخميني في تصدير الثورة الإسلامية الشيعية، أثرا كثيراً في هذا التوزيع الطائفي المنسجم؛ فدخل المتغيرة السياسية على المذهب الفهية عكل ببرور جماعة الحوثي، وشجع في المقابل على انتشار تنظيم القاعدة ردة فعل على تمدد هذه الجماعة، وعلى التقارب اليمني الأميركي في إطار الحرب العالمية على الإرهاب. وكانت جماعة الحوثي قد أسست في عام 1990 في محافظة صعدة، وكانت تدعى من قبل جماعة الشباب المؤمن، وسعت إلى إحياء التراث الثقافي للشيعية الزيدية، بعد أن هُشمت هذه الطائفة منذ ثورة أيلول/سبتمبر 1962 في الشمال، والتي انقلبت على الإمامة الزيدية. وتعتمد هذه الجماعة الأسبقية السياسية لآل البيت «السادة» وكانت قد ارتبطت في بدايتها بحرب الحق المؤسس في عام 1990، في ظروف تميزت بالوحدة بين الشمال والجنوب. وكانت هناك محاولة للمصالحة بين الزيدية والجمهورية يومها، فانصلت الشبيبة

المؤمنة في عام 1997، ثم تعرضت لكثير من الانقسامات والانشقاقات، كان اخرها ما حدث في عام 2002، وهو الانشقاق الذي قاده النائب السابق عن حزب الحق حسين الحوثي.

بعد تفجير ات 11 أيلول/سبتمبر 2001 في الولايات المتحدة، حاول هذا الفقيه الشاب إصلاح مناهج تعليم مدرسته الفقهية، بالشكل الذي يجعلها أكثر فعالية في مواجهة السياسات الخارجية للولايات المتحدة الأميركية في الشرق الأوسط، فازعجت هذه المحاولة كثيرين من العلماء الريديّة، كما أنها أزعجت بشدة السلطات اليمنية، شريكة الولايات المتحدة في حربها العالمية على الإرهاب. وكان شعار الحوثيين هو «الله أكبر، الموت لامريكا وإسرائيل، اللعنة على اليهود، المجد للإسلام»، وهذا ما تسبب في كثير من الاشتباكات التي انتهت في عام 2004 إلى ما يسمّى حرب صعدة⁽²³¹⁾. تارجحت العلاقة بين الدولة والحوثي بين الحرب والسلام والمصالحة، إلى أن تحولت إلى حرب أهلية شاملة في أعقاب الربيع اليمني، بعد تحالف الرئيس المحلوع صالح مع جماعة الحوثي لقيادة انقلاب وتمرد عسكري على السلطة الانتقالية الشرعية.

3- النظام اليمني يحصن نفسه بالعائلة والقبائل

نتيجة الرهاب العسكري الذي عاناه صالح، والذي كان يعتبر الجيش مصدر خطر دائم، قام صالح بتطوير آلية بسيطة للوقاية من الانقلاب، تتلخص في الاستحواذ على الجيش من خلال مخطط لتحديث القوات المسلحة وضبطها كمشروع معن، وتحصيص أبنائه وأقاربه وأبناء قبيلته والقبائل الموالية له بالمناصب القيادية، كمشروع حفي وغير معن، ومتدرج؛ إذ تشير دراسات⁽²³²⁾ إلى أن أبناءه وأبناء أشقائه وأبناء عمومته وأبناء قبيلته والقبائل المتحالفة معه، كانوا يسيطرون على قيادات المناطق العسكرية، وعلى جميع القوات التي أنشأها في إطار تقوية الجيش وتحديثه. وبهذا، يصدق التوصيف الذي قدّمه الثوار للرئيس صالح، وهو أن الأخير كوّن «جيشاً عائلياً»، اعتمد «على المقربين من عائلته، وهذا ما أضاف عصباً طائفيّاً جديداً في السياسة اليمنية. فمن خلال الثقة في المراكز العسكرية الحساسة يربطها بقرابته العائلية، تمكن صالح من تدعيم موقعه، ووقاية شخصه من أي تهديد لعشرات الأعوام»⁽²³³⁾. وبعد انتصاره في حربه ضد الجنوبيين، فكك جيش الجنوب بشكل

منهجي، واستولى على عدته وعتاده، وأنهى خدمة معظم صباط الجنوب بإحالتهم إلى التقاعد، حتى وإن لم يبلغوا السن القانونية⁽²³⁴⁾.

وصل صالح أداء بعد سلسلة من الثورات والانقلابات، لكنه ظل مهووساً بالخطر الآتي من الجيش، فكان أول إجراء قام به، بعد وصوله إلى الحكم، هو ترقية نفسه إلى أعلى الرتب العسكرية، ثم بإعدام كل من يشك في أنهم تآمروا، أو يمكن أن يتآمروا، عليه، ليعلن أخيراً أفراد عائلته المقربين في أعلى مناصب القيادة، في الهياكل العسكرية والأمنية المختلفة؛ فأولوية الحاكم في هذا البلد هي تأمين حكمه، وحماية نفسه وعائلته، باعتبار أنه كان مقتنعاً بأن حكمه هو عبارة عن مراقبة للأفاعي في جحررها. إلا أن القوات المسلحة تبقى، على الرغم من دورها المهم في الحياة السياسية اليمنية، «ضعيفة بالمعنيين العسكري والاجتماعي، حيث يتم تجاوز الجيش باستمرار لصالح البنى القبلية. فالرغبة العسكرية ليست لها أي أهمية ما لم تدعم بانتماء قبلي؛ وقوات الاتصال داخل الجيش تسير وفق الخطوط القبلية، لا وفق خطوط القيادة النظامية. إن تسير الجيش في ظل هذه الظروف يكون أمراً مستحيلاً»⁽²³⁵⁾.

كان صالح رئيساً لليمن، لكنه لم يكن قادراً على حكم اليمن؛ فحتى وإن استحوذ على معظم مناصب القيادة في الجيش، حيث «حافظ [...] على سيطرته على الأجهزة الأمنية من خلال إنشاء مؤسسات أمنية موارية، وشراء دعم العسكريين بالتحفيزات المادية السخية، خصوصاً المنافسين الرسميين للجيش النظامي والمتمثلين في الاحتياطيين القبليين، وشبه العسكريين، مثل منظمة الأمن المركزي، ومنظمة الأمن السياسي، وأجهزة المحابرات المعروفة بعنفها. وكانت المنظمة الأقوى والأكثر تأثيراً من بين جميع هذه المنظمات الحرس الجمهوري، وهي وحدة عسكرية تعمل كأساس لأمن النظام وتتبع للرئيس مباشرة»⁽²³⁶⁾، وبهذا، كان الرئيس يعتقد أنه أحكم قبضته على الجيش على نحو كامل، إلا أنه في الواقع، لم يكن يتحكم في الجيش كقوة مسجومة ومضبطة، بل كان يتحكم في بعض قياداته، بينما كانت الفيلدات الأخرى تدين بالولاء بقدر سحائه عليها فحسب.

صغيت الأوصاع التي يعيشها اليمن مهمة الرئيس في تأمين حكمه، لأن القبيلة «لا تمثل عنصراً مهماً في القوات المسلحة فحسب، بل حتى في خارج البنى الأمنية الرسمية للدولة؛ فبالإضافة إلى الجيش النظامي، كانت للقبائل ميليشياتها الخاصة التي قُدر تعدادها نحو 20,000 رجل. يضاف إلى هذا أن اليمن يُعتبر من أحسن دول

العالم تسليحًا، نظرًا إلى أن جميع رجال القبائل الذين تفوق سنهم 15 عامًا يمكنهم حمل السلاح. وتشير التقديرات في هذا الصدد، إلى أن رجال القبائل يمتلكون خمس مرات أكثر مما يمتلكه الجيش النظامي من الأسلحة»⁽²³⁷⁾. وقد عمل صالح على اصعاف النفوذ القبلي من خلال إحياء عادة قديمة مارسها ملوك اليمن منذ الأزل، وهي إثارة العرات القبلية، وبذكاء العدوات بين القبائل، حتى يصرف أنظارها عن التفكير في السيطرة على الجيش والدولة؛ والعلاقات القبلية «تمثل العامل الأساسي في استراتيجية ألبه منع الانقلاب التي اعتمدها صالح. وبدلاً من المجموعات الدينية، كانت التقسيمات الأساسية في اليمن تقسيمات قبلية؛ والقبيلة قانونها وعاداتها واستقلاليتها التي تسمح لها بالتصرف كدولة دخل دولة. والعلاقات بين القبائل كانت تنافسًا على الموارد الشحيحة، فاستغل صالح هذا التنافس ليجعل القبائل والنخب السياسية أكثر ولاءً له»⁽²³⁸⁾.

المشكلة مع هذه الآلية هي أن الرئيس صالح كان يسيطر على مراكز القيادة، لكنه لم يسيطر على الأفراد والوحدات؛ لأنهم بكل بساطة يديون بالولاء لقبائلهم وليس لبني القيادة النظامية، وهذا ما أثبتته حوادث 2011، حين نفذ الجنود والضباط الصغار أوامر شيوخ القبائل، فخرجوا بكل بساطة من الجيش وغادروا وحداتهم، ولم يبق مع الرئيس إلا من ينتمون إلى عائلته أو قبيلته.

تبقى السواة الصلبة للدولة اليمنية هي التركيب بين العسكري والقبلي، حيث «تعيد الأجهزة الأمنية اليمنية إنتاج الاختلافات القبلية التي تميز المجتمع، فكما يقول خالد فتاح، يعكس التنافس السياسي والاقتصادي بين النخب القبلية بشكل آلي في الجيش، الذي يعكس التحالفات القبلية والصراعات بين النخب وليس سلطة الدولة. فمن جهة يتشكل الجيش النظامي من رجال اتحاد قبائل حاشد، بقيادة الشيخ صادق الأحمر، ومحسن الأحمر الذي كان يرأس الفرقة المدرعة الأولى ويسيطر بذلك على نصف الجيش، ما جعله من بين أقوى الرجال إبان حكم صالح؛ من جهة أخرى كانت قوات النخبة، الحرس الجمهوري، كقوة شبه عسكرية، والمصالح الاستخباراتية تحت سيطرة ابن الرئيس وابن أخيه. فتمكن الرئيس بفضل الاعتماد على قرابته المباشرة من الحفاظ على ولاء أجهزة الأمن حتى في أشد الأزمات»⁽²³⁹⁾. كما أنه تمكن من الاستمرار في الحكم على الرغم من وجوده في وسط معادله وتطلعاته.

عملت الدولة اليمنية على استمرار البنى التقليدية. لكن هذه البنى هي نفسها وقفت صد

طموحات صالح، خصوصاً في ما تعلق بتوريث ابنه الأكبر أحمد؛ إذ ركر صالح جهده، في الأعوام الأخيرة، على تحويل القوات المسلحة بالطريقة التي تسمح بسيطرة عائلته على مقاليد قيادة التركيب القبلي العسكري. وقرنت هذه التحولات على أنها معادية لاتحاد قبائل حاشد التي يرأسها حصمه الرجل القوي، الأحمر⁽²⁴⁰⁾، فكان من الطبيعي أن يتحول إلى الد أعدائه.

يبين لنا هذا الوضع مدى هشاشة الآلية التي اعتمد عليها الرئيس للوقاية من الانقلاب. ويوضح لنا أيضاً أن الآلية المعتمدة للوقاية من الانقلابات كانت مردوجة الانجاء؛ فكما كان الرئيس حذراً في تعامله مع القبائل، وأعد العدة لمواجهة أي محاولة للتمرد على سلطته، كانت القبائل هي الأخرى حذرة من السلطة، واعدت بدورها عدتها لردع أي تضخم في تطلعات الرئيس. ومن هنا، تشكل نوع من التوازن في القوة والرعب لم يمنع انقلاب أحد الطرفين على الآخر فحسب، بل قسم اليمس قوتين متنافستين على السلطة ومصادرها.

«بلغت نفقات الدفاع إبان حكم علي عبد الله صالح حوالي 25 في المئة إلى 40 في المئة من الإنفاق الحكومي، وهذا مؤشر على مدى إرادة الرئيس إعطاء الجيش الأولوية على حساب مسائل التنمية المحلية. إصافة إلى هذا، يمثل التوظيف في المؤسسات الأمنية أهم مصادر التوظيف في البلاد. فتجند كثير من اليمينيين ليحصلوا على هذه الامتيازات، ومن ثم دعم عائلاتهم»⁽²⁴¹⁾. وعلى الرغم من ضخامة الإنفاق الحكومي، لم يكن هذا الإنفاق ذا فائدة بالنسبة إلى الجيش في حد ذاته، لأنه في الواقع، لم يكن إلا وسيلة لتحويل الأموال إلى حساب القبائل وشيوخها، الأمر الذي جعل النخب القبلية تتنافس على تحصيل أكبر قدر ممكن من هذه التحويلات لدعم مراكزها، كما سبق وبيّنا.

نتيجة هذه الآلية الصعبة والبسيطة والمتناقضة، حصل الرئيس على دولة صعبة وجيش هش، يمكن أن يتجرأ على استعمال أسلحته الثقيلة لصرب الرئيس في أي لحظة، كما حدث في عام 2011. وانعكس هذا الصعف المزروح، للدولة وللجيش، على ردة فعل الجيش على الثورة، كما سنرى في النقطة التالية.

4- ردة فعل الجيش على «الثورة» ونتائجها

في ظلّ الأوصاع التي سبق ذكرها، جاءت «الثورة» اليمنية وسط أوصاع دولية غير مستقرة، ميزها توصل تنظيم القاعدة إلى فتح فرع له في اليمن، إضافة إلى المد الحوثي الذي كان يسيطر على الشمال، والنموذ القبلي الذي لم يكن راضيًا تمام الرضا عن الرئيس وحاشيته، ورغبة الحراك الجنوبي في الثأر للهزائم السياسية والعسكرية المتكررة التي مني بها في مواجهاته السانفة مع النظام الحاكم، إضافة إلى الأحوال المعيشية الصعبة التي كان يعيشها اليمنيون، وسياسات الرئيس الحاطة. من هنا، كان إشعال فتيل هذه «الثورة» مررًا، لكن تبعات ما بعد إشعال الفتيل أعيت أي جهة حاولت التحكم فيها وحسمها بشكل نهاسي. من هنا، كانت ردة فعل القوات المسلحة مضطربة وغير منضبطة ولا منسجمة، وحاضعة للظروف السابق ذكرها؛ وبعد قيام «الثورة» مباشرة، «أعلن الجبرال علي محسن صالح الأحمر (قائد المنطقة الشمالية الشرقية والفرقة الأولى مدرعة)، واللواء محمد علي محسن الأحمر (قائد المنطقة الشرقية)، وعدد من قادة الوحدات العسكرية الأخرى عن دعمهم للثورة. وبات الجيش اليمني منقسمًا إلى جيشين: 'جيش انصار الثورة'، و'الجيش العائلي'، بحسب توصيف قوى الثورة»⁽²⁴²⁾. وكانت النتيجة أن حدث بالتحديد ما حذر منه الشيخ سنان ابو لحوم في عام 2007، عندما قال: «لا بد ان نحرص على الوحدة، وإلا فاليمن حارب. وسكون مثل الصوماليين»⁽²⁴³⁾. وبالفعل، بعد نجاح «الثورة» في تتحية الرئيس، أعاد هذا الأخير ترتيب أوراقه وتحالفاته، وشرع في التحالف مع الحوثيين بالزحف على العاصمة للقيام بانقلاب على «الثورة»، والمبادرة الوطنية.

تفصي النتيجة الحتمية لجميع المعطيات المعروضة إلى إتيان الجيش بردة فعل غير منضبطة. وعلى الرغم من استماتة الرئيس في المحافظة على ما يعتقد أنه كرسيه، أرغم على التنازل لمصلحة المبادرة الوطنية، لكن تنازله كان طرفيًا وموقتًا وتكتيكيًا، لأنه كان يعلم علم اليقين مدى قوة الجيش، ومدى قوة الفئائل. وما إن بدأت المبادرة الوطنية في التفكير في إعادة هيكلة الجيش، بعرض تصحيح اتجاه الولاءات داخل قيادات المؤسسة العسكرية، حتى تحركت آليات مقاومة التغيير لتقف في وجهه محاولات الإصلاح التي خططت لها المبادرة الوطنية، فكانت النتيجة دخول البلد في حرب أهلية خطيرة.

تنبئ لنا التطورات اللاحقة لعزل الرئيس صالح أنه كان مستعدًا لهذا الواقع الجديد بشكل جيد؛ إذ قام بررع أفراد عائلته في مختلف أجهزة الدولة، وهم الذين استمروا

فيها حتى بعد عرله؛ «فبعد الاعلانية البرلمانية لبلده، كان لا يزال قائدا للحرس الجمهوري، وابن أخيه كان لا يزال يسيطر على قوات الأمن الوطني. ويمكن القول إن من بين جميع انتصارات الثورات العربية، كان انتصار اليمن الأكثر سطحية، والتحول الحاصل لم يكن يحمل بذور الانفجار فحسب، بل إنه لم يمض بعيدا بالشكل الكافي للدخول في مرحلة انتقالية حقيقية»⁽²⁴⁴⁾. من هنا، كان أنتاج الرئيس الذي ررعه في الأجهزة العسكرية والأمنية وشبه العسكرية المختلفة منحرفين جدًا من نيات النظام الجديد تجاههم، نظرًا إلى اعتناهم امتدادًا طبيعيًا للنظام السابق. ومن هنا، «حاولت حكومة عبد ربه منصور هادي تأسيس رقابة مدنية على الأجهزة الأمنية، من خلال تطهير الحرس الجمهوري والأجهزة الأمنية من جميع احتمالات التمرد والانشقاق، ومن أنصار صالح: أحمد علي صالح من الحرس الجمهوري، ويحيى صالح من قوات الأمن المركزي، وطارق صالح من اللواء الثالث، وعمار صالح من المكتب الوطني للأمن. كان هؤلاء من أبرز القادة المستهدفين من منصور هادي، باعتناهم إن ولاءهم كان لا يزال للرئيس المحلوع صالح. وقاوم الحرس الجمهوري هذا المجهود بقوة، وهذا ما يوضح خطورة قادة الأجهزة الأمنية على مسار التحول السياسي في اليمن⁽²⁴⁵⁾، وهذا ما جعل الرئيس المحلوع يسارع إلى إدخال البلد في حرب أهلية لا تزال مستمرة إلى الآن (أذار/مارس 2017).

تحول اليمن إلى دولة فاشلة بسبب السياسات الحاطة في تسيير ملف القوات المسلحة، والعلاقات العسكرية - المدنية، ومع الجيش من التحول إلى مؤسسة احتراافية قادرة على حماية وحدة الوطن، وإداء دور الوسيط في حالة الأزمات، كالأزمة التي يمر بها اليمن اليوم. وبعدها كان اليمن، ولعقود، دولة ضعيفة تعيش بالحد الأدنى، أصبح الآن كيانا فاشلا ومهددا بالانهيار. إن حالة اللاحرب واللاسلم التي تميز البلد منذ أشهر عدة، تجعل مستقبل البلد غامضا. ولا يبدو، في ظل الأوضاع الحالية أنه سيتمكن من الخروج من دائرة الفشل، لأن الواقع المحلي والجهوي والدولي يجمع قيام قوة يمنية قادرة على إعادة رسم الخريطة السياسية وهما لمعطيات البلد الديموغرافية والسياسية والدينية والثقافية. وفي أحسن الأحوال، سوفقسم اليمن إلى دولتين، حتى لا نقول إلى أكثر من ذلك.

خامسًا: الجيش التونسي: الاحترافية على المحك

يتكون الجيش التونسي، بحسب احصاءات عام 2010، من 35,800 رجل، منهم 27,000 في القوات البرية (5000 رجل فقط من العاملين والبقية احتياط) و 4800 في القوات البحرية و 4000 في القوات الجوية، في حين ان في الوحدات شبه العسكرية حوالي 12,000 رجل. وتبلغ مدة التحيد للاحتياطيين 12 شهرا، وضمن عملية انتفاية⁽²⁴⁶⁾. اضافة إلى هذا، «تمثل ميراثية الدفاع التونسية ما يعادل 1.4 في المئة من الدخل الوطني العام، الأمر الذي يجعل تونس تحتل المرتبة الـ 109 بين دول العالم، بالنظر الى سنة ميراثية و رارة النوع الى للدخل الوطني العام»⁽²⁴⁷⁾. وبهذا، يكون الجيش التونسي جيشا صغيرا وضعيفا، الا انه يتمتع بتدريب جيد وفق لفصل البرامج العربية، ولا سيما أنه يستدعى باستمرار الى معثات حفظ السلام الدولية. يبدو أن التجربة التونسية هي التجربة الناجحة الوحيدة، بعد مجموعة النماذج الفاشلة، أو القريبة من الفشل، التي سبق عرضها. لهذا، يعطينا هذا النموذج بصيص أمل بشأن امكانية حدوث تحول إيجابي في الأنظمة العربية القائمة حاليا، خصوصا إذا ارتقت الجيوش العربية الى مستوى الاحترافية الذي اظهره الجيش التونسي، حيث انه تمكن من تادية دور الوسيط الذي ضمن تولز الرعب مع باقي أصلاص المثلث: الدولة والشعب. وقد مر حلال ثورة الياسمين باختيار قاس، نجح في تجاوز مراحله الأولى، ولا يمكننا الحديث عن نجاح ماهر وتام، حتى يرى نتائج المراحل المولية للاحتتار الذي ما زال يحصع له منذ تحول تونس للمرحلة الانتفاية: أول، الاحتتار التقني في مواجهة الإرهاب، حيث سيكون النجاح فيه دليلا على قوة الجيش وقدرته على حماية البلد من التهديدات الخارجية والداخلية، ليصبح الجيش صمام أمان بالنسبة الى الشعب التونسي؛ ثانيا، احتتار سياسي في مواجهة صعوط العلمانيين والإسلاميين من احل اشراكه في المشهد السياسي، لمصلحة هذا أو ضد ذاك. وسيكون النجاح، على هذا المستوى من الاحتتار، دليلا على النزاهة والاحترافية، وعدم الرعية في التورط في حراك سياسي قلق، لن يزيده تورط للعسكر فيه الا تعفنا.

1 - الجيش التونسي ومسارات بناء الدولة

وقعت تونس تحت الحماية الفرنسية في عام 1881، وظل التونسيون يقاومونها إلى أن ألغيت، وحصلت تونس على استقلالها في عام 1956. وما يميز الحالة التونسية هو

حصول الاستقلال من دون حاجة إلى العنف المسلح؛ والتونسيون، على عكس كثير من الشعوب العربية، لم يملأوا بتجربة مسلحة يمكن أن تؤدي إلى تشكّل جيش ثوري يتحمل عبء تحرير البلاد ثم بنائها. وجاء الاستقلال نتيجة مقاومة سياسية طويلة قادها الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة، الذي «قام [...] وهو محام وليس صابطاً عسكرياً، بمفاوضة الفرنسيين من دون استعمال القوة العسكرية. لذا، كان الجيش التونسي نتاج الاستقلال والدولة»⁽²⁴⁸⁾، وليس العكس، أي إن الجيش جاء بعد الاستقلال، وبعد تشكّل الدولة التونسية. بناء على ذلك، «لم يجلب الجيش التونسي نظام بورقيبة إلى السلطة، كما أنه لم يؤدّ دوراً طلائعياً كرمز للتعبير الثوري في الجمهورية الشاذلية؛ فعندما أصبح الحبيب بورقيبة أول رئيس للدولة، تصرف بشكل خاص مع الجيش، فلم يمنح الجيش أي دور سياسي، ونظم العلاقات العسكرية - المدنية بالشكل الذي يسمح بدعم مقاربة إبعاد الجيش عن السياسة»⁽²⁴⁹⁾. من هنا، ظل هذا الجيش حادماً للدولة التونسية، دون غيرها من الجهات أو المجموعات.

أدى الحس العام والمشاركة بتبعية الجيش التونسي للدولة التونسية إلى قبول الجيش، وبشكل طوعي، المراقبة في الفكر، ومراقبة الوضع بصمت وحيادية لا يمكن أن يفسّرا إلا بالاحترافية: «إن موقف الجيش بالامتناع عن السياسة مبهمة صفة الأصم الأكبر»⁽²⁵⁰⁾؛ وحتى لو كان للضباط والأفراد مواقف سياسية من الحوادث الداخلية والجهوية، فإنهم كانوا ملتزمين بالصمت والحياد، حتى لا يكون هناك تأثير منهم في الحراك السياسي الذي كان يجري في تونس. من هنا، يمكننا القول مع ليرا أندرسن إن العسكريين في تونس «أدوا دوراً أقل أهمية في ثورة البلد، كما هو الشأن بالنسبة إلى القوات المسلحة في كثير من الدول العربية. وعلى العكس من القوات المسلحة في عدد من الدول، مثل مصر، لم يجرب الجيش التونسي المعارك من قبل، ولم يسيطر على الاقتصاد المحلي»⁽²⁵¹⁾.

كان الرئيس بورقيبة متأثراً كثيراً بالأنموذج الحداثي الغربي عموماً، والفرنسي على وجه الخصوص. لهذا، حاول أن يعيد إبتاح هذا الأنموذج بحذافيره، ومن دون مراعاة خصوصيات البلد الثقافية، الأمر الذي جعل مشروعه يتعثّر ولا يقدم النتائج التي كان يرجوها زعيم الحداثة التونسية. مع ذلك، يمكننا القول إن مشروعه نجح، أقله على مستوى العلاقات العسكرية - المدنية، حيث حاول تنظيم هذه العلاقات «بحسب الأنموذج الأوروبي: بمنع الضباط من الانخراط في الجمعيات السياسية،

وبتعيين مدنيين في منصب وزير الدفاع؛ فعندما أصبح بن علي وزيراً للداخلية في عام 1986، كان أول صابط يصبح عضواً في الحكومة»⁽²⁵²⁾، وبعد 30 عاماً من الاستقلال والفصل بين العسكري والمدني؛ فالفصل بين المسارات المهنية السياسية والعسكرية كان واضحاً بالنسبة إلى النظام التونسي، أما الخلط بين المسارات الذي تسبب فيه بن علي، فكان خطأ أريد منه أن يصحح خطأ بورقيبة الجسيم، والمتمثل في الشمولية والرغبة في الاستئثار بالحكم، من دون مراعاة القيم الحداثية التي ألقى حياته في الدفاع عنها وفي ترقيتها.

منع النظام التونسي، في طبيعته البورقيبية والبعولية (نسبة إلى زين الدين بن علي)، الجيش من الاقتراب من المجال السياسي. ولم تكن للعسكريين حتى القدرة على مناقشة أوصاعهم وميراثيهم؛ فـ «بعد استقلال تونس إلى غاية عام 1979، لم تنفق تونس في شؤون الدفاع أكثر من 2 في المئة من إجمالي دخلها الوطني، بل إن محصصات الميزانيات السنوية للدفاع لم تتجاوز الـ 5 في المئة. وكانت القوات المسلحة صغيرة الحجم، وصعيفة التجهيز، وكانت محصصات البلد للصحة والتربية أكبر كثيراً من محصصات الجيش»⁽²⁵³⁾. هذه المعطيات الكمية تبين لنا المكانة التي كانت للجيش مقارنةً بباقي القطاعات. ولم تكن ميزانية الجيش كبيرة بحيث تسمح لضباطه بتشكيل وحدات قوية ومسلحة ومدربة بشكل جيد؛ إذ «حد بورقيبة من قوة الجيش بطرق أخرى، فمهمة الجيش التونسي كانت ثلاثية: الدفاع عن البلد من التهديدات الخارجية، ودعم الشرطة في الحفاظ على الأمن الداخلي، والمشاركة في البرامج المدنية التي تعتمد عليها الدولة. وكان الجيش يساهم في تعليم الشباب وبناء المساكن، ويساهم في عمليات الإنقاذ في حالة الكوارث»⁽²⁵⁴⁾. ومع تأكيد المعطيات والوثائق هذه الوظائف الثلاث للجيش، فإنه بالنظر إلى الأيديولوجيا المسالمة للنظام التونسي مع حيزاته ومحيطه الدولي، وإلى الأوضاع الداخلية التي كانت تعرف القليل من القلاقل والاضطرابات، لم يمارس الجيش على الصعيد العملي إلا وظيفة واحدة تتمثل في المشاركة في النشاط الاجتماعي الذي ترعاه الدولة، كالبناء والمساهمة في النشاط التربوي. وريدت على ذلك، في عهد نظام بن علي، المشاركة في قوات حفظ السلام الدولية في مناطق العالم المختلفة المنتازع فيها.

إن أهم ما يمكن أن نحصل إليه هو أن الجيش التونسي كان، ولا يزال، مؤسسة محترفة ومحايدة تعمل لمصلحة الدولة التونسية أي كانت الجهة الحاكمة، بالمعنى الذي يقدمه

ركي صاريجيل؛ إذ يعتبر أن «أهم السمات المميزة للجيش الاحترافي هي قبوله بالسلطة المطلقة للمدنيين في ما يتعلق بالقرار السياسي. كما يحب أن يؤمن أن السياسة ليست للجوّد، والجيش المحترف يعد نفسه طوعاً عن الحياة السياسية، ويكون شديد التخصص بالمسائل العسكرية. أمّا المسائل السياسية، فيعتبرها ببساطة غير موافقة لخبرته العسكرية»⁽²⁵⁶⁾. بهذا المعنى يمكن أن نقول إن الجيش التونسي وصل إلى مستوى مقبول من الاحترافية⁽²⁵⁶⁾، وحقق وصوله إلى هذا المستوى من الاحترافية هدفين مهمين بالنسبة إلى الدولة التونسية: الهدف الأول هو توأصع تطلعات الضباط والأفراد، من خلال انصباطهم والنزاهة المهمات التي يحولهم بها دستور البلد، وتمثّل في حماية البلد وليس حماية النظام، والهدف الثاني يتمثّل في اطمئنان السياسيين إلى سلامتهم السياسية، وحتى الجسدية، باعتباره أنه ليس من تقاليد الجيش التونسي أن يشكل خطراً عليهم وعلى وجودهم. بهذا، يمكن اعتبار القرار ببناء جيش احترافي، وعلى الرغم من نبله، لا يخرج عن كونه واحدة من استراتيجيات الانظمة الشمولية لحماية حكمها ونظامها.

نتيجة تحقّق هذين الهدفين، نلاحظ أن عندما تتوافر شروط الصراع بين صلي المثلث: النظام والمعارضة، كما حدث بعد ثورة الياسمين، يبقى الصراع محصوراً بين النظام ومعارضيه، وسياسياً صرفاً، وليس ثمة شأن للمصلح الثالث: القوة العسكرية، أو للتهديد باستعمالها، في حسم القضايا السياسية.

لم يكتف بن علي بعزل الجيش ومنعه من المشاركة في الحياة اليومية للدولة التونسية، بل هناك شكوك حول تورطه أيضاً في تصفيات حسدية لخيرة صباط الجيش التونسي. وهناك ثلاث محطات مهمة شكلت، إلى حد ما، العلاقة بين المدني والعسكري في تونس:

المحطة الأولى: محاولة الانقلاب في كانون الأول/ديسمبر 1962، وشبهة مشاركة الجيش فيها. تسرد نورا نورسلي⁽²⁵⁷⁾ في تقرير صحفي حوادث هذه المحاولة الانقلابية المحفوفة بالسكوك والظنون كما يلي:

جرى التعامل مع ما سمّي مؤامرة كانون الأول/ديسمبر 1962 بسرعة، وتعطية إعلامية أحادية الجانب، حيث كشفت المؤامرة يوم 23/12/1962، واستمر التحقيق مع المتهمين من 23/12/1962 إلى 31/12/1962، أي حوالي تسعة أيام. ثم أحيل 26 شخصاً إلى المحاكمة، منهم 7 عسكريين سابقين، و 19 مدنياً، و واحد توبع غيابياً.

كانت غالبية المدنيين من المقاومين السابقين.

حوكم المتورطون بالتهمة التالية: التآمر ضد أمن الدولة، والتآمر ضد الأمن الداخلي، والمساس بأمن الدولة، ومحاولة اغتيال الرئيس بورقيبة، ومحاولة إطاحة الحكومة وإقامة حكومة بديلة، وحيازة أسلحة، والاستيلاء على أملاك الدولة.

استمرت وقائع المحاكمة حمسة أيام، من 12 إلى 17 كانون الثاني/يناير 1963، وصدرت أحكام بالإعدام في حق 7 عسكريين، ثم عفي عن اثنين منهم، فخُفِضَت العقوبة إلى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة. كما حُكِمَ على ستة مدنيين بالإعدام، وعلى البقية بعقوبات سجن راجحت مددها بين المؤبد مع الأشغال الشاقة وعام واحد. رُفِضَ الاستئناف، وتُعدت عقوبة الإعدام في 25 كانون الثاني/يناير 1963. إضافة إلى هذه الأحكام القضائية، صدر حكم تاديبى ضد جميع ضباط الجيش، جرى بموجبه خفض رتبهم. وأحيل باقي المتهمين إلى سجن شاق وقاس مدة سبعة أعوام، ثم أُحيلوا إلى سجن آخر، حتى عُفي عنهم في 31 أيار/مايو 1973. تمثل هذه المحطة نهاية مرحلة الصراع بين بورقيبة وزملائه من المقاومين، حيث تمكّن بفضل اكتشاف هذه المؤامرة أو افتعالها، من وضع حد نهائي لمحاولة المقاومين القدامى التأثير في مسار بناء الدولة التونسية؛ فبورقيبة، المثقف والناشط السياسي، لم يكن متحمساً لإشراك مجموعة المقاومين غير المثقفين وعديمي الخبرة السياسية في النشاط السياسي، بل إنه كان يزدريهم ويرفض حتى التفكير في المسألة، لأن الدولة كانت بالنسبة إليه مسألة نخبية سياسية مثقفة، وذات خبرة تكتوقراطية في مختلف مجالات التنمية.

الأمر المهم في هذه القضية، والتي نعتقد أنها شكلت موقف الرئيس من الجيش، بالقدر ذاته الذي شكلت فيه موقف الجيش من الرئيس، هو أن هذه المؤامرة كانت من تدبير المدنيين؛ فهم أصحاب المبادرة، واستُعين ببعض العسكريين المتقاعدين في أغليبتهم. ومع ذلك، دفع الجيش ثمن إحفاق هذه المحاولة، حيث صدر حكم غريب بمعاقبة جميع الصباط بخص الرتب، وهو حكم لا يتماشى مع الأحكام القضائية، ولا حتى مع الإجراءات الدستورية، لكن الجيش فهم هذه الرسالة جيداً، بحيث أصبح ابتعاده من السياسة شرطاً ضرورياً لتحقيق الاحترافية.

المحطة الثانية: ثورة الحياض، أو ثورة الخبز، في عام 1984، ومشاركة الجيش في إحمادها؛ فتخلّ الجيش ائذاك كان ضرورياً من وجهة النظر السياسية، كما أنه كان تدخلاً حاسماً لأنه ساهم في عودة الأمن والاستقرار. لكنه كان درساً مهماً بالنسبة إلى

الجيش الذي فهم لاحقاً أنه أخطأ بالانحياز إلى الدولة ضد الشعب، خصوصاً أن المطالب كانت موضوعية وشرعية. وشعر البطام من ناحيته بأنه أخطأ أيضاً بعدم تحضير القوات اللازمة لمواجهة مثل هذه الوضعيات، ما أوجب التصحيح، وهذا ما فعله بن علي عندما اشأ عدداً من الأجهزة الأمنية شبه العسكرية، إلى درجة أن عديدها كانت يعادل 5 أصعاف عديد الجيش النظامي، كما سبب لاحقاً.

كان هذا التصحيح ضرورياً، لأن النخب المدنية كانت تعرف أن إشراك الجيش في مثل هذه القضايا سيفتح شهيته على مزيد من التورط الذي يمكن أن يؤثر في العلاقة العسكرية - المدنية التي تحكمت فيها هذه النخب بشكل حيد إلى غاية الآن.

المحطة الثالثة: حادثة سقوط أو إسقاط مروحية القائد العام للجيش التونسي و 12 من كبار الضباط التونسيين. حيث راجت إشاعات حول تورط الرئيس زين العابدين بن علي والقوات الأمنية التابعة له في القضية. ويشير بعض التقارير إلى إمكانية «أن يكون لبن علي دور في إسقاط طائرة الهيلكوبتر في عام 2002، حين قُتل القائد العام للقوات المسلحة (و الذي خلفه رشيد بن عمار)، و 12 من الضباط والأفراد. إذا تأكد هذا الشك، فإن غياب «الود» بين الجيش والرئيس يصبح مبرراً»⁽²⁴⁸⁾. بالنظر إلى تجربة الجيش مع المحطة الأولى، والدرس الذي تعلمه في المحطة الثانية، والشكوك التي تحوم حول عدوانية الحب السياسية تجاه ضباط الجيش في المحطة الثالثة، فإن مسألة العلاقات المدنية - العسكرية، ومطلب حياد الجيش بالنسبة إلى الدولة والمجتمع، يصبح مطلباً عسكرياً قبل أن يكون ضرورة مدنية سياسية.

2- الحاكم والتنوع الإثني والطائفي

قبل قيام الدولة الوطنية التونسية، كانت تونس تعتمد في تنظيم المجتمع على البنى التقليدية المؤسسة على القرابة والقبلية، وهو الوضع الذي حافظ عليه الأتراك العثمانيون ثم الفرنسيون طوال فترة الحماية. واجتهدت الدولة الوطنية الحديثة برعاية الحبيب بورقيبة في تعبيره؛ فالمشروع الحداثي البورقيبي كان بمنزلة الثورة الراديكالية على جميع أشكال التنظيم الاجتماعي التقليدية، والتي كان يرى فيها بنى رجعية لا تزيد المجتمع والدولة التونسية إلا تحللاً. ثم «عملت الدولة الوطنية على تحقيق الإجماع الوطني، بجميع الوسائل السياسية والإدارية والثقافية والإعلامية.

وبادرت منذ نشأتها إلى استبدال الهياكل الموروثة من عهدي الاستعمار والبيات، بهياكل تنظيمية جديدة تهدف إلى تحقيق الوحدة الوطنية⁽²⁵⁹⁾ على أسس حديثة، تلبي جميع أشكال التنظيم التقليدي، فركز بورقيبة على التربية وسيلة مركزية لتمرير رؤيته الحداثية للدولة وغرسها.

نجح المشروع الحداثي في تحويل تونس إلى دولة وطنية حديثة لا تعاني صراعات إثنية أو طائفية حادة؛ إذ عرف المجتمع التونسي، قبل «الثورة»، انسجامًا نسبيًا من الناحية الإثنية والقبلية. ولم تسجل حساسيات كبيرة بين العرب والأمازيغ، كما كان الشأن في الجزائر والمغرب، وليبيا خصوصًا بعد «الثورة». وجرى إضعاف، بل إلغاء، جميع أشكال التداخل الممكنة بين القبلية والبنى الحديثة للدولة، إلى درجة غدت معها القبيلة في تونس كأنها غير موجودة، علمًا أن إلغاء أثرها لا يعني إلغاء وجودها؛ فالتاريخ والتجربة علمًا أن البنى القبلية أتقنت ممارسة «التقية»؛ حيث تتظاهر بالتوازي عن الأنظار عندما يصبح ضغط التعبير خطرًا على وجودها، ثم سرعان ما تعود إلى البرور في الواجهة عند أول فرصة، ولا سيما عند استشعارها حالة ضعف البنى المركزية للدولة أو انهيارها.

أما من الناحية الدينية، فأغلبية التونسيين هم من السنة المالكية. وقد عمل مشروع بورقيبة التحديثي على إعادة تشكيل الدين ومكانته في الدولة الوطنية، وحرص على تفريغ الدين من أي دور في العلاقات السياسية والاقتصادية، وحتى في علاقات التونسيين الاجتماعية. واجتهد في تحويل الدين إلى ممارسة طقوسية حالية من أي رهانات اجتماعية وسياسية. مثلت معركة الدين، المعركة الأساسية في حرب الحداثة التي قادها بورقيبة على كل ما هو تقليدي، الأمر الذي أدى إلى حدوث استقطاب حاد بين الإسلاميين والعلمانيين، وهو الاستقطاب الذي دفع النظام التونسي إلى الترام الحذر والحيلة من أي محاولة لانقلاب الإسلاميين على النظام العلماني. من هنا، فإن النظام التونسي لا يساوره الخوف من الجيش ولا من إثنية معينة ولا من الطوائف الدينية، بل من الإسلاميين الذين عمل النظام بكل ما أوتي من قوة على عزلهم من المجتمع، ومنعهم من ممارسة السياسة بشكل حر ومستقل، وهذا ما تبيّنه محصنات الميراثية التونسية لأجهزة الأمن في عهد بن علي؛ ففي عام 1993 مثلاً، بلغت نسبة الإنفاق على أجهزة الأمن أكثر من 10 في المئة من إجمالي إيرادات الدولة⁽²⁶⁰⁾.

إضافة إلى الاستقطاب بين العلمانيين والإسلاميين، هناك استقطاب طبقي وجوهي بين

التونسيين، بين الشمال والجنوب، وبين المناطق الساحلية الحضرية والمناطق الجنوبية الريفية والصحراوية. وهو ما أدى إلى بروز «الفوارق الطبقية بين التونسيين. فعلى الرغم من أن معظم التونسيين سئة عرب، فإن الفوارق كبيرة بين 67 في المئة من التونسيين الفاطنيين في المناطق الحضرية، على طول السواحل الشمالية، و33 في المئة من الفاطنيين في المناطق الريفية الجنوبية. فإذا كان سكان الشمال الساحليين في أغليبتهم علمانيين وحدثيين، ويتبعون الأنموذج الأوروبي، فإن أولئك الموجودين في المناطق المعزولة هم أكثر تديناً، وتقليديون وعرب، أو شرقيون في تفكيرهم. ويُعتبر التونسيون من أكثر الشعوب تعلماً وحدثاً في الشرق الأوسط. ولكن هناك، في المقابل، جهات من تونس تساهم في تزويد القاعدة بالمتطوعين»⁽²⁶¹⁾. أمام هذه الفوارق الاجتماعية الكبيرة، وحوفاً من قيام الثورات والانقراضات للمطالبة بالتوزيع العادل للثروة بين مختلف جهات تونس، عمل النظام التونسي على التضييق على كثير من الحريات؛ فهاجس النظام الأول لم يكن انقلاب الجيش عليه، بل كان الثورات المحتملة التي يمكن أن يقوم بها الجياح.

إن ما يمكننا الوقوف عنده هنا هو أن النظام التونسي نجح نسبياً في التحديث السياسي للبلد، لكنه فشل فشلاً ذريعاً في التحديث الاقتصادي، خصوصاً في المناطق الداخلية والجنوبية. وعوض السعي إلى معالجة هذا النقص، راح يطور أدواته القمعية، بغرض منع المواطنين من التعبير عن عدم رضاهم عن الأوضاع التي أنت بها سياسات النظام؛ فقراءة الرئيس بن علي للأمن كانت تعني مزيداً من الخوف وانعدام الثقة⁽²⁶²⁾. وعندما يلتقي صعط القمع وضغط الفقر، فإن الانعجار يكون حتمياً ولا يبقصه إلا من يستولي عليه ويحوّله إلى حركة سياسية مدمرة للنظام وأتباعه، كذلك التي ميزت ثورة الياسمين.

3 - تونس وآلية الوقاية من الثورة بدل الوقاية من الانقلاب

لم يطور النظام التونسي، أذاً، آلية خاصة للوقاية من الانقلاب، لأنه لم يكر يخشى العسكر أصلاً؛ ف «على عكس جيوش باقي دول شمال أفريقيا، لم نعرف تونس محاولات انقلابية حقيقية، ولم يحاول الجيش أن يشارك في القرار السياسي، كما أنه لم يكن قط أداة لبناء الدولة، ولم يقم بأي محاولة للتورط في الحياة الاقتصادية»⁽²⁶³⁾. إلا أن

النظام سعى إلى تطوير آلية مشابهة يمكن تسميتها آلية الوقاية من الثورة والانتفاضة، لأن خوف النظام كان من الشعب وليس من الجيش.

تتأسس آلية النظام التونسي في الوقاية من الثورة على مبادئ أساسيين: الأول هو إضعاف الجيش وإبعاده من السياسة قدر الإمكان، ومن هذا المنطلق «منع بورقينة الضباط من المشاركة في الجمعيات السياسية، لمنعهم من أداء أي دور في الأحزاب السياسية المهمة على الدولة. كما أن العسكر كان يسيّرهم وزير دفاع مدني.

تعتمد الرئيس إبقاء الجيش صغير الحجم وقليل الموارد، مع إبعاده من مسائل السياسة اليومية، بما فيها الوظائف القمعية، التي عُهد بها إلى وزارة الداخلية ومجموعة الأجهزة البوليسية والأمنية وشبه العسكرية التي كانت تحت سلطته⁽²⁶⁴⁾. ولم تكن هذه الاستراتيجية مجرد آلية أراد بورقينة أن يحمي بها نفسه ونظامه، بل كانت عقيدة يؤمن بها، وتتخلص بعدم منح الجيش أي فرصة للتسلل إلى المجال العام والمجال السياسي. لهذا، «تعتمد بورقينة ترك الجيش بعيداً من السياسة خلال عشريناته الثلاث التي حكم فيها تونس، من عام 1957 إلى عام 1987. كما منع العسكريين من الانضمام إلى الحرب الحاكم، ومنع عنهم حق الانتخاب.

واصل بن علي السياسة نفسها، منفياً القوات المسلحة خارج حدود السياسة، «... وترك بن علي الجيش في حدود 30,000. وشكّل في المقابل قوات بوليسية يفوق عدد أفرادها عديد الجيش بخمس مرات. فبقي الجيش مهمّشاً وصنيل الميزانية، وانشغل دوره في حماية الحدود»⁽²⁶⁵⁾. وكان المبدأ الثاني تقوية أجهزة الأمن الداخلي التابعة لوزارة الداخلية، ما يعني تعيينها المباشرة لرئيس الدولة، فـ «كانت القوات الأمنية أقوى، من حيث التعداد، بحمس مرات من القوات العسكرية»⁽²⁶⁶⁾. وبفدر ما أعطى هذا الإجراء سلطة شبه مطلقة للحاكم الشمولي على شعبه، فانه حرر الجيش من التورط في أي صدامات بين النظام والشعب. من هنا، شكّل النظام السياسي التونسي كثيراً من الوحدات شبه العسكرية، حيث كانت وزارة الداخلية تشرف على «قوات حفظ الأمن التي كان لها دور مهم في قمع احتجاجات 2010/2011. والقوة التي يهابها المواطنون كثيراً والتي حُلّت في عام 2011، أي قوات بوليس أمن الدولة، إضافة إلى كثير من وحدات النخبة، التي تصم قوات التدخل السريع وقوات مكافحة الإرهاب، وهي قوة منتقاة من قوات الشرطة ومتخصصة بصد الهجمات الإرهابية. والوحدة التكتيكية للحرس الوطني، أو الوحدة الخاصة للحرس الوطني. وداحل

الجيش، كانت توجد فرقة خاصة متمركزة في بدرت»⁽²⁶⁷⁾. هذه القوات كانت كلها موجهة لحماية النظام من شعبه، خصوصاً أنه ضمن حياد العسكر، وحثّ إلى حد بعيد من إمكانية تأثيرهم في الحياة السياسية الداخلية. يضاف إلى ما سبق أن النخب السياسية الحاكمة ركزت على للقوة الأساسية لأمن الرئيس، حيث كانت وحدة الحرس الرئاسي المكونة من 5000 إلى 6000 رجل، والتي انت دوراً مهماً في حماية النظام، وكان قائدها علي السرياتي الذي اعتقل مباشرة بعد فرار زين العابدين بن علي من البلاد. تتميز هذه الوحدة بتجهيزها القوي، وبالمعاملة التفصيلية التي كان المنتسبون إليها يحطون بها في عهد بن علي. وهذه المعاملة جعلت باقي القوات الأمنية تمتنع من هذه الوحدة، ويقال أنه كان هناك عداً بينها وبين باقي القوات⁽²⁶⁸⁾.
إطلاقاً مما سبق، يمكننا تلخيص مقارنة النظام التونسي لآلية الوقاية من الانقلاب في ما يلي:

«1- تهميش الجيش ودور قائده في المؤسسات السياسية للدولة، والحد من إمكانية وصول الجيش إلى الموارد، وإنهاء النظام التونسي الجيش ضعيفاً وفيزياً وغير ممول، والحد من فرص ارتقاء قائده، ووصولهم إلى الإثراء الشخصي أو التأثير في الشبكات السياسية ومؤسسات الدولة. وهذا ما أدى إلى ضعف رغبة الجيش وقائده في دعم بن علي في أثناء ثورة كانون الثاني/يناير 2011.

«2- تقسيم المهمات، بحيث تعود مسؤولية الأمن إلى القوات التي كانت تابعة لولاية الداخلية، وهذا يعني أن الجيش لم يكن شريكاً للأجهزة الأمنية في العمليات اليومية والقمعية، التي أنتجت غضب المواطنين، ما أعطى فرصة قوية لقادة الجيش لكي لا يفحموا أنفسهم في الصراع بين الشعب وقوات الأمن»⁽²⁶⁹⁾. وهذا ما يفسر، إلى حد بعيد، الموقف الذي اتخذته الجيش من «الثورة» ومن الرئيس بن علي.

تتكون أجهزة الأمن الداخلي، التي تشرف عليها وزارة الداخلية⁽²⁷⁰⁾، من جهاز الشرطة العادية المكلفة بالأمور اليومية لتسيير أمن المواطنين، وتنتشر غالباً في المناطق الحضرية، ومن الحرس الوطني الذي يؤدي أدوار الشرطة ذاتها على السواحل والمناطق الداخلية والريفية. أما الشرطة القصبية، فإنها تعمل مع وزارة العدل، ولكنها تتبع لوزارة الداخلية، وتكلف التحقيقات وجمع الأدلة في القضايا المختلفة المطروحة على جهاز العدالة. أما البوليس السياسي، فيكلف وطيفة جمع المعلومات عن النشاط السياسي لدى الموالاة والمعارضة، وهو الجهاز الذي اشتهر بقمع

المواطنين عمومًا والإسلاميين خصوصًا؛ إذ كان بمنزلة الذراع الطويلة التي يُلَوِّح بها النظام، ضد كل من يفكر في زعزعة كرسي الرئيس. وجرى حل هذا الجهاز مباشرة بعد سقوط بن علي، وفي أثناء المرحلة الانتقالية التي قادها الباجي قايد السبسي. ويأتي أخيرًا جهاز الأمن الرئاسي الذي كان مكلفًا بحماية الرئيس، وهو من أشد الأجهزة موالاة للرئيس؛ إذ وصل به الأمر إلى التورط في إطلاق النار على المتظاهرين، والاشتباك مع قوات الجيش من أجل حماية الرئيس.

تميزت الأجهزة الأمنية بمستويات عالية من التسييس؛ فولاؤها للرئيس كان مطلقًا، كما أنها عملت على نشر الرعب في نفوس المواطنين من خلال عمليات المداومة والحطف والاستتطاق، وحتى التعذيب والإعدامات خارج نطاق العدالة، كاستراتيجيا اعتمدها نظام بن علي من أجل دفع المعارضين الحديين إلى العزوف عن التفكير في التغيير أو الثورة. لهذا، وسبب هذا التاريخ الدموي والمؤلم، تُعتبر الأجهزة الأمنية أكثر المؤسسات التونسية عرصة للبعض والكرهية من التونسيين.

من جهة أخرى، امتدت الآلية التي اعتمدها نظام بن علي لدرء الثورة إلى الحرب الحاكم، أي التجمع الدستوري الديمقراطي، الذي حوَّله الرئيس إلى ما يشبه المؤسسة الأمنية الموازية، والتي بفضل انتشارها الواسع على الأرض، وتسلل أجهزة الأمن ورجالها إلى خلابها، أصبحت مصدر معلومات مهمة للأجهزة الأمنية، وأصبحت في الوقت نفسه مصدر ذعر بالنسبة إلى المواطنين الذين لا يجرؤون على التعبير عن آرائهم أمام أي شخص من الدستوريين. هذا وعمل بن علي على تحويل الحزب إلى جهاز دولة يُوَطَّر أيديولوجية النظام ويشرعها، ويحمي النظام من الهزات التي يمكن أن يتعرض لها، وذلك من خلال السيطرة على مكتبه السياسي ولحيته المركزية، واحتكار سلطة تعيين أعضائهما. وعمد إلى تطعيمهما بتشكيلة تجمع بين التكنوقراطيين ورجالات الأجهزة الأمنية⁽²⁷¹⁾ الذين أنشؤا ولاءهم المطلق للنظام ولابن علي.

يمكننا في ختام هذه النقطة أن نلخص آلية الوقاية من الانقلاب والتمرد، التي أنتهجها النظام التونسي، من بورقية إلى بن علي، في ثلاثة مستويات أساسية: المستوى العسكري، حيث ركزت استراتيجية النظام على تهميش الجيش، وإبعاده من المجالات السياسية، ومن الدولة بصفة عامة، من خلال إضعافه، وإضعاف قدراته على التأثير في الحياة المدنية، وحصر دوره في حماية الحدود، والمساهمة في القوات الدولية

لحفظ السلام في مختلف بقاع العالم؛ المستوى الأممي، وهو إجراء مكمل للأول، حيث أنشأ النظام العديد من القوات شبه العسكرية، والموجهة لمراقبة المعارضة والنخب السياسية غير المصطبطة وقمعها، وهي كانت تملك عدة أكبر مما يملكه الجيش البطامي، كما أنها كانت أكثر تأثيراً في الحياة المدنية والسياسية؛ المستوى السياسي، ويتمثل في تحويل الحزب الدستوري الحاكم إلى جهاز رقابة تابع للنظام، ويعمل على مراقبة المعارضة وأجحة النظام المختلفة، ومنع أي محاولة للتمرد يمكن أن تأتي من الأوساط الشعبية أو من النخب السياسية، أو حتى الأممية.

بهذا يكون النظام التونسي، ولا سيما في نسخته البنعلية، قد أعلق اللعبة، بالشكل الذي يجعله متحكماً في جميع مخرجها، ويعطيه اسفوية مريحة على جميع المنافسين المحتملين.

لم يكن في الإمكان الانقلاب أو التمرد على هذا الوضع المحكم، إلا من خلال حركة شعبية شاملة تعرف كيف تستفيد من ثغر الآلية التي بناها النظام بإتقان. ولعل أهم هذه الثغرات كانت العجوة الموحودة بين المؤسسة العسكرية والمؤسسة الأممية من جهة، والنخبة الحاكمة والسياسية من جهة أخرى.

4 - الجيش التونسي يحمي شعبه ويثأر لنفسه!

كان التمرد في تونس مفاجئاً للجميع، ولم يكن أحد يتوقع أن ينهار النظام التونسي بهذه السهولة والبساطة، الأمر الذي فتح شهية تطلعات جميع الشعوب العربية للتخلص من أنظمة الشمولية. لم ينجح التمرد في تونس في كسر قبضة بن علي فحسب، بل نجح أيضاً في كسر حاجز الخوف الذي استطاعت آليات الوقاية من الانقلاب أن تصنعه سواء في تونس أو في الدول العربية الأخرى بتوجهاتها الأيديولوجية والسياسية المختلفة.

كان للعلاقات العسكرية المدنية دور محوري وجوهري في تطور حوادث ما سُمي ثورة الياسمين في تونس، فكانت ردة فعل الجيش على «الثورة»، وعلى طلب الرئيس تدخل الجيش في قمع المتمردين، مؤثراً، بل ومحددًا المآلات التي انتهت إليها الحوادث. ساهم هذا الموقف - غير المنتظر - بشكل كبير في إسقاط بن علي، ولكن ليس عبر التدخل صده أو التدخل معه، وإنما بالحياد الذي التزم به الجيش، فخرج

الجيش التونسي إلى الشارع كان خروجاً احترافياً، إذ رفض الجيش تحت قيادة الجنرال رشيد بن عمار إطلاق النار على المتظاهرين⁽²⁷²⁾. كان حروجه بهدف حماية مؤسسات الدولة من أي محاولة تحريرية، فاستجاب الجيش التونسي بهذا لما أراده منه النظام طوال الأعوام الـ 60، وقام بواجبه كما كان يريد النظام الحاكم من نور ريادة أو نقصان. وأراد النظام أن «يبقى صغير الحجم، ويركز على مهماته الأساسية كحماية الحدود، والمشاركة في قوات حفظ السلام الدولية»⁽²⁷³⁾. من هنا، كان تدخله لحفظ السلم والأمن وحماية ممتلكات الشعب والدولة، ورفض أي تدخل يخدم الرئيس، على الرغم من أنه أمره بذلك.

بما أن «الثورة» كانت سلمية، فإنه فرض بموقفه هذا على النظام أن يصرخ لصعوبات الشارع، وكانت النتيجة المعروفة بـ «بن علي هرب». وكانت ردة فعل الجيش، ومقاربة باقي الحيوش العربية التي واجهت ثورات الربيع العربي، مثالية وفريدة في نوعها، لأن القوات المسلحة نجحت، وبوصوح، في البأي بنفسها عن النظام وعن معارضيته⁽²⁷⁴⁾.

يمكننا العودة إلى العناصر السابقة للتحليل، خصوصاً تاريخية علاقة الجيش بالمدنيين، والأوصاع التاريخية التي أطرت موقف العسكري من السياسي، أو موقف السياسي من العسكري. عندئذ، يمكننا فهم الأسباب التي جعلت الجيش لا يستثمر في بقاء بن علي حين أتاحت له الفرصة لذلك؛ إذ كان لرفض الجيش إطلاق النار على المتظاهرين، وامتناعه عن حماية الرئيس، الأثر البالغ الذي سرّع تحية الدكتاتور. ليس هذا فحسب، بل إن موقف الجيش من المرحلة الانتقالية كان مشرفاً أيضاً، فهو لم يتدخل بشكل مباشر في النقاشات الدائرة حول ترتيبات المرحلة، وحول الدستور الجديد، ولا حتى في الصراع القائم بين القوى السياسية المختلفة، و «مع هذا، يظل انقسام الساحة السياسية التونسية بين الإسلاميين والعلمانيين خطراً قد يفتح الباب لدور سياسي للجيش، برغم سمعته الطويلة في عدم التدخل في الشأن السياسي»⁽²⁷⁵⁾.

كان تصرف الجيش عفلاً في وضع معقد لا يفصل بينه وبين الحرب الأهلية، أو الانزلاق نحو العمل الإرهابي، إلا القليل، وهذا لأن «القوات المسلحة كانت تملك الحلفية الاجتماعية والتاريخية التي تسمح لها بالتصرف كعامل محايد، وأيضاً لأنها تملك الفدرات المؤسسية للتصرف بهذا الشكل. وبذلك يمكن القول إن الجيش التونسي كان جيشاً غير ميسس في وضع ميسس بشدة»⁽²⁷⁶⁾، فتمكّن إذاك من المحافظة على

تقليدي الحياد و الاحترافية اللذين ميراها منذ الاستقلال إلى اليوم.

بعد سقوط النظام الشمولي، شرعت تونس في مرحلة انتقالية حذرة ومحفوفة بالمخاطر، بسبب ضعف الدولة، وكثرة الرهانات التي واجهتها، وعلى رأسها الانعكاس الأمني، وتنامي مخاطر الشبكات الإرهابية التي تحالفت مع شبكات التهريب، وشبكات المتاجرة بالمخدرات وبالبشر من خلال الهجرة غير الشرعية⁽²⁷⁷⁾، بفعل تدهور الأوضاع الأمنية فيليب ومالي. مع ذلك، لا يزال التونسيون يسيرون، وبحذر، مسار بناء الدولة للتونسية ما بعد الثورية؛ أي إنهم لا يزالون يقاومون فشل الدولة، ويحاولون الحروح بها إلى بر الأمان. أمام هذا الوضع، يتعرض الجيش لاختبار ثانٍ، أخطر من الاختبار الأول الذي نصح فيه بامتياز.

يتمثل الاختبار الثاني في مواصلة الالتزام بالحياد أمام الصراع السياسي الحاد، والاستقطاب الإسلامي العلماني. وعدم الاستجابة للأصوات التي ما فتئت تطالبه بالتدخل من أجل حسم المعركة السياسية لهذا الطرف أو ذاك، فإذا نجح الجيش التونسي في المحافظة على حياده وتثريب احتراميه، فإنه سيعطى الأمل بإمكانية تحول الدول العربية من الأنظمة الشمولية إلى الأنظمة الديمقراطية التعددية؛ أما إذا انحاز إلى أحد الأطراف، فإنه لن يعمل إلا على توسيع نادي الدول العاشلة، بإضافة دولة منهكة ضعيفة وفقيرة إلى هذا النادي.

بعد مرور خمس سنوات على سقوط السيد زين العابدين بن علي، لا يزال الجيش التونسي وفيًا لمبادئه. إلا أن هناك بعض التحديات التي ربما نراها في المستقبل، أولها الصراع العلماني - الإسلامي على السلطة، ورغبة كل طرف في الاستقواء بالجيش، وهي رغبة يمكن أن تفتح شهية العسكريين على الخروج من بزاتهم العسكرية، والانحراط في الحراك السياسي العام.

أما التحدي الثاني، فيتمثل في انحراط الجيش التونسي بقوة في الحرب على الإرهاب والتهريب؛ هذه الحرب والتصحيات التي قدمها الجيش التونسي إلى غاية الآن، يمكن أن تدفع بالعسكريين في تونس إلى الشعور بنوع من الأفضلية نسبة إلى باقي المواطنين، ومن ثم الدخول في نطاق معادلة «الأكثر تصحية = الأكثر شرعية»، وبالتالي تضخم الأنا العسكرية، و بروز «شرعية» الرغبة في تدقيق ممارسة السياسة والحكم، بدلًا من السياسيين، خصوصًا إذا تواصل عجز السياسيين عن حسم الأمور الأساسية بالنسبة إلى دولة ما بعد «الثورة».

يتمثل التحدي الثالث في التشريعات الجديدة التي أعطت الجيش صلاحية المتابعة القضائية في المحاكم العسكرية للمواطنين المدنيين. وقد بدأ فعلاً في متابعة بعض الصحافيين بتهمة نشر معلومات عسكرية عن عمليات مكافحة الإرهاب. يمكن هذه التشريعات والمذيعات أن تجعل العسكري يتذوق طعم سلطة القمع، ما يثير شهيته على التفكير في تقويتها جدياً.

من جهته، يتعلق التحدي الرابع بمسار أسطورة الجيش التونسي بوصفه جيشاً محايداً ومنحازاً إلى تطلعات شعبه؛ فمذ سقوط الرئيس التونسي، بحري، وبشكل مدهج، تصوير الجيش التونسي كمثل للثورة. وعلى الرغم من التهميش، وحتى الظلم، الذي تعرض له في زمن بورقيبة وبن علي، فإنه ظل وفياً لشعبه، وفضل الانحياز إلى الثورة على التورط في حمام دماء، كان يمكن أن يقود البلاد إلى وضع مشابه لما هي عليه الحال في الجارة ليبيا. وبما أن المؤسسة السياسية ضعيفة، ولا تزال تبحث عن نفسها، نظراً إلى أن المؤسسة العسكرية التي خرجت من عباءة «الأصم الأكبر» المهمش والمظلوم، لتلبس عباءة أقوى مؤسسة في البلد واشرفها وأنظفها، بل أكثر المؤسسات التونسية استحقاقاً لثقة المجتمع، فإن بناء أسطورة الجيش التونسي الاستثنائي يمكن أن تكون في واقع الأمر المرحلة الأولى والأساسية في مسار إعادة الجيش إلى الحلبة السياسية.

تعتبر هذه التحديات الأربعة أخطر ما يواجه العلاقات العسكرية - المدنية في المرحلة الحالية، ولا سيما أن الرخم الذي أحدثته «الثورة»، من إرادة «المظلومين» من جميع الأشكال في استرجاع حقوقهم السياسية والمادية التي هضمها النظام التونسي البائد طوال فترة حكمه، يمنح «الأصم الأكبر» الحق في الطوق والكلام والمطالبة بمكاسب معنوية ومادية، وربما حتى سياسية، في المجتمع التونسي، علماً أن نطقها وكلامها سيكونان مصحوبين بصعظ السلاح، وضغط التضحيات اليومية التي يقدمها الجيش التونسي في مختلف عمليات تأمين تونس والتونسيين.

انطلاقاً من تقويمنا المؤشرات الأولية للحراك السياسي والأمني التونسي، نرى ضرورة التفكير في الآليات التي يمكن أن تجعل العسكر في تونس يمارسون مهماتهم الدستورية، وتساعد في الوقت نفسه على تحجيم طموحات الضباط، ومنعهم من التفكير في التعدي على الصلاحيات الممنوحة لهم.

أما من ناحية تقويم «الثورة» التونسية ككل، فإن ما عرفته تونس من حوادث، يجعلنا

نعيد تقويم الهالة التي نُسجت حول «الثورة»، ليستنتج أن بالنظر إلى المعايير التي حددناها للثورة الناجحة في بداية البحث، نستطيع الجزم بأن نجاح «الثورة» التونسية كان نسبياً وليس كاملاً؛ لأن ما يبدو واضحاً في النهاية، هو أن هذه «الثورة» دفعت بالنخب السياسية إلى «التضحية بنخب السلطة والمدنيين الرسميين الأميين والرأسماليين ورجال الرئيس السابق، وجرى ببساطة رميهم إلى خارج السلطة، وكان الهدف هو المحافظة على مصالح باقي النخب، من الرأسماليين والعسكريين؛ فعندما يتم اختيار رجل عمره 84 عاماً (لقيادة المرحلة الانتقالية، ثم لقيادة البلد)، فهذا مؤشر واضح على إفلاس المؤسسة السياسية، وعلى الفراغ الذي حُلّق في هرم السلطة»⁽²⁷⁸⁾؛ ففي نهاية الأمر، «الثورة» لم تحقق أهدافها بعد، بل إن بعض المحللين المتشائمين يصنّف «الثورة» التونسية ضمن الانقلابات الثورية التي تعتمد فيها بعض النخب السياسية على الثورات القائمة، وتستثمر فيها للانقلاب على نخب سياسية أخرى، متخذة إياها ككش فداء، يقلل من الحسائر ومن المقاومة المحتملة للتغيير؛ «وفي وقت مبكر، بات واضحاً أن الثورة لم تُطح النظام القديم؛ فسُخِبة النظام السابق - بعد تجميل صورتها - عاودت إحكام قبضتها على الحكم. ولم تكن الثورة سوى فشل ذريع؛ إذ خلصت البلاد من رأس النظام فحسب»⁽²⁷⁹⁾. وما زالت الثورة، حتى اليوم، عاجزة عن التحرر من بقايا النظام، ومن قبضتها الحديد على جميع مقاليد السلطات الأساسية في تونس.

بل إن أسوأ ما يمكن أن تكون الثورة قد حقّقه، هو نجاحها في إعادة إحياء البيئات التقليدية للتضامن الاجتماعي كالقبيلة مثلاً، وإعادة النفّاش حول مسألة المرأة إلى الصغر، بعدما كانت تونس تمثل النموذج على المستوى العربي بالنسبة للخطوات التي خطتها في ما يتعلق بحقوق المرأة، يحدد جون آر برادلي مجموعة من الصراعات التي اندلعت في تونس بعد الثورة على أساس قبلي، ويستشهد في تبرير ما سمي «بمفاجات تفجر الصراعات القبلية»⁽²⁸⁰⁾ بما أورده مجلة كاييتاليس التونسية الإلكترونية حيث كتبت «في ظل غياب أطر العمل الاجتماعية السياسية (حكومة قوية، وأحزاب سياسية يعول عليها، ومؤسسات تمثيلية)، يلجأ الأفراد إلى ما يعتبرونه الهياكل الاجتماعية الأساسية؛ كالأُسرة والعشيرة والقبيلة. لقد حلّ التحالف القبلي والعشائري محل الشعور بالانتماء القومي والولاء المدني؛ إن وُجد هذا الشعور من الأساس في تلك المناطق المعرضة جوراً للتهميش والإهمال من الدولة»⁽²⁸¹⁾، إن

ان لاق الثورة إلى مثل هذه المتهاب فهو مؤشر على نوع من النيهان، الذي لا يمكن تفسيره إلا بالصراع بين الجهات التي تريد احتطاف الثورة و لاستثمار فيها لمصلحة أيديولوجيتها الخاصة.

عندما نلاحظ أن «بني الطيفه الراسمالية التي صنعت أرمه اجتماعية تمكنت من النقاء بعد «الثورة»، والأمر ذاته بالنسبة إلى النواة الصلبة للأجهزة القمعية، المشكّلة من الجيش ومن أهم القوات شبه العسكرية: الحرس الوطني وكثير من الألوية»⁽²⁸²⁾، وعندما نلاحظ الحشد الإعلامي الذي يحاول، بكل ما أوتي من قوة، استغلال الاستقطاب الموجود بين الإسلاميين والعلمانيين، للتعطيه على العودة الهلوسة لـ «ديناصورات» النظام السابق، وعندما نلاحظ عودة النصامات التقليدية إلى السطح، نتأكد من أن بقايا النظام السابق تمكنت من محادعة «الثورة» واستعادة سلطتها ومحالاتها من دون أن تثير حفيظة أحد. من هنا، نستطيع القول إن الآليات التي صعدتها المرحلة الانتقالية تنقى بصيصاً من الأمل، يجعلنا نؤمن بأن تونس ما زالت تقاوم الغسل، وأن فرص نجاحها لا تزال قائمة.

(97) Palestinian Center for Human Rights (PCHR), Arab Organization for Human Rights (AOHR) and International Legal Assistance Consortium (ILAC), «Report of the Independent Civil Society Fact-Finding Mission to Libya,» January 2012, p. 14.

(98) The International Institute of Strategic Studies (IISS), *The Military Balance, The Annual Assessment of Global Military Capabilities and Defense Economics* (New York: IISS, 2010), p. 262.

(99) Palestinian Center for Human Rights (PCHR), Arab Organization for Human Rights (AOHR) and International Legal Assistance Consortium (ILAC), p. 12.

(100) Gilbert Achcar, *The People Want: A Radical Exploration of the Arab Uprising*, Translated from the French by G. M. Goshgarian (Berkeley: University of California Press, 2013), p. 164.

(101) William C. Taylor, *Military Responses to the Arab Uprisings and the Future of Civil-Military Relations in the Middle East. Analysis from Egypt, Tunisia, Libya, and Syria* (New York, NY: Palgrave Macmillan, 2014), p. 167.

(102) Ibid., p. 165.

(103) Mattia Toaldo, «Libya's Transition and the Weight of the Past,» in: Anna Bozzo et Pierre-Jean Luizard (dirs.), *Polarisations politiques et confessionnelles La Place de l'islam dans les 'transitions' arabes*, Actes du Colloque, Paris 26 27 mars 2014 (Roma: Roma Tre press, 2015), p. 80.

(104) Taylor, p. 9.

(105) Toaldo, p. 80.

(106) Taylor, p. 160.

(107) Ibid., p. 166.

(108) محمد نجيب بوطالب، الظواهر القلبية والهوية في المجتمع العربي المعاصر 'دراسة مقارنة لنورين التوسية والليبية (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 75.

(109) Taylor, p. 163.

(110) Florence Gaub, *Arab Armies. Agents of Change? Before and After 2011*, Chaillot Papers; no. 131 (Paris: European Union, Institute for Security Studies, 2014), p. 16.

(111) R. Blake McMahon and Branislav L. Slantchev, «The Guardianship Dilemma: Regime Security through and from the Armed Forces,» *American*

Political Science Review, vol. 109, no. 2 (May 2015), p. 305.

(112) Zoltan Barany, «Reforming Defense Lessons for Arab Republics,» *Strategic Studies Quarterly*, vol. 7, no. 4 (Winter 2013), pp. 64-65.

(113) Toaldo, p. 79.

(114) Ibid., p. 79.

(115) Palestinian Center for Human Rights (PCHR), Arab Organization for Human Rights (AOHR) and International Legal Assistance Consortium (ILAC), p. 14.

(116) Philippe Droz-Vincent, *A Return of Armies to the Forefront of Arab Politics?*, IAI Working Papers; 11 | 21 (Roma: Istituto Affari Internazionali, 2011), p. 6.

(117) Florence Gaub, «Libya: The Struggle for Security,» Brief Issue; 25, European Union, Institute for Security Studies, Paris, June 2013, p. 1.

(118) Ibid., p. 1.

(119) Gaub, *Arab Armies*, p. 39, and Taylor, pp. 161-163.

(120) Gaub, *Arab Armies*, p. 39, and Taylor, pp. 161-163.

(121) Zoltan Barany, «Comparing the Arab Revolts: The Role of the Military,» *Journal of Democracy*, vol. 22, no. 4 (October 2011), p. 33, and Mohamed Abd Elsalam, «The Military and the Developments in its Role in the Arab World,» in: Carsten Jensen (ed.), *Developments in Civil-Military Relations in the Middle East* (Copenhagen: Royal Danish Defence College, 2008), p. 68, and Taylor, p. 163.

(122) Palestinian Center for Human Rights (PCHR), Arab Organization for Human Rights (AOHR) and International Legal Assistance Consortium (ILAC), p. 15.

(123) Ibid., pp. 15-16.

(124) Gaub, *Arab Armies*, p. 40.

(125) Droz-Vincent, p. 2.

(126) Chris Townsend, «Civil-military Relations in Tunisia and Libya through the Arab Spring,» *Journal of Defense Resources Management*, vol. 6, no. 2 (11) (2015), p. 7.

(127) Gaub, «Libya,» p. 2.

(128) Barany, «Reforming Defense Lessons,» p. 65.

(129) Gaub, «Libya,» p. 3.

(130) The International Institute of Strategic Studies, p. 248.

(131) Joseph Kechichian and Jeanne Nazimek, «Challenges to the Military in Egypt,» *Middle East Policy*, vol. 5, no. 3 (Fall 1997), p. 129.

(132) Samuel E. Finer, *The Man on Horseback. The Role of the Military in Politics* (London: Pall Mall Press, 1969), p. 42.

(133) Ibid., p. 59.

(134) Ibid., p. 37.

(135) Hazem Kandil, *Soldiers, Spies, and Statesmen: Egypt's Road to Revolt*, Updated ed. (London; New York: Verso, 2014), p. 43.

(136) Achcar, p. 151.

(137) Finer, p. 186.

(138) Achcar, p. 149.

(139) Gaub, *Arab Armies*, p. 23.

(140) يزيد صايع، «فوق الدولة: جمهورية الضبط في مصر»، أوراق كارنيغي، الشرق الأوسط، مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي، واشنطن، آب/أغسطس 2012.

(141) حلدون حسن النقيب، الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر دراسة بنائية مقارنة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 144.

(142) جون ار برادلي، ما بعد الربيع العربي: كيف اختطف الإسلاميون ثورات الشرق

الأوسط، ترجمة شيماء عبد الحكيم طه (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013)، ص 61.

(143) Zeinab Abul-Magd, «The Egyptian Military in Politics and the Economy: Recent History and Current Transition Status,» CMI Insight, no. 2, Chr. Michelsen Institute, Bergen, Norway, October 2013, p. 8; Robert B. Satloff, *Army and Politics in Mubarak's Egypt* (Washington, DC: The Washington Institute for Near East Policy, 1988), pp. 1-2, and Steven A. Cook, *Ruling but not Governing: The Military and Political Development in Egypt, Algeria, and Turkey* (Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 2007), p. 28.

(144) Ahmed Abdalla, «The Armed Forces and the Democratic Process in Egypt,» *Third World Quarterly*, vol. 10, no. 4 (October 1988), p. 1464.

(145) Taylor, p. 9.

(146) للتفصيل أكثر، يُنظر: محمد توفيق توفيق، التعددية الدينية والإثنية في مصر دراسة في طبيعة العلاقات والتفاعلات، دراسات الاختلاف والحوار والتعايش؛ 3 (بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2014).

(147) عزمي بشارة، هل من مسألة قبطية في مصر؟ (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 41.

(148) المرجع نفسه، ص 44.

(149) Philip Marfleet, «Never 'One Hand': Egypt

2011,» in: Mike Gonzalez and Houman Barekat, *Arms and the People. Popular Movements and the Military from the Paris Commune to the Arab Spring* (London: Pluto Press, 2013), p. 164.

(150) Imad Harb, «The Egyptian Military in Politics: Disengagement or Accommodation?,» *Middle East Journal*, vol. 57, no. 2 (Spring 2003), p. 282.

(151) Marfleet, p. 164; Barany, «Comparing the Arab Revolts,» p. 32; Cook, p. 19; Satloff, p. 49, and Ahmed Hashim, «The Egyptian Military, Part Two: From Mubarak Onward,» *Middle East Policy*, vol. 18, no. 4 (Winter 2011), p. 109.

(152) Harb, pp. 283-284.

(153) Hicham Bou Nassif, «Generals and Autocrats: How Coup-Proofing Predetermined the Military Elite's Behavior in the Arab Spring,» *Political Science Quarterly*, vol. 130, no. 2 (2015), p. 260.

(154) Bård Kårtveit and Maria Gabrielsen Jumbert, *Civil-Military Relations in the Middle East. A Literature Review*, CMI Working Paper, WP 2014: 5 (Bergen, Norway: Chr. Michelsen Institute, June 2014), p. 10.

(155) Michael Makara, «Coup-Proofing, Military Defection, and the Arab Spring,» *Democracy and Security*, vol. 9, no. 4 (2013), pp. 345-346.

(156) Hashim, «The Egyptian Military, Part Two,» p. 115.

(157) Makara, p. 347.

(158) Achcar, p. 151.

(159) Abul-Magd, p. 3.

(160) صايغ، ص 9.

(161) Anne Alexander, «Storming the Ramparts of Tyranny': Egypt and Iraq 1945-63,» in: Gonzalez and Barekat, p. 274.

(162) براندلي، ص 62.

(163) صايغ، ص 3.

(164) عزمي بشارة، «الجيش والحكم العربي: إشكاليات نظرية»، سياسات عربية، العدد 22 (أيلول/سبتمبر 2016)، ص 27.

(165) The International Institute of Strategic Studies, p. 272.

(166) Gaub, *Arab Armies*, p. 36.

(167) بشير رين العابدin، الجيش والسياسة في سورية (1918-2000م) (دراسة نقدية) (لندن: دار الجابية، 2008)، ص 326.

(168) Finer, p. 61.

(170) Finer, p. 125.

(171) Taylor, p. 9.

(172) Ibid., p. 9.

(173) Pierre-Jean Luizard, «Irak-Syrie-Liban-Golfe: Comment se construit la haine confessionnelle?», dans: Bozzo et Luizard (dirs.), p. 57.

(174) Ibid., p. 57.

(175) Derek Lutterbeck, *Arab Uprisings and Armed Forces: Between Openness and Resistance*, SSR Paper; 2 (Geneva: Centre for the Democratic Control of Armed Forces (DCAF), 2011), p. 46.

(176) Gaub, *Arab Armies*, p. 37.

(177) Luizard, p. 5.

(178) العابدين، ص 504.

(179) Alasdair Drysdale, «Ethnicity in the Syrian Officer Corps: A Conceptualization», *Civilisations*, vol. 29, nos. 3-4 (1979), p. 366.

François Burgat, «La Crise syrienne au prisme de la variable religieuse (2011- (180) 2014)», dans Bozzo et Luizard (dirs.), p. 10.

(181) Lutterbeck, p. 46.

(182) Ibid., p. 46.

(183) Burgat, p. 14.

(184) العابدين، ص 325.

(185) Gaub, *Arab Armies*, p. 36, and Kårtveit and Jumbert, pp. 14-15.

(186) Barany, «Comparing the Arab Revolts,» p. 36.

(187) Taylor, p. 108.

(188) Ibid., p. 104.

(189) Ibid., p. 104.

(190) Makara, pp. 348-349.

(191) Ibid., pp. 348-349.

(192) Ulrich Pilster and Tobias Böhmelt, «Coup-Proofing and Military Effectiveness in Interstate Wars, 1967-99,» *Conflict Management and Peace Science*, vol. 28, no. 4 (2011), p. 5.

(193) Asaad Al Saleh and Loren White, «Dissecting an Evolving Conflict: The Syrian Uprising and the Future of the Country,» Report, Institute for Social Policy and Understanding and the New American Foundation, June 2013, p. 7.

(194) Achcar, p. 183.

(195) Gaub, *Arab Armies*, p. 37.

(196) Jonathan Spyer, «Defying a Dictator: Meet the Free Syrian Army,» *World Affairs Journal* (May-June 2012), p. 47, and Maya Bhardwaj, «Development of Conflict in Arab Spring Libya and Syria: From Revolution to Civil War,» *Washington University International Review*, vol. 1 (Spring 2012), p. 86.

(197) Ribal Al Assad, «Syria and the Arab Spring: The Middle East on the Verge of War,» *India International Centre Quarterly*, vol. 39, no. 1 (Summer 2012), p. 90.

(198) Burgat, p. 14.

(199) Ibid., p. 19.

(200) Bhardwaj, p. 84.

(201) The International Institute of Strategic Studies, p. 277.

(202) الحوثية في اليمن: الأطماع المذهبية في ظل التحولات الدولية (صنعاء: مركز الجزيرة العربية للدراسات والبحوث، 2008)، ص 6.

(203) Lisa Wedeen, *Peripheral Visions: Publics, Power, and Performance in Yemen*, Chicago Studies in Practices of Meaning (Chicago; London: University of Chicago Press, 2008), p. 38.

(204) Madawi Al-Rasheed and Robert Vitalis,

«Introduction,» in: *Counter-Narratives: History, Contemporary Society, and Politics in Saudi Arabia and Yemen* (New York: Palgrave Macmillan, 2004), p. 4.

(205) Asher Orkaby, «A Passing Generation of Yemeni Politics,» Middle East Brief, no. 90, Brandeis University, Massachusetts, 2015, p. 2.

(206) Paul Dresch, *Tribes, Government, and History in Yemen* (Oxford: Clarendon Press; New York: Oxford University Press, 1989), p. 266.

(207) «حوار مع الشيخ سنان أبو لحوم»، في: التغيير. أول موقع إخباري يمني مستقل.

14/12/2007، شوهدي في 30/3/2016، في: [http://www.al-](http://www.al-tagheer.com/news838.html)

[tagheer.com/news838.html](http://www.al-tagheer.com/news838.html)

(208) Wedeen, p. 51.

(209) Patrick Labaune, «Démocratie tribale et système politique en République arabe du Yémen,» *Revue française de science politique*, vol. 31, no. 4 (1981), p. 745.

(210) Wedeen, p. 51.

(211) عادل الشرجبي، «إعادة هيكلة الجيش اليمني»، تحليل سياسات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، أيار/مايو 2013، ص 6.

(212) محسن حصرووف، «الجيش اليمني.. النشأة والتطور واتجاهات المستقبل»، تقارير، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، 30 تموز/يوليو 2012، ص 5.

(213) Samy Dorlian, «Les Partisans d'al-Hûthi au Yémen: De plutôt opprimés à plutôt oppresseurs,»

dans: Bozzo et Luizard (dirs.), p. 70.

(214) الحوثية في اليمن، ص 29-30.

(215) عیدروس النقیب، «التحديات التي تواجه الوحدة اليمنية»، في: فؤاد عبد الجلیل الصلاحي (محرر)، الثورة اليمنية: الخلفية والآفاق (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 218.

(216) Charles F. Swagman, «Tribe and Politics: An Example from Highland Yemen,» *Journal of Anthropological Research*, vol. 44, no. 3 (Autumn 1988), p. 252.

(217) Achcar, p. 156.

(218) فؤاد عبد الجلیل الصلاحي، «بشوء الدولة الحديثة في اليمن ومسار تشكلها»، في: الصلاحي (محرر)، ص 38.

(219) Wedeen, p. 149.

(220) Dorlian, p. 69.

(221) Sarah Phillips, *Yemen's Democracy Experiment in Regional Perspective: Patronage and Pluralized Authoritarianism* (New York: Palgrave Macmillan, 2008), p. 92.

(222) الصلاحي، ص 50.

(223) الشرجبي، ص 4.

(224) Dresch, p. 7.

(225) Phillips, p. 92.

(226) عبد الكريم غانم، «القبيلة اليمنية: دورها وموقعها في الثورة والتغيير

السياسي»، في: الصلاحي (محرر)، ص 218.

(227) Phillips, pp. 101 102.

(228) Ibid., p. 92.

(229) Ibid., p. 92.

(230) Sami Kronenfeld and Yoel Guzansky, «Yemen: A Mirror to the Future of the Arab Spring,» *Military and Strategic Affairs*, vol. 6, no. 3 (December 2014), p. 79.

(231) Dorlian, pp. 62-63.

(232) خصروف، ص 11.

(233) Makara, p. 351.

(234) الشرجبي، ص 2.

(235) Gaub, *Arab Armies*, p. 41.

(236) Makara, p. 350.

(237) Lutterbeck, pp. 36 37.

(238) Makara, p. 351.

(239) Ibid., p. 351.

(240) Achcar, p. 156

(241) Makara, pp. 350-351.

(242) الشرجبي، ص 1.

(243) «حوار مع الشيخ سنان أبو لحوم».

(244) Achcar, pp. 159 160.

(245) Makara, p. 352.

(246) The International Institute of Strategic Studies, p. 272.

(247) Risa Brooks, «Abandoned at the Palace: Why the Tunisian Military Defected from the Ben Ali Regime in January 2011,» *Journal of Strategic Studies*, vol. 36, no. 2: *The Role of the Military in the Arab Tumult* (2013), p. 210.

(248) Vegard Halkjelsvik, «Military Defections in Tunisia, Libya, Egypt and Syria» (Bachelor Thesis in Comparative Politics, University of Bergen, Institute of Comparative Politics, 2014), p. 11.

(249) Brooks, p. 209.

(250) Gaub, *Arab Armies*, p. 25.

(251) Lisa Anderson, «Demystifying the Arab Spring: Parsing the Differences Between Tunisia, Egypt, and Libya,» *Foreign Affairs*, vol. 90, no. 3 (May June 2011), p. 3.

(252) Gaub, *Arab Armies*, p. 25.

(253) Taylor, p. 74, and Townsend, p. 6.

(254) Taylor, p. 74.

(255) Zeki Sarigil, «Civil Military Relations Beyond

Dichotomy: With Special Reference to Turkey,» *Turkish Studies*, vol. 12, no. 2 (June 2011), p. 267.

(256) Eva Bellin, «Reconsidering the Robustness of Authoritarianism in the Middle East: Lessons from the Arab Spring,» *Comparative Politics*, vol. 44, no. 2 (January 2012), pp. 133-134.

(257) Noura Borsali, «Le Complot de décembre 1962: Fallait il les tuer?,» *Réalités Online*, 22/6/2006, Accessed on 10/10/2016, at: <https://bit.ly/2t1OY2d>

(258) Brooks, p. 216.

(259) بوطالب، ص 106.

(260) Emma C. Murphy, *Economic and Political Change in Tunisia From Bourguiba to Ben Ali* (London: Macmillan Press, 1999), p. 200.

(261) Taylor, p. 33.

(262) Murphy, p. 220.

(263) Gaub, *Arab Armies*, p. 25, and Barany, «Comparing the Arab Revolts,» p. 31.

(264) Brooks, p. 209.

(265) Barany, «Reforming Defense Lessons,» p. 60.

(266) Townsend, p. 6.

(267) Brooks, pp. 212-213.

(268) Ibid., p. 213.

(269) Ibid., p. 213.

(270) كوير اين هانلون، «إصلاح القطاع الأمني في تونس: عام بعد ثورة الياسمين»، تقرير حاصل رقم 304، معهد السلام الأميركي، واشنطن، آذار/مارس 2012، ص 5.

(271) Murphy, p. 231.

(272) Townsend, p. 6.

(273) Eva Bellin, «Drivers of Democracy: Lessons from Tunisia,» Middle East Brief; no. 75, Crown Center for Middle East Studies, Massachusetts, August 2013, p. 8, endnote 2.

(274) Lutterbeck, pp. 20-22.

(275) أحمد عبد ربه، «العلاقات المدنية العسكرية وإشكاليات التحول الديمقراطي: دراسة في الاتجاهات النظرية الحديثة»، في: حمدي عبد الرحمن (محرر)، الجيوش والتحول الديمقراطي في إفريقيا. معوقات بناء الدولة (الدوحة: منتدى العلاقات العربية الدولية، 2015)، ص 54.

(276) Gaub, *Arab Armies*, p. 28.

(277) هيكل بن محفوظ، «بطرة عامة على واقع إصلاح قطاع الأمن في تونس بعد ثلاث سنوات من الانتقال الديمقراطي»، مبادرة الإصلاح العربي، تونس، تموز/يوليو 2014، ص 8.

(278) Achcar, p. 147.

(279) برادلي، ص 21.

(280) بوطالب، ص 109.

(281) بر ادلي، ص 83.

(282) Achcar, p. 147.

خاتمة

تمثل العلاقات العسكرية - المدنية في العالم العربي عمومًا، وفي الدول التي شملتها هذه الدراسة خصوصًا، حالات خاصة تتأثر كل واحدة منها بكيفية تسيير مسار بناء الدولة، وبالأحوال الاجتماعية والأنثروبولوجية والثقافية التي تميز البلد، وبالأوضاع الدولية المحيطة بالعالم العربي والصاغطة عليه. وبالنظر إلى هذه العوامل، طورت الأنظمة الشمولية آليات خاصة للوقاية من انقلاب العسكر عليها، وأثرت هذه الآليات بدور هام في قوة الجيش ووحدته وانسجامه.

كان لجميع هذه العوامل دور مهم في تحديد ردة فعل الجيش على الفعل الثوري، وعلى مخرجات الثورات العربية في ما بعد، الأمر الذي أدى، في نهاية المطاف، إلى عدم استقرار الأوضاع في جميع دول الربيع العربي، ولكن بنسب متفاوتة:

في ليبيا، استعمل القذافي الجيش للوصول إلى السلطة، ثم قام بتهميشه اتقاء لأي تحرك معاد منه، ما حوله إلى قوة عسكرية افتراضية، انهارت بسرعة بعد اندلاع «الثورة»، وأدخلت البلد في مآهة الحرب الأهلية، فتحولت ليبيا إلى دولة فاشلة.

تمثل الحالة المصرية حالة خاصة تميزت باستحواد الجيش على الدولة، وعلى الحاكم نفسه، فكانت ردات فعل الجيش سياسية في بداية الأمر لإعادة ترتيب البيت، ثم عسكرية في نهاية المطاف، ما أدخل البلد في حالة فوضى وعدم استقرار. ولا يزال الجيش يعمل على تسييرها بطريقة الحاصفة، بعرض إحراج البلد من هذا الوضع، وتغاديًا للفشل الذي أصبح وشيكًا.

في سورية، كانت لال الأسد البداية ذاتها مع الجيش الذي أوصلهم إلى الحكم، لكنهم عملوا على دمج الجيش في نظام الحكم، وتحويله إلى أداة للدفاع عن الطائفة الحاكمة. وكان وجود الجيش مرتبطًا بوجود النظام، الأمر الذي يفسر الرد العنيف للجيش على الثوار، واستماتة العسكر في حماية رئيسهم ونظامهم. والنتيجة النهائية هي انهيار البلد ككل، وغرقه في وحل الحرب الأهلية والفشل.

أما اليمن، فكان صحبة تاريخه القبلي والطائفي والجهوي؛ فتعقد الأوضاع الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية والدولية جعل تعامل الحاكم مع الجيش تعاملًا مضطربًا وقلقًا، الأمر الذي أنتج، في نهاية المطاف، قوات مسلحة غير منصبة وغير موحدة،

علاوة على أن ردة فعلها كانت مضطربة وغير مضبطة، وكانت بذلك مفتاحاً لحرب أهلية أدت بالبلد إلى الفشل.

تبقى الحالة التونسية الحالة الإيجابية الوحيدة، ولو نسبياً، حيث أدى حرص النظام على احترافية الجيش إلى ردة فعل احترافية مستقلة ومحايطة، وساهم بوضوح في تجييب البلد الانزلاق في مناهات الفوضى والحرب الأهلية. بذلك، تبقى تونس، على الرغم من حالة عدم الاستقرار التي تمر بها، أكثر الدول العربية قدرة على إبحاح ثورتها. وإذا ما استمر الجيش التونسي في تشريف احترافيته، فإن تونس ستكون أولى دول الربيع العربي التي يمكن أن تتجو من الفشل.

بهذا، يمكننا القول إن آلية التحليل المعتمدة، والمؤسسة على عدد من المفاهيم المفتاحية، سمحت لنا بتشريح كل حالة على حدة، وفهم الوصعيات المختلفة. بالنّالي، تقديم التفسيرات التي نحسبها مقبّعة، لوصعيات معقدة، ميرت الوضع العربي قبل ثورات الربيع العربي وأثناءها وبعدها.

تبقى للنتيجة الأساسية التي توصلنا إليها بعد هذا التحليل المعصل، وهي أن العلاقات العسكرية المدنية، إذا كانت مطلقة من مدأ احترافية الجيش، فإنها بلا شك ستساهم في تقوية الدولة، سلطة ومعارضة، الأمر الذي سيسمح بتطوير حكومة ديمقراطية قادرة على وقاية البلد من الفشل، خصوصاً إذا كانت العلاقات العسكرية - المدنية مبنية على انقياد الضباط للسلطة المدنية طواعية. وهذا ما يمكن أن نسميه «تحكم المدنيين في العسكريين» بالمعنى الذي أعطاه له هنتغتون، أي «التبعية الصحيحة للخبرات، والمهارات العسكرية، لأهداف السياسة التي تحددها السلطات المدنية»⁽²⁸³⁾. ويؤكد هنا «التبعية الصحيحة»، أي التبعية التي لا تقيد استيلاء الحاكم على الجيش، والتي لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل نظام ديمقراطي يحترم «سيادة القانون، والحريات المدنية، والمناهج المستقرة والثابتة للانتقال السلمي للحكم، والممارسات العملية والفعالة للانتخاب في المناصب الرسمية، مع وجود حكومة، وسيرورات حكم»⁽²⁸⁴⁾ واصحة؛ فالعلاقات العسكرية - المدنية كلّ معقد ومترابط، يحتاج فيه إلى احترافية الجيش لإنجاح الديمقراطية. وفي الوقت نفسه، تحتاج احترافية الجيش إلى الديمقراطية نفسها من أجل أن تتجسد في الواقع.

(283) Kees Homan, «Civilian Control of the Military,» in: Mert Kayhan and Merijn Hartog (eds.), *Promoting Good Governance in the Security Sector: Principles and Challenges* (The Netherlands: The Centre of European Security Studies (CESS), 2013), p. 83.

(284) Richard H. Kohn, «How Democracies Control the Military,» *Journal of Democracy*, vol. 8, no. 4 (October 1997), p. 144.

المراجع

1 - العربية

- الأعداء، فؤاد. علم الاجتماع العسكري. عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2008.
- باراسي، رولتان. كيف تستجيب الحيوث للثورات؟ ولماذا؟. ترجمة عبد الرحمن عياش. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2017.
- برالي، جون آر. ما بعد الربيع العربي كيف احتل الإسلاميون ثورات الشرق الأوسط. ترجمة شيماء عبد الحكيم طه. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.
- بشارة، عزمي. «الجيش والحكم العربي: إشكاليات نظرية». سياسات عربية. العدد 22 (أيلول/سبتمبر 2016)، ص 7-29.
- . في الثورة والاقبالية للثورة. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.
- . هل من مسألة قبطية في مصر؟. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.
- بن محفوظ، هيكمل. «بطرة عامة على واقع اصلااح قطاع الأمن في تونس بعد ثلاث سنوات من الانتال الديمقراطية». مبادرة الاصلاح العربي، تونس، تموز/يوليو 2014.
- بوطالب، محمد نجيب. الظواهر القبلية واحةوبة في المجتمع العربي المعاصر دراسة مقارنة للثورنين التونسية والليبية. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.
- بوعمان، سلمان. فلسفة الثورات العربية مقارنة تفسيرية لنموذج انتفاضي جديد. دراسات فكرية؛ 1، بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2012.
- توفيق، محمد توفيق. التعددية الدينية والإثنية في مصر دراسة في طبيعة العلاقات والتفاعلات. دراسات الاحتلاف والحوار والتعايش؛ 3، بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2014.
- الحوثية في اليمن الأطماع المذهبية في ظل التحولات الدولية. صنعاء: مركز الجزيرة العربية

للدراسات والبحوث، 2008.

حضور، محسن. «الجيش اليمني.. الشأ والتطور واتجاهات المستقبل». تقارير، مركز
الجزيرة للدراسات، الدوحة، 30 تموز/يوليو 2012.

ذهب، عمرو منير. لا إكراه في الثورة. الرباط: دار الأمان؛ الجزائر: منشورات الاختلاف؛
الرياض: منشورات صغاف، 2013.

رب العائدين، بشير. الجيش والسياسة في سورية (1918-2000م) (دراسة نقدية). لندن: دار
الجابية، 2008.

الشرجي، عادل. «إعادة هيكلة الجيش اليمني». تحليل سياسات، المركز العربي للأبحاث
ودراسة السياسات، الدوحة، أيار/مايو 2013.

صايغ، يزيد. «هوق الدولة: جمهورية الصباط في مصر». أوراق كاريبي، الشرق الأوسط،
مؤسسة كاريبي للسلام الدولي، واشنطن، آب/أغسطس 2012.

الصلاحي، فواد عبد الجليل (محرر). الثورة اليمنية الخلمية والأفاق. بيروت: المركز العربي
للأبحاث ودراصة السياسات، 2012.

عبد ربه، أحمد. «العلاقات المدنية العسكرية وإشكاليات التحول الديمقراطي: دراسة في
الاتجاهات النظرية الحديثة»، في: حمدي عبد الرحمن (محرر)، الحيوش والتحول
الديمقراطي في إفريقيا معوقات بناء الدولة (الدوحة: منتدى العلاقات العربية الدولية، 2015)،
ص 19-56.

هانلون، كويراين. «إصلاح القطاع الأمني في تونس: عام بعد ثورة الياسمين». تقرير خاص
رقم 304. معهد السلام الأميركي، واشنطن، آذار/مارس 2012.

2- الأجنبية

Abdalla, Ahmed. «The Armed Forces and the Democratic Process in Egypt» *Third World
Quarterly* vol 10, no 4 (October 1988), pp 1452-1466.

Abul-Magd, Zaimah «The Egyptian Military in Politics and the Economy: Recent History and
Current Transition Status.» *CM Insight*, no 2, Chr Michelsen Institute, Bergen,

Norway, October 2013

Achcar, Gilbert *The People Want: A Radical Exploration of the Arab Uprising* Translated from the French by G. M. Goshgarian Berkeley: University of California Press, 2013

Anderson, Lisa «Demystifying the Arab Spring: Parsing the Differences Between Tunisia, Egypt, and Libya.» *Foreign Affairs* vol. 90, no. 3 (May-June 2011), pp. 2-7

Al-Assad, Ribal «Syria and the Arab Spring: The Middle East on the Verge of War » *India International Centre Quarterly* vol. 39, no. 1 (Summer 2012), pp. 84-92

Baev, Jordan and Edwin Micewski (eds.) *Civil-Military Relations: Teaching Guide and Curriculum* Special Edition, 1/2005, National Defence Academy Publication Series, Vienna: National Defence Academy, 2005

Barak, Oren and Assaf David «The Arab Security Sector: A New Research Agenda for a Neglected Topic » *Armed Forces and Society* vol. 36, no. 5 (2010), pp. 804-824

Barany, Zoltan. «Building Democratic Armies,» in Zoltan Barany and Robert C. Moser (eds.), *Is Democracy Exportable?* (Cambridge: New York: Cambridge University Press, 2009), pp. 178-204.

«Comparing the Arab Revolts: The Role of the Military » *Journal of Democracy* vol. 22, no. 4 (October 2011), pp. 28-39

«Reforming Defense Lessons for Arab Republics » *Strategic Studies Quarterly* vol. 7, no. 4 (Winter 2013), pp. 46-69

Beikin, Aaron and Evan Schofer «Coups Risk, Counterbalancing, and International Conflict » *Security Studies* vol. 14, no. 1 (2005), pp. 140-177

Beikin, Eva. «Drivers of Democracy: Lessons from Tunisia » Middle East Brief, no. 75 Crown Center for Middle East Studies, Massachusetts, August 2013

«Reconsidering the Robustness of Authoritarianism in the Middle East: Lessons from the Arab Spring » *Comparative Politics* vol. 44, no. 2 (January 2012), pp. 127-149

- Bhardwaj, Maya. «Development of Conflict in Arab Spring Libya and Syria: From Revolution to Civil War» *Washington University International Review*, vol. 1 (Spring 2012), pp. 76-97
- Born, Hans, Marina Caparini and Karl Haldrup. *Models of Democratic Control of the Armed Forces: A Multi-Country Study Comparing 'Good Practices' of Democratic Control*. DCAF Working Paper Series, no. 47. Geneva: Geneva Centre for the Democratic Control of Armed Forces (DCAF), 2002.
- Bou Nassif, Hicham. «Generals and Autocrats: How Coup-Proofing Predetermined the Military Elite's Behavior in the Arab Spring.» *Political Science Quarterly*, vol. 130, no. 2 (2015), pp. 245-275
- Bozzo, Anna et Pierre-Jean Luizard (dirs.). *Polarisations politiques et confessionnelles: La Place de l'islam dans les 'transitions' arabes*. Actes du Colloque, Paris 26-27 mars 2014. Roma: Roma Tre-press, 2015
- Brooks, Risa. «Abandoned at the Palace: Why the Tunisian Military Defected from the Ben Ali Regime in January 2011» *Journal of Strategic Studies*, vol. 36, no. 2 *The Role of the Military in the Arab Tumult* (2013), pp. 205-220
- Bruneau, Thomas C. «Introduction,» in: Thomas C. Bruneau, and Scott D. Tolison (eds.), *Who Guards the Guardians and How: Democratic Civil-Military Relations* (Austin: University of Texas Press, 2006), pp. 1-14.
- Cafaro, Giuseppe (ed.). *Handbook of the Sociology of the Military*. Handbooks of Sociology and Social Research. Boston, MA: Springer US, 2006
- Cook, Steven A. *Ruling but not Governing: The Military and Political Development in Egypt, Algeria, and Turkey*. Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 2007
- Crisis Group Middle East (CGME). «Yemen at War» Crisis Group Middle East Briefing, no. 45, International Crisis Group, Sanaa, Brussels, 27 March 2015
- Dresch, Paul. *Tribes: Government and History in Yemen*. Oxford: Clarendon Press, New

York: Oxford University Press, 1989

Droz-Vincent, Philippe. *A Return of Armies to the Forefront of Arab Politics?* IAI Working Papers, 11-21. Roma: Istituto Affari Internazionali, 2011

Drysdale, Alasdair. «Ethnicity in the Syrian Officer Corps: A Conceptualization.» *Civilisations*, vol. 29, nos. 3-4 (1979), pp. 359-374.

Finer, Samuel E. *The Man on Horseback: The Role of the Military in Politics*. London: Pall Mall Press, 1969

Gaub, Florence. *Arab Armies: Agents of Change? Before and After 2011*. Chaillot Papers, no. 131. Paris: European Union Institute for Security Studies, 2014

«Libya: The Struggle for Security» Brief Issue, 25. European Union, Institute for Security Studies, Paris, June 2013

Gonzalez, Mike and Houman Barakat. *Arms and the People: Popular Movements and the Military from the Paris Commune to the Arab Spring*. London: Pluto Press, 2013

Halkjelsvik, Vegard. «Military Defections in Tunisia, Libya, Egypt and Syria» Bachelor Thesis in Comparative Politics, University of Bergen, Institute of Comparative Politics, 2014.

Al-Hamdi, Mohamed Talib. «Military in-and-out of Politics: A Theoretical Approach to Military Disengagement» *International Journal of Humanities and Social Science*, vol. 4, no. 8 (1) (June 2014), pp. 193-201

Harb, Imad. «The Egyptian Military in Politics: Disengagement or Accommodation?» *Middle East Journal*, vol. 57, no. 2 (Spring 2003), pp. 269-290

Hashim, Ahmed S. «The Egyptian Military, Part One: From the Ottomans through Sadat.» *Middle East Policy*, vol. 18, no. 3 (Fall 2011), pp. 63-78.

«The Egyptian Military, Part Two: From Mubarak Onward» *Middle East Policy*, vol. 18, no. 4 (Winter 2011), pp. 106-128.

- Homan, Kees. «Civilian Control of the Military,» in: Mert Kayhan and Merijn Hartog (eds.), *Promoting Good Governance in the Security Sector: Principles and Challenges* (The Netherlands: The Centre of European Security Studies (CESS), 2013), pp. 83-93.
- Horowitz, Donald L. *Ethnic Groups in Conflict*. Berkeley, CA: University of California Press, 1985.
- Huntington, Samuel P. *The Soldier and the State: The Theory and Politics of Civil-Military Relations*. Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1957.
- The International Institute of Strategic Studies (IISS). *The Military Balance, The Annual Assessment of Global Military Capabilities and Defense Economics*. New York: IISS, 2010.
- Janowitz, Morris. «Military Elites and the Study of War.» *Journal of Conflict Resolution*. vol. 1, no. 1 (1957), pp. 9-18.
- Jensen, Carsten (ed.). *Developments in Civil-Military Relations in the Middle East*. Copenhagen: Royal Danish Defence College, 2008.
- Kamrava, Mehran. «Military Professionalization and Civil-Military Relations in the Middle East.» *Political Science Quarterly*. vol. 115, no. 1 (Spring 2000), pp. 67-92.
- Kandil, Hazem. *Soldiers, Spies, and Statesmen: Egypt's Road to Revolt*. Updated ed. London; New York: Verso, 2014.
- Karabelias, Gerassimos. «Civil-Military Relations: A Comparative Analysis of the Role of the Military in the Political Transformation of Post-War Turkey and Greece: 1980-1995.» Final Report Submitted to North Atlantic Treaty Organization (NATO), June 1998.
- Kårtveit, Bård and Maria Gabrielsen Jumbert. *Civil-Military Relations in the Middle East: A Literature Review*. CMI Working Paper, WP 2014: 5. Bergen, Norway: Chr. Michelsen Institute, June 2014.
- Kechichian, Joseph and Jeanne Nazimek. «Challenges to the Military in Egypt.» *Middle East*

Policy, vol. 5, no. 3 (Fall 1997), pp. 125-139.

Knight, Peter. «Preface.» in: Peter Knight (ed.), *Conspiracy Theories in American History: An Encyclopedia*, 2 vols. (Santa Barbara, CA: ABC-CLIO, 2003), pp. xi-xii.

Kohn, Richard H. «How Democracies Control the Military.» *Journal of Democracy*, vol. 8, no. 4 (October 1997), pp. 140-153.

Kronenfeld, Sami and Yoel Guzansky. «Yemen: A Mirror to the Future of the Arab Spring.» *Military and Strategic Affairs*, vol. 6, no. 3 (December 2014), pp. 79-99.

Labaune, Patrick. «Démocratie tribale et système politique en République arabe du Yémen.» *Revue française de science politique*, vol. 31, no. 4 (1981), pp. 745-768.

Lane, David. «The Orange Revolution: 'People's Revolution' or Revolutionary Coup?.» *British Journal of Politics and International Relations*, vol. 10, no. 4 (2008), pp. 525-549.

Lenze, Paul Ernest, Jr. «Civil-Military Relations in 'Islamic Democracies': Military Intervention and Withdrawal in Algeria, Pakistan, and Turkey.» A Dissertation Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy, Washington State University, Department of Political Science, May 2011.

Lutterbeck, Derek. *Arab Uprisings and Armed Forces: Between Openness and Resistance*, SSR Paper; 2. Geneva: Centre for the Democratic Control of Armed Forces (DCAF), 2011.

Makara, Michael. «Coup-Proofing, Military Defection, and the Arab Spring.» *Democracy and Security*, vol. 9, no. 4 (2013), pp. 334-359.

McMahon, R. Blake and Branislav L. Slantchev. «The Guardianship Dilemma: Regime Security through and from the Armed Forces.» *American Political Science Review*, vol. 109, no. 2 (May 2015), pp. 297-313.

Murphy, Emma C. *Economic and Political Change in Tunisia: From Bourguiba to Ben Ali*.

London: Macmillan Press, 1999.

Nye, Roger P. «Civil-Military Confrontation in Turkey: The 1973 Presidential Election.» *International Journal of Middle East Studies*. vol. 8, no. 2 (April 1977), pp. 209-228.

Orkaby, Asher. «A Passing Generation of Yemeni Politics.» Middle East Brief, no. 90. Brandeis University, Massachusetts, 2015.

Palestinian Center for Human Rights (PCHR), Arab Organization for Human Rights (AOHR) and International Legal Assistance Consortium (ILAC). «Report of the Independent Civil Society Fact-Finding Mission to Libya.» January 2012.

Phillips, Sarah. *Yemen's Democracy Experiment in Regional Perspective: Patronage and Pluralized Authoritarianism*. New York: Palgrave Macmillan, 2008.

Pilster, Ulrich and Tobias Böhmelt. «Coups-Proofing and Military Effectiveness in Interstate Wars, 1967-99.» *Conflict Management and Peace Science*. vol. 28, no. 4 (2011), pp. 331-350.

Powell, Jonathan. «Determinants of the Attempting and Outcome of Coups d'état.» *Journal of Conflict Resolution*. vol. 56, no. 6 (December 2012), pp. 1017-1040.

Quinlivan, James T. «Coups-Proofing: Its Practice and Consequences in the Middle East.» *International Security*. vol. 24, no. 2 (Fall 1999), pp. 131-165.

Rahbek-Clemmensen, Jon [et al.]. «Conceptualizing the Civil-Military Gap: A Research Note.» *Armed Forces and Society*. vol. 38, no. 4 (2012), pp. 669-678.

Al-Rasheed, Madawi and Robert Vitalis. «Introduction,» in: *Counter-narratives: History, Contemporary Society, and Politics in Saudi Arabia and Yemen* (New York: Palgrave Macmillan, 2004), pp. 1-10.

Al-Saleh, Asaad and Loren White. «Dissecting an Evolving Conflict: The Syrian Uprising and the Future of the Country.» Report, Institute for Social Policy and Understanding and the New American Foundation, June 2013.

- Sarigil, Zeki. «Civil-Military Relations Beyond Dichotomy: With Special Reference to Turkey.» *Turkish Studies*. vol. 12, no. 2 (June 2011), pp. 265-278.
- Satloff, Robert B. *Army and Politics in Mubarak's Egypt*. Washington, DC: The Washington Institute for Near East Policy, 1988.
- Spyer, Jonathan. «Defying a Dictator: Meet the Free Syrian Army.» *World Affairs Journal* (May-June 2012), pp. 45-52.
- Swagman, Charles F. «Tribe and Politics: An Example from Highland Yemen.» *Journal of Anthropological Research*. vol. 44, no. 3 (Autumn 1988), pp. 251-261.
- Tanter, Raymond and Manus Midlarsky. «A Theory of Revolution.» *Journal of Conflict Resolution*. vol. 11, no. 3 (September 1967), pp. 264-280.
- Taylor, William C. *Military Responses to the Arab Uprisings and the Future of Civil-Military Relations in the Middle East: Analysis from Egypt, Tunisia, Libya, and Syria*. New York, NY: Palgrave Macmillan, 2014.
- Townsend, Chris. «Civil-military Relations in Tunisia and Libya through the Arab Spring.» *Journal of Defense Resources Management*. vol. 6, no. 2 (11) (2015), pp. 5-12.
- Wedeen, Lisa. *Peripheral Visions: Publics, Power, and Performance in Yemen*. Chicago Studies in Practices of Meaning. Chicago; London: University of Chicago Press, 2008.